الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني: unecriv@net.sy **E-mail**

aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الانترنت

www.awu-dam.org

❑❑

أحمد رفيق عوض

عكا و الملوك

روايــة

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق – 2005

ملاحظة هامة:

قد يجد قارئ هذا الكلام صعوبة في التفريق بين ما هو روائي وبين ما هو تاريخي، ولكن باستطاعته أن يقرأ الكلام على وجهيه، فكلاهما في نهاية الأمر صحيح. هنا، التاريخ والرواية يتبادلان المواقع ليقول كلٌ منهما ما لم يقله الآخر، أو، ليتكاملا لقول ما تم السكوت عنه.

أحمد رفيق عوض.

**

الإهداء

إلى أحبتي الذين هم ذهبوا،
إلى أحبتي الذين هم حولي،
إلى أحبتي الذين سيأتون...

أحمد رفيق عوض.

ابن جبير

قل سيروا في الأرض، ولا تسمعوا لأرسطو وشرّاحه، الأرض تحدث أخبارها، وفيها من العجائب ما يكفي للاندهاش حتى آخر لحظة في العمر.

المدن تغريني، أما طرق القوافل البعيدة والمجهولة فأجد فيها وجه الله.

سيروا في الأرض، وشاهدوا آثار الأمم التي محقها الله، فغاصت في التراب أو تيبست على الحجارة.

ثمة وجه الله في كل شيء. والسفر وإن كان عذاباً كاملاً ومغامرة غير مأمونة فإنه يسفر عما يضطرب به هذا القلب وما يترع به.

المركب المصري الذي صعدت إليه، كان مزيناً بأعلام الناصر صلاح الدين، وأعلام المنصور أمير البلاد المراكشية والأفريقية، وما والاها من بلاد الأندلس، ومملكة غانة في الصحراء، وبرقة على شاطئ بحر الروم.

وكعادة البحارة المصريين فإنهم يسمون مراكبهم أسماء حسنة، وهذا ما لم أشاهده في بحار أخرى أو موانئ أخرى. وكعادة البحارة المصريين . أيضاً . فإنهم يجاملون حاكم البلاد التي يمرون بها، فاسم مركبهم عندنا في سبتة "المنصور" أما في الاسكندرية في "الناصر". مراكبنا يكتب عليها اسم الله وحسن ذلك اسماً وكفى به.

البحارة المصريون وعلى غير عادة بحارة مراكش فإنهم يتعلمون أحوال النوء بالمشافهة، أما بحارة مراكش فإنهم يتعلمون ذلك بمدارس خاصة أقامها لهم المنصور في مراكش ذاتها؛ حيث أجري عليهم الرواتب وسفناً صغيرة يتدربون عليها قبل أن يخوضوا غمار البحر.

المركب المصري الذي صعدت إليه نهاية هذا الصيف، نطلق عليه . هنا في بلاد مراكش والأندلس . الجفنة . في حالة السلم . أو الجفنة الغزوية . في حالة الحرب .، أما أهل مصر وأهل الشام فيسمونه بالشلندي، ولا أدري سبب هذه التسمية، ولكن إخوتنا

المشارقة لهم مزاج لا يشبه أمزجتنا هنا في المغرب. فالمركب الذي صعدت إليه يشبه الجفنة حقاً في اتساعها وتسطحها، وهو طابقان لا ثالث لهما، الأسفل منهما للجذافين، أما الأعلى فللمسافرين والأمتعة والمؤمن.

مدينة سبتة في نهاية الصيف تتحول إلى سوق فقط، يضج بالقادمين من مصر والشام والأندلس وصقلية واقريطش وأنطاكية وجنوة وبيزة والقسطنطينية، وتجري سوق المترجمين وبائعي النقد بالنقد، ولا أعود أعرف المدينة التي أحببتها يوماً.

المدن تغريني دائماً. وسبتة لا تشبه غرناطة في شيء؛ غرناطة قطعة من جنة الله على أرضه، أما سبتة فهي مجرد سوق على شاطئ بحر الروم المزدحم. ولكن غرناطة هي عاتكة أيضاً. لما ماتت عاتكة، ماتت غرناطة.

سبتة كانت ملاذاً لي، ملاذاً من الذكريات ومن جدل الفلاسفة والفقهاء.

ناء المركب بالأمتعة من كل نوع؛ أحزمة فاس الجلدية ومناطقها وحقائبها، الأحذية الجلدية الفاخرة الملونة، سروج الخيل ذات الطبقات الثلاث التي لا شبيه لها في المشرق، الزرابي والوسائد الصغيرة التي يتعشقها سراة القوم في مصر والشام، الورق السميك الذي لا يشبه ورق بغداد أو سمرقند، فراء سرقسطة، أغطية جنجالة، أواني مالقة الفخارية المذهبة، حلي قرطبة، أسلحة طليطلة، البلور الصخري من جبال اغمات وما والاها، صوف وعسل وقطران وتبر من صحراء النيجر وأنهارها، حديد من مجاهل صحراء كتامة وغانة، ورق فاخر من لمطة. تجار من كل البلاد.

اعتدت مصاحبة التجار دائماً، في المراكب وفي القوافل وفي الخانات وفي القياسر، التجار في كل مكان، ومنهم تعلمت أن أهبط إلى الأرض دائماً، إنهم يفهمون كل شيء، ويزنون كل شيء، وعلى النقيض من ولاة الأمور، فإن لغة التجار لغة مرنة وناعمة وفيها دائماً إمكانات للتسويات، وليس من المستغرب أن تجد تاجراً من صقلية يفاوض تاجراً من سبتة بلغة عربية فصيحة لا لحن فيها، فيحددان فروق الأسعار بين الدنانير المصرية والمرابطية والدرخمية، وأيها صحيح وأيها مغشوش.

كنت في أغلب الأحيان كاتب عدل بين التجار في عهودهم و مواثيقهم ومكاتباتهم إن كانت حوالات أو صكوكاً تبرم في سبتة أو بجاية أو الاسكندرية لتدفع مرة أخرى في بلرم . أو باليرما بلغة أهل صقلية . أو إشبيلية أو القاهرة.

كنت الوحيد الذي أصعد إلى المركب المصري لا أحمل سوى جراب جلدي فيه جزء من كتاب أبي حامد . إحياء علوم الدين"، وذلك الجزء الذي أسماه "المنجيات" وفيه كتاب التوبة وكتاب الصبر والشكر، وكتاب الخوف والرجاء، وكتاب الفقر والزهد، وكتاب التوحيد والتوكل، وكتاب المحبة والشوق والأنس والرضا، وكتاب النيّة والصدق والإخلاص، وكتاب المراقبة والمحاسبة، وكتاب التفكير، وكتاب ذكر الموت.

أحب أبا حامد وأخاف منه، هذا رجل يفضحنا تماماً، يكشف عرينا وضعفنا. بعد

أبي حامد صرت أخجل مما يلم بجسدي ونفسي. من أين لهذا الرجل هذه القدرة العجيبة على إضاءة ما نشعر به أمام الناس، وأمام أنفسنا وأمام الله؟ هل كان هذا السبب هو الذي دفع بفقهاء المالكية إلى الطلب من يوسف بن تاشفين أن يحرق كتاب الإحياء؟! ومن حفظ النص إلى فهمه ومن ثم إلى تذوقه؟! سامح الله المالكية!! إنهم يضيقون بكل شيء، وهأنذا أترك المغرب وقد استفردوا بأبي الوليد الفيلسوف الذي ادعى على حبيبي وسيدي أبي حامد ما ادعى.

الفيلسوف أبو الوليد يتهم سيدي أبا حامد بالجهل، فسلط الله عليه فقهاء المالكية ليزعجوه في شيخوخته.

الجهل!! كلنا جهلة يا ابن رشد!! كلنا جهلة، وجهل الواحد منا يناسب علمه؛ كلما زاد العلم زاد الجهل، فسبحان من له البقاء والعلم.

طلبة العلم الذين صعدوا إلى المركب كانوا من غرناطة وسجلماسة وبلنسية حيث ولدت، وقد كانت فرصة لأن أسأل عن بعض معارفي هناك.

ولكن بلنسية لم تعد كذلك بعد أن حوصرت واحتلت ثم أعيد فتحها أيام المرابطين الأولى.

وندمت أشد الندم على تعريفي بنفسي، فقد تجمع هؤلاء الطلبة حولي يسألون ويستفسرون، والأهم من ذلك أن ربان السفينة علم بشكل أو بآخر أنني صهر الوزير أبي جعفر، فصار يتقرب مني بطريقة خجلت منها، وبهذا أو لهذا ضاعت فرصتي لأن أخلو بنفسي كعادتي في أسفاري.

كنت أرغب في أن أوجه الأسئلة للآخرين لا أن توجه لي الأسئلة. السفر يكسر كبريائي وعنجهيتي وافتخاري بنسبي أو بعلمي. رحمك الله يا أستاذي، علي بن أبي العيش، كان يقول لي دائماً: إياك والغرور فإنه مقتل العالم وطالب العلم معاً.

اخترت السفر حتى أظل في هذا الشعور الدائم من العجز والجهل وقلة الحيلة. ملك الله أوسع من أن يحصى أو يعد أو يتخيل. سيروا في الأرض!!

عندما أسافر أرغب في أن أتحول إلى طالب علم مرة أخرى. اسأل واندهش وأتأمل خلق الله. هذه المرة كانت مختلفة. كنت أقصد الصلاة في المسجد الأقصى الذي منّ الله علي الناصر صلاح الدين ليحرره بعد خمس وثمانين سنة من الاحتلال أو يزيد.

هذه المرة لم أرغب في الكتابة عما أرى أو أشاهد، كنت أرغب في شدّ الرحال إلى الأقصى فقط، مسبحاً ومهللاً و حامداً ولا شيء غير ذلك.

لم أرَ الأقصى قط ولم أرَ صلاح الدين أيضاً. كنت أرغب في رؤيتهما.

القصص والحكايات العجيبة التي ترامت إلينا . هنا في المغرب عن صلاح الدين . كانت من الغرابة والاختلاف بحيث دفعت المنصور حاكم البلاد إلى إرسال أسطول

ليشارك صلاح الدين انتصاراته في المشرق، أو هكذا أشيع بين الناس. المنصور حاكم طموح يريد أن يجمع الأرض والسماء بين يديه.

قيل هنا إن صلاح الدين لا يحارب إلا يوم الجمعة، وقيل إنه ابتسم للمرة الأولى بعد أن غسل قبة الصخرة بيديه بماء الورد، وقيل إنه . رغم ذلك . يصانع الفرنجة وخاصة نساءهم البيضاوات، وقيل إنه سنيّ متعصب، وقيل إنه يميل إلى التصوف، وقيل إنه يحب الدنيا ولكن خواصّه جعلت منه ناسكاً وزاهداً أمام العامة، وقيل إنه اغتصب ملك ولي نعمته نور الدين وأنه تزوج أرملته حتى يرثه تماماً، وقيل إنه يحب العلم والجهاد، وقيل إنه يحب الملك ولهذا فقد اقتسمه مع أولاده وإخوته. وقيل إنه خاضع لتأثير وزيره القاضي الفاضل، وطبيبه اليهودي موسى بن ميمون، وقيل إنه خاضع لأجناده من الترك والأكراد.

عندما زرت الساحل الشامي قبل عدة سنين، كان صلاح الدين أميراً من الأمراء الكثر الذين يتقاتلون على كل شيء وعلى لا شيء، كانت كل مفخرته أنه أنهى دولة العبيديين المثيرة للجدل بدعوتها وبدعها. أما الآن فإن هذا الرجل يحرر الأقصى بعد جهد جهيد. رجل جدير بالرؤية وجدير بالدعوة له بالنصر والمؤازرة.

طلبة العلم الذين تحلقوا حولي كانوا شغوفين . أيضاً . بالسؤال عن أحوال أهل المشرق، وقد قرأ بعض منهم كتابي الذي وضعته عن رحلتي الأولى إلى المشرق.

طلبة غرناطة كانوا أجرأ وأملح، أما طلبة سجلماسة فقد كانوا أفصح وأكثر تحفظاً واحتراماً.

سألني الغرناطي الأول: يا أبا الحسن، لماذا لم تذكر من البلاد التي زرتها في المشرق إلا المساجد والزوايا والرباطات والمدارس ونحوها؟ ألم تشاهد شيئاً آخر؟.

قلت: وماذا في الحاضرة إلا هذا!

. الناس..

. الناس عامة.. ولا يعول عليهم ولا يؤخذ منهم، ولا يعطون أيضاً.

قال طالب من سجلماسة: على كثرة اختلاطك بالناس.. كيف هذا؟!

. العامة جبلة واحدة، في سبتة أو في الإسكندرية أو في بغداد. لا يؤخذ منهم ولا يعطون.

قال غرناطي آخر: وهل فرنجة المشرق مثل فرنجة الأندلس؟!

. بل هم أسوأ وأخبث، فرنجة الأندلس نعرفهم ويعرفوننا، وهم لا يدعون الحرب من أجل الله كما يفعل فرنجة المشرق.

قال غرناطي آخر: كنت محظوظاً إذ اشتريت كتاباً جديداً وصل إلى غرناطة، وضعه أسامة بن منقذ، وهو أمير حارب الفرنجة طويلاً قال فيه أن لا فضيلة للفرنجة

غير القتال والشجاعة. فهل هذا صحيح يا أبا الحسن؟!

قلت: هذا صحيح، ولكن من الصحيح . أيضاً . أن لهم جَلداً على العمل، وأن لهم دأباً على الجهد؛ إنهم يشبهون البغال في حبهم للعمل، وبذل ما في وسعهم لبلوغ الغاية.

. وماذا عن أخلاقهم؟!

. لا خلاق لهم، وفي هذا يصدق أسامة بن منقذ.

. مضى على الفرنجة مئة عام في أرض المسلمين. فماذا يريدون يا أبا الحسن؟!

. سألت هذا السؤال لأحد علمائهم والمتبحرين في تواريخهم يدعى وليام الصوري، وهو من خواص ملك بيت المقدس، ويدعى عموري أو أمالرك بلغتهم، وقد قابلته في طريقي إلى عكا، فقال لي إن الساحل الشامي . بما فيه بيت المقدس . هو ملك لهم، وإن إنشاء دولة لهم في تلك الأراضي يحقق نبوءات كتابهم، وأن لا شأن للمسلمين بهذه الأرض.

. ولكنهم أقاموا دولاً بعيدة عن بيت المقدس؟!

. هذا صحيح، ولكن كل دولهم تلك تخضع لأمرة ملك بيت المقدس فعلاً في بعض لأحيان، واسماً في أحيان كثيرة. وذلك دليل على أن دعواهم تلك لا أساس لها من الصحة.

. فماذا تقول أنت يا أبا الحسن؟!

. أقول إن الفرنجة . وإن كانوا قد جاؤوا لحمية دينية . فقد جاؤوا . أيضاً . لما في الشام ومصر من خيرات.

. كيف ذلك يا أبا الحسن؟!

. أمراء الفرنجة ومحاربوهم وخواصهم وحتى عامتهم يتلقون العون من كنائس الفرنجة المختلفة، ومن تجار الحواضر الكبيرة مثل جنوة وبيزة والبندقية، ومن ملوك الإنكتار والدنمرقة والبلغار والألمان والإفرنسيس.

. الإفرنسيس الذين يناصرون الفونس علينا في الأندلس؟!

. هم أعينهم. ولهذا فإن حرب الفرنجة علينا في المشرق والمغرب . أيضاً . تحمل الحميتين: الدين، والمنفعة.

. وهل رأيت ذلك بأم عينك؟!

. رأيت أن الفرنجة والمسلمين متشابهون في ذلك. المنافع تحركهم وتدفعهم ثم يلتمسون من الدين الذريعة. ولهذا ترى أميراً من المسلمين يصانع الفرنجة، وترى أميراً من الفرنجة يصانع المسلمين. ولكن، وهذا ما يجب أن تعرفوه، أن كل ذلك تغير كثيراً.

. كيف يا أبا الحسن؟!

. لم يبق الآن في يد الفرنجة إلا إنطاكية وطرابلس وصور، وذلك بعد أن منّ الله على صلاح الدين بالنصر المؤزر في حطين وبيت المقدس.

. وما إنطاكية وطرابلس وصور؟!

. هذه حواضر كبيرة على الساحل الشامي بينها مراحل سفر عديدة. وقد اعتصم الفرنجة بها لأن سندهم من البحر دائماً.

. هل رأيت صلاح الدين يا أبا الحسن؟!

. لا، ولكني أرجو من الله أن أراه هذه المرة.

. هل ستضع كتاباً عن رحلتك هذه يا أبا الحسن؟!

احترت في الجواب، قلت: سيقضي الله أمراً كان مفعولاً!

ضربت طبول الإقلاع فجأة، كان خلق كثير حولي، يتبادلون آخر الكلمات والتحيات والقبلات. وقف أمير البحر ذو الصيت عبد الله بن ميمون بقامته المتوسطة وهيبته الطاغية، بالقرب من أعمدة المرسى الحديدية، بمحاذاة مركبنا تماماً، وكان ذلك إيذاناً بمراسم الوداع. تقدم ربان المركب المصري باتجاه أمير البحر بخطوات احتفالية، ثم قال بصوت عالٍ ليسمعه الجميع: نحن جاهزون أيها الأمير.

قال الأمير بصوت مسموع. أيضاً. فيما بدا أنه حوار محفوظ سلفاً من كلا الرجلين: هل مركبك قوي يا يعقوب؟!

. نعم أيها الأمير.

. وكيف ضمنت أنه قوي؟!

. لقد أثبت ذلك رجال أسطولكم المؤيد بنصر الله، عاينوا المركب وتثبتوا من صلاحيته.

. وهل يشهدون بذلك؟!

. نعم أيها الأمير، ومعه رقعة منهم تثبت ذلك.

. وهل تزودت بما يكفي من الماء والتمر والسويق والفاكهة والنفط؟

. نعم أيها الأمير

. وهل تحمل في مركبك مجرمين أو مرضى أو ملاحقين من شرطة خليفة المسلمين مولانا المنصور.

. لا أيها الأمير

. إذاً، من تحمل معك؟

. تجاراً من بلادكم العامرة، وآخرين من الأندلس، وبعض تجار من صقلية وسردينية، وطلاب علم وعمالاً لمولانا المنصور يريدون النزول في حلق المعمورة وبونة.

. وهل معك غير هؤلاء من الخواص؟!

. نعم أيها الأمير. على مركبي، العالم المحدث أبو الحسن بن أحمد بن جبير.

. وما هي طريقك في البحر؟!

. سألتزم الساحل أيها الأمير، فمن هنا بإذن الله إلى الجزائر ثم بونة ثم القالة ثم تونس ثم صقلية ثم أعود إلى المهدية، ومنها إلى برقة بإذن الله ومنها إلى الإسكندرية، بحول الله وعنايته.

. وهل معك من الجند ما يكفي؟!

. أعزك الله أيها الأمير، إن أسطولكم المؤيد بنصر الله قد كفانا شر أسطول بيزنطة في بحر الروم كله.

. وهل تحمل معك أطباء وأدوية؟!

. نعم أيها الأمير، فطبيب المركب هو تلميذ شيخ الطب في بلادكم العامرة ابن زهر، أما الأودية فهي من البيمارستان الكبير ومصدقة من ابن زهر نفسه، طبيب خليفة المسلمين مولاي المنصور.

. هل تريد أي شيء من أسطولنا لسفرتك هذه؟!

. أريد رضاكم أيها الأمير.

. هل تقسم على أن تقوم بواجبك تجاه من معك من الناس؟!

. أقسم يا مولاي.

. على بركة الله إذاً.

تعانق الرجلان عناقاً طويلاً وقوياً، ثم سلّم أمير البحر ربان مركبنا عدداً من الرسائل إلى أمراء البحر في كل ميناء نتوقف فيه، وكذلك سلمه رسالتين مختلفتين باللون والحجم لكل من الناصر صلاح الدين، أو من ينوب عنه في الديار المصرية، وكذلك للملك وليم ملك صقلية.

تراجع ربان مركبنا إلى الوراء بخطوات قليلة ثم صعد إلى المركب وأعطى إشارته للبحارة، وإذا بالقلوع الجبارة من الكتان القوي تظللنا، أربعة قلوع تقوم على أعمدة خشبية ضاربة في السماء مشدودة بالحبال والزرد، يعمل عليها بحارة قدّوا من الحديد والجلد الأسمر، كان الوقت قبل الظهر بقليل، السماء الزرقاء الناعمة المزينة بغيوم بيضاء بدت كزهر السوسن على جنبات الطرق في غرناطة، ذكرني ذلك بعاتكة التي كانت تحب السوسن بكل أنواعه البيضاء والصفراء والمنقطة، كانت ترى أن السوسن أجمل من النيلوفر أو الجلنار؛ ذلك أن السوسن أكثر هدوءاً وسلاماً وتواضعاً، صرت أحب السوسن

مثلها، وهذا الغيم الأبيض الناعم المعلق في السماء الزرقاء يذكرني بعاتكة وأيام غرناطة، أما أصوات الناس على المرسى وهم يودعون أحباءهم، فقد دفعتني دفعاً إلى مواراة دموعي.

واندفع بنا المركب في نوء طيب ورخي. طلاب العلم من سجلماسة تجمعوا في زاوية على ظهر المركب وقد ظهر الخوف على وجوههم، كانت تلك رحلتهم الأولى في البحر، ولم تمض فترة حتى صاروا يتقيأون ما اضطر الطبيب إلى إعطائهم شراب البحر المعروف في مثل هذه الحالات، الطبيب كان عشّاباً في الأصل ثم انتقل إلى صناعة الدواء والجراحة تحت إمرة الطبيب النابغة ابن زهر الذي اكتشف أدوية خاصة لمرضى القلب، وهو ما لم يسبقه إليه أحد من قبل.

البحر، الكبير، الرجراج، المخيف، ذو اللجة الغليظة، يصبح في بعض الأحيان وكأنه بساط ناعم من الزمرد الأخضر أو العسجد الأزرق. البحر ساحر حقاً، وقد رأيت منه الأهوال حقاً. وفي البحر يشعر المرء بوحدته وضعفه وقلة حيلته. ليس هناك أكثر من البحر يعلمنا التواضع، أكثر من الصحراء، وأكثر من الجبال العالية وأكثر من كل شيء آخر.

ربان المركب وبعد أن رضي عن المسير، سعى إليّ بلهجته المصرية السهلة والرخوة والممطوطة، على عكس لهجتنا في الأندلس، السريعة والمقتضبة التي نختصر فيها الحروف والحركات.

قال وابتسامة عريضة على وجهه: هل أنت راضٍ يا سيدي الفقيه.

شعرت بطيب مقصده فلم أنزعج مما وصفني به، قلت: أحمد الله على كل شيء.

قال: هل سترافقنا إلى صقلية أم ستنتظرنا في المهدية؟

قلت: لا، سأبقى معكم.

. إذاً، سيسعدنا ذلك جداً، وسنتشرف بك إماماً في الصلاة، وقاضياً في المركب.

قلت ضاحكاً: هذه مهام ليست جديدة عليّ أيها الربان.

قال على طريقة أهل الديار المصرية في الإسراع إلى المرح والانبساط: أنا أعرفكم أيها الأندلسيون.

. ماذا تعرف عنا؟!

. بخلاء حتى في الكلام.

كنت معتاداً من أهل مصر، على ذلك المرح وتلك الصراحة.

قلت: بهدوء: أهل الأندلس مدبرون وليسوا بخلاء.

قال بشيء من الجد بعد أن رأى عدم تجاوبي: لقد عشت في الأندلس طويلاً، وقد

حاربت القطلونيين تحت إمرة أمير البحر عبد الله بن ميمون، وهو من علمني فنون البحر وأسراره، ولهذا أعرف الأندلسيين جيداً.

سألت: متى حاربت مع عبد الله بن ميمون؟!

قال متفاخراً: حاربت معه في البحر المحاذي لمدينة طرطوشة على الساحل الشرقي للأندلس، ويومها انتصرنا على أهل قطلونيا ومن والاهم من نصارى أرغونه والأرض الكبيرة، وحاربت معه في المهدية التي كان يحتلها ملك صقلية وقد انتزعناها منهم بعد أن أغرقنا وأحرقنا أكثر من مئة مركب من مراكبهم.

. وكيف ذلك وأنت مصري؟!

قال وهو يتذكر: لا أتصور حياتي دون البحر، العمل في البحر يتجاوز المهنة إلى ما يشبه عشق النساء، لا أدري كيف ذلك، ولكنه حقيقي تماماً. هناك أسرار في الخلق لا يعلمها إلا الخالق، أما نحن فليس بأيدينا سوى الحدس.

. أراك تتحدث بلسان غير لسان الربانية.

قال ضاحكاً: تعلمت الفلسفة منكم. أنتم تحبون الفلسفة ولكنكم لا تعترفون بذلك.

. لم تذكر لي حتى الآن، كيف عملت مع أمير البحر عبد الله بن ميمون وأنت مصري.

قال: لهذا قصة؛ فقد كنت بحاراً في أسطول الدولة العبيدية، كنت قائد عشرة، على طراد يضرب النفط والنار، وقد حاربت طويلاً في دمياط والفرما وعسقلان، حتى سقطت دولة الفاطميين على يد صلاح الدين، ولكن ذلك لم يرض كثيرين، فعملوا على طرد صلاح الدين وعساكره بالتآمر مع ملك الروم البيزنطي الذي أرسل أسطوله إلى سواحل مصر، ولكن صلاح الدين قضى على تلك المؤامرة قبل وصول الأسطول الرومي، ولهذا فقد شك صلاح الدين بإخلاص بعض أمراء البحر، فطردهم جميعاً وكنت أحدهم، فلم يطب لي المقام بمصر، فقصدت دولة الموحدين هنا لما علمت أنهم ينشئون أسطولاً عظيماً لا مثيل له. وهكذا التقيت أمير البحر عبد الله بن ميمون الذي سلمني سفينة حرّاقة بما عليها من رجال وعتاد. ثم لما تقدمت في السن، سرّحني الأمير وعملت على هذا المركب.

. وهل هذا المركب لك؟!

ضحك الربان: أنا رجل فقير، عشت محارباً ليس إلا، لا أتقاضى سوى ثمانية دنانير في الشهر، هذا المركب لأمير أيوبي توسط لي للعودة إلى بلادي حتى يرضى عني قرقوش.

وسألني فجأة وهو غارق في سخريته: هل تعرف قرقوش؟!

قلت: لا، لا أعرفه. من هذا؟!

قال في بحر سخريته العميق: هذا خصيّ رومي من خواص صلاح الدين، استعمله علينا في الإسكندرية.

. ولماذا تسخر منه؟!

. أنت لا تعرف قرقوش ولم تسمع به. تصور أن يحكمك خصي رومي، لا يعرف لغتك ولا يفهم شيئاً سوى أن يفرض أوامره بالجند والشرطة! ستراه عما قريب.

استمر الربان في ضحكه وهو يقول: تصور، خصيّ بعقل ناقص يحكمك، فماذا تتوقع؟!

قلت: ولكن صلاح الدين اختاره!

قال الربان بصوت جاف: صلاح الدين يكره المصريين.

قلت: لا تظلم الرجل، لقد ثاروا عليه وشغبوا على رجاله.

قال: ليس إلى الحد الذي يضع فيه علينا خصيّاً رومياً.

قلت ببطء ووضوح: أليس ذلك أفضل من معارك الأرمن والسودان التي لم تكن تنتهي؟

قال بمرارة: كان صلاح الدين شديداً علينا.

لم أرغب في إكمال الحوار، كان من الواضح أن الربان لم ينس إهانة طرده من بحر مصر. ولكني لم أرغب أيضاً بإفساد العلاقة معه. قلت بشيء من الود ومحاولة إنهاء الحوار بطريقة توحي باستمرار العلاقة: هناك . كذلك . أن الناس يظهرون غير ما يبطنون، ولهذا فإن الحذر والروية أفضل الحلول. نحن في نهاية الأمر أنانيون بشكل ما.

عمال مولانا المنصور الذي اتخذ لقب خليفة المسلمين، وأثار بذلك حفيظة المشارقة والمغاربة على السواء، تجمعوا في ناحية أخرى من المركب، ولم يحاولوا الاختلاط بالتجار أبو بطلاب العلم، كانت شاراتهم الرسمية، وحركاتهم المتزنة والمحسوبة، وحقائبهم الكبيرة تعطي الانطباع بأنهم في مهمات خطرة، ولكنهم . ولأسباب لا تخفى . جاؤوا وسلموا عليّ واحداً واحداً، وتبادلوا معي أطراف الحديث حول البحر والنوء المواتي.

أذّن لصلاة الظهر، فصلّيت بالناس صلاة الظهر والعصر جمع تقديم، وكانت صلاة أترعت قلبي بالرضا، الصلاة والماء من حولك، ولا يفصل بينك وبين الغرق سوى لوح خشبي يجعل من روحك شفافة إلى أبعد حد، عندئذ تقترب من فكرة الخلق ذاتها، وتواجه السؤال العظيم المبهم: لماذا خلقت أنا بالذات؟! ولماذا كنت ما كنت عليه الآن؟! وإلى أين ستؤدي بي هذه الطريق؟! يتجلى لك الله بصورة يصعب الكلام عنها، هي صورة فوق الحواس وفوق الكلام. هي معنى شامل وصاعق يتخلل الدماغ واللحم والدم، فتعشى عيناك، ويختفي لحمك وينعدم وزنك، وتضج الدنيا بطنين لا يطاق ولا يحتمل، من الروعة أو اللذة أو الألم. شيء يدعو إلى الطيران أو الموت أو القفز إلى الماء أو

الاستخفاف بكل ما هو حولك. هي لحظات تفوق كل اللذائذ، وكل الآلام، وكل ما مرّ على المرء من أهوال أو مآسٍ.

الصلاة في الماء وعلى عكس الصلاة في الصحراء، صلاة محفوفة بالمخاطر، ولا يمكن للقلب، أن يخلو من خواطره وهمومه. يطربني ذكر الله أمام الماء، يطربني ذكر الله أمام هذا الاتساع المخيف، يحميني ويعزيني. الاسم الحبيب اسم يتسع لكل شيء ويجيب عن كل شيء.

في مثل تلك اللحظات، أشعر أن جسدي يفهم الأجساد الأخرى من الناس والماء وحيتان البحر وغيوم السماء، والريح التي تدفع القلوع دفعاً. أشعر أني أريد التوحد معها والاهتزاز مثلما تهتز. أشعر أني أفهم كل ذلك، وأستمتع بكل ذلك أيضاً.

البحارة السمر، ذوو العضلات المفتولة والعروق التي تكاد تنفجر لامتلائها تحت جلودهم، بدأوا يغنون أزجالاً مشهورة لابن قزمان:

هجـــــرن حبيبـــــي هجـــــر وأنـــا لـــ.....سْ لـــي بعـــد صـــبر

ليـــــــس حبيبـــــــي إلا ودود قطـــعْ لـــي قمـــيص مـــن صـــدود

وخـــــاط بـــــنقص العهـــــود وحبـــــــبْ إلـــــــيّ الســـــــهر

لم أرغب يوماً في سماع مخنثات ابن قزمان، ولم أحب الرجل قط، فله حياة لا أرضاها لنفسي، ولكن اللحن أخذني، امسكني من تلابيب روحي وجسدي وجعلني أطير فوق الأديم الأزرق، الأخضر، الأسود، الأبيض. ومن هناك، من تلك القمة التي دفعني إليها اللحن من أفواه البحارة، انبثق من داخلي ما كنتُ أحب أن أسمع، أزجال حبيبي وأخي أبي الحسن الششتري:

لله لله، هاموا الرجال

في حب الحبيب

الله الله معي حاضر

في قلبي قريب

إدّللْ يا قلبي وافرح حبيبك حضر

واتنعم بذكر مولاك وقص الأثر

واتهنى وعش مدلل بين البشر

دعوني دعوني نذكر حبيبي

بذكرو نطيب

الله معي حاضر

في قلبي قريب

إش نعمل في ذي القضايا وأنا عبدكم

تراني نخلع عذاري على حبكم

روحي وإش ما بقي لي نهبه لكم

أغلقت عيني على اللحن والمعنى، اكتفيت، ارتويت.

ولما هبط الليل، واجتمعت الظلمة بالموج، كان الإحساس بالوحدة والعزلة والانعزال عظيماً، كان برد أيضاً، أشعل البحارة مصباحين فقط، أحدهما في مقدمة المركب وثانيهما في المؤخرة، وعندما أذن للصلاة، كان الصوت الجميل العذب يكسر الوحشة الهائلة.

صليت بالمسافرين صلاة المغرب والعشاء جمع تقديم، ثم تناولنا طعام العشاء مما حملناه من ديارنا، واختليت بنفسي استمع إلى صوت الماء في العتمة، أفكر بما تحتي في عمق البحر من ممالك وعجائب. أما هذا كله، أما العتمة واللجة المجهولة المهولة، وأمام كل هذه العزلة، فإن الإنسان يشعر بقيمته أيضاً؛ فهو قادر على الإحساس والاستمتاع والتذوق، وكل ذلك يوصلك إلى الحبيب الذي لن يتركك أو ينساك. كنت أعرف أنني جزء من علم الله ورحمته. أراحني ذلك وطمأنني.

انشغل ربان السفينة بتحديد الاتجاه من خلال إبرة الملاحين وهي حجر من المغناطيس يقوم على حامل يسمح للإبرة بحرية الحركة، فتتجه في كل مرة إلى جهتي الشمال والجنوب. لحجر المغناطيس أسرار لا يعلمها إلا الله.

كان الربان ينحني تحت المصباح الزجاجي يتابع حركة الإبرة فوق خريطة ضخمة هي نسخة أصلية بتوقيع الشريف الإدريسي المقيم في صقلية بجوار ملكها غليوم . أو وليم بلغة أهله .، وعلى الخريطة كان يظهر بحر الروم بأكمله، وحولة الأقاليم السبعة في الأرض التي ادعى فيها الشريف إنها تشبه بيضة النعامة أو بيضة الدجاج، وهو أمر لم يقله أحدٌ من قبل.

الربان كان يلبس طيلساناً على طريقة أهل الأندلس، ولا يضع عمامة على طريقة أهل الأندلس أيضاً، بدا منهمكاً في تحديد سير المركب في قلب هذه العتمة.

كان مساعده يعطي أوامره بإنزال قلوع ساريتين لتقليل سرعة المركب، والبحارة فعلوا ذلك بهدوء وبطء. قلب العتمة، وقلب الموج، وقلب العزلة، دفع قلبي إلى أن يقفز من مكانه، كان ذلك كثيراً جداً، وأكثر ما أطيق. من أجل هذا أحب السفر، ومن أجل هذا أخاطر، ومن أجل هذا طلب إلينا الحبيب محمد أن نسافر.

فجأة اندلع جدال ساخن بين تاجر من مراكش، وطالب علم من غرناطة؛ علا الصوت حتى دمر ما كنت فيه. انتبه الجميع لما يقال، أما عمال مولانا المنصور فقد تحفزوا.

كان طالب العلم من غرناطة يقول بلهجته الأندلسية الدارجة التي يلحن فيها كثيراً:

. لا دولة المرابطين، ولا دولة الموحدين استطاعتا حماية المسلمين في الأندلس.. كل ما فعلته هاتان الدولتان هو الاستيلاء على خيرات البلاد وقتل خيرة رجالاتها.

ضحك المراكشي وقال بلهجة قبيلة مصمودة: رجالاتها؟! أليس هؤلاء هم من نسل أهل بلنسية الذين خرجوا للقاء القشتاليين بثياب العيد؟!.

شعرت بغصة في حلقيّ! لقد حدث هذا فعلاً. بلنسية بلدي، ومنها خرجت ولم أعد إليها قط، استبيحت منذ ذلك الحين. العز لا يصان إلا بالحمية والدم. في الأندلس تستباح المدن ويقتل الناس بسهولة.

قال طالب العلمِ من غرناطة: أليس أهل بلنسية أفضل من الذي رفع الآذان بغير العربية، وادعى أنه المهدي.

اندفع أحد عمال مولانا المنصور وقال بغضب: لا يتطاول أحد على مولانا المهدي، هو مهدي من الله، بالنور والرؤية والفيض والعمل. لا أكثر من ذلك ولا أقل.

قال التاجر من مراكش بلغة عربية سليمة فيها أثر من قبيلة مصمودة: دولة الموحدي، شئت ذلك أم أبيت، هي التي توفر الأمن لأهلك الآن في غرناطة من هجمات القشتاليين وبلاد البرتغال، ما تزال تذكر بالتأكيد معركة الأرك التي لم يمض عليها وقت بعد بحيث تنساها.

اندفع عامل آخر من عمال مولانا المنصور وقال: أنتم يا أهل الأندلس ناكرون للجميل؛ فقد انقلبتم على دولة المرابطين التي دافعت عنكم، وها أنتم تتهمون دولتنا بالنهب والسلب. إن معركة الأرك التي أشار إليها أخونا التاجر المراكشي معركة تسجل بماء الذهب؛ فقد شارك فيها مولاي المنصور نفسه وقد قتل من القشتاليين مئة ألف، وأسر منهم عشرات الألوف، وهكذا ضمن شرهم وكفاكم غدرهم.

قال عامل آخر أكثر سمنة وأكثر هدوءاً: ثم إن من ادعى أنه المهدي، هو مهدي فعلاً، إن سيدي ومولاي محمد بن تومرت هو من آل البيت فعلاً، حتى يوسف بن تاشفين لم يستطع أن يتجاوز الحق في هذه المسألة، إذ لما رآه وسمع كلامه خلّى سبيله،

ولم يقطع عنقه رغم طلب خواصه منه ذلك.

قال طالب العلم الغرناطي بعنادٍ كريه: كل ما نعرفه أن قبيلة مصمودة غلبت قبيلة صنهاجة. قبيلة غلبت قبيلة، نحن دفعنا الثمن.

قال التاجر المراكشي: أنت تظلم كل شيء بهذا. إن دولة المرابطين هي التي اعتمدت على الصنهاجيين أما دولة الموحدين فهي دولة كل المسلمين، وهذا مولانا المنصور خليفة للمسلمين كلهم من غانة إلى طليطلة ومن سبتة إلى برقة، وها هو يرسل أسطوله لينصر المسلمين في المشرق كما نصركم في الأندلس.

قال الغرناطي بالعناد ذاته: كان المرابطون أذكى منكم؛ فقد طلبوا إلى الخليفة العباسي تقليداً بولاية البلاد التي يحكمونها، أما أنتم فقد جعلتم من أنفسكم خلفاء على المسلمين.

انفجر عامل مولانا المنصور وقال: وماذا يملك الخليفة في بغداد من أمره؟ إن الخليفة في بغداد لا يستطيع أن يأمر جارية! فماذا تنتظر منه أن يفعل؟! هل سيحمي بلادكم من نصارى الأندلس المتربصين بكم في كل لحظة؟.

قال الغرناطي: حتى صلاح الدين طلب إلى هذا الخليفة الذي لا حول له ولا قوة ولاية الأمر.

قال عامل مولانا المنصور: إن خليفة المسلمين مولانا المنصور لا يقل شأناً عن صلاح الدين؛ فهو يقاتل الفرنجة مثله، وينتصر مثله، ويرفع شأن الإسلام مثله، ويحب العمران وأهل العلم مثله، وهو سنيّ مثله، لا فرق بين الاثنين إطلاقاً.

قال التاجر المراكشي بغضب: تقول قبيلة غلبت قبيلة، فما أنتم إذاً؟! إنكم تستعينون على بعضكم البعض بالفرنجة؛ مرة بالسيف ومرة بدفع الجزية. لقد تركتم الجهاد منذ أمد بعيد. هذا ما أنتم عليه، وإذا كان بدٌ فإن المسلمين خير لك من الفرنجة.

سكت الغرناطي مغلوباً على أمره أو خوفاً من عمال مولانا المنصور. كنت أعرف ما في قلب ذلك الطالب المتحمس. كنت أعرف أنه يريد القول أنه ضاق بحكم أولئك الملثمين أو هؤلاء البدو المتنطعين في كل شيء. كنت أعرف أنه يريد القول إن ما طبع عليه أهل الأندلس من الرخاوة والدعة والميل إلى الملذات سيضيقون بتقشف البدو، وما يبدون عليه من ضيق الأفق.

أنا ضقت ذرعاً بكل هذا، ضقت ذرعاً ببلنسية وغرناطة وسبتة أيضاً. أريد أن أسافر، وأن أسوح في ملكوت الله، أندهش وأندهش حتى آخر لحظة في عمري. قل سيروا في الأرض.

كان النقاش الحاد في قلب كل هذه العتمات يثير حنقي حقاً. كان كل شيء حولنا يدعونا إلى الصمت، أما هؤلاء فيريدون أن ينتصروا لنصف الحق أو نصف الباطل.

فوجئت بالغرناطي يسألني بصوتٍ عالٍ: وأنت يا سيد، ما رأيك بما سمعت؟

قلت: أقول بما جاء به كتاب الله: (وتلك الأيام نداولها بين الناس).

أصر الغرناطي: كيف نفهم ذلك يا سيدي؟!

كرهت إصراره. قلت: الدول لا تقوم على الغلبة فقط؛ كما أنها لا تنهزم بالغلبة فقط، هناك ما هو أكثر من هذا؟!

تنبه الجميع لما أقول. عرفت أنني لم أعد وحدي. قلت: أهل الأندلس مختلفون فيما بينهم، أما المرابطون فقد تهتكوا في أواخر أيامهم، أما دولة مولانا المنصور...

تيقظ الجميع، رغبوا في أن يسمعوا ما أقول بالضبط. لم أرغب في المجاملة.

أكملت: أما دولة مولانا المنصور فهي دولة تطمح إلى ذلك الذي يجعل من الدول باقية، وأقصد بذلك الإيمان والعمل به.

لم أقل كل ما كنت أرغب في قوله، كنت أرغب في القول إن الموحدين كانوا مضطرين لحرب الفرنجة حتى يبرروا وجودهم، وكانوا مضطربين للاعتماد على قبائل بربرية أخرى حتى يهزموا المرابطين. الدول لا تقوم على المبادئ أيضاً، إنها تقوم على أنانية من نوع ما.

لا بد من فكرة عميقة تستطيع هضم أفكار عميقة أخرى لإقامة دولة. الأندلسيون خبروا الدول التافهة التي لا تستمر لأكثر من عشرين سنة.

لم أقل ما أرغب في قوله، ربما خشيت الاصطدام بعمال مولانا المنصور. ولكن! من قال أني أحب الحديث عن الدول؟!!

شاهدت خيبة أمل ما على وجه الغرناطي الذي أراد أن ينتصر بي، ربما يتهمني أني لم أنتقد دولة الموحدين لأني صهر وزير في بلاط المنصور، وربما يتهمني لأني كنت كاتباً لأبي سعيد بن عبد المؤمن والي غرناطة عن الموحدين، لا ردّها الله من أيام، ولا أعادها من ذكرى!

الأندلس فاسقة، أما صلاح الدين فقد حرر الأقصى. أترك المغرب كله لرؤيتك يا صلاح الدين، لعلك تنقذني من مدن الأندلس جميعاً.

العتمة المتراكمة، وصوت ارتطام المركب بالموج الناعم، وهدوء المسافرين جميعاً وهمهمة الجذافين في الطابق الأسفل، كل ذلك حملني إلى غفوة خفيفة، رأيت نفسي خلالها طائراً أبيض كبير الجناحين أطير فوق قمم جبال مسنونة مغطاة بالثلج كتلك الجبال التي شاهدتها في بلاد سنجار والشام. طرت علياً وطويلاً. كنت سعيداً برؤية جذوع الجبال المهولة وهي تكتسي بغلالة بيضاء تجعل من الجبال كأنها أنهارُ من اللبن الرائب تسيل ببطء وهدوء.

صحوت سعيداً بالمنام. ربطت وعائي بحبل من الليف، وملأته بماء البحر.

توضأت، ثم اتجهت إلى الله، قلت لـه إنني أذكره، وأنني أشكره، وأنني لا أدرك مقاصده، ولا حكمته ولهذا، فإنني أسلمه أمري وقلبي وعقلي، وأطلب إليه أن ينوّرني مرة واحدة، وأن اختصر المسافات جميعاً حتى أصل إلى اليقين، تلك المرحلة التي تشمل المراحل جميعاً. قلت لـه إنني ضعيف ولا أحتمل أي شيء، خاطئ؛ أجبرني والي غرناطة على شرب الخمر حتى يكسر رتابة مجلسه.

مهزوز يعذبني كل شيء،وأحتاج إلى الناس في كل شيء. قلت لـه أن يقوّمني وأن يحميني وأن يجعلني أحبه أكثر من أي شيء أعرفه أو أشاهده أو ألمسه.

اعتذرت لـه عن أولئك الذين يتكلمون عنه بالباطل، أولئك الذين يترجمون كلام الأمم الأخرى، ثم يتحدثون بذلك إلينا.

أنهيت صلاتي وأنا أحدق في العتمة التي فوق الموج، كان ثمة نور خفيف يلتمع في الأفق من المشرق، لم يكن على ظهر المركب صاحياً غيري، وغير بحارين تدثراً بطيلسانهما بالقرب من الدفة.

قدرت أن صلاة الفجر قد حلّت. رفعت عقيرتي بالآذان، شعرت أن الأسماك والحيتان وأعشاب البحر قد لحقت المركب استعداداً للصلاة.

ربان المركب، المصري الذي لم ينس الإهانة، حدثني بكثير من الود والمرح عن فنون الملاحة وأسرار البحر، وقال لي إن ذلك يتلخص في علم الريح، وعلم الموج وعلم الجغرافية وعلم الفلك، وما يتطلب ذلك من دراية كافية بالخشب والنبات والحديد والقار وما إلى ذلك.

قال وهو يشير إلى موج البحر الهادئ حولنا: إن كل بحار عليه أن يقرأ شكل وحجم ولون الموجة القادمة نحوه، وكذلك وتيرة اندفاعها ووتيرة ذوبانها. قال وهو يمثل على كلامه بالإشارة إلى الموج المتدافع: إن الموج الخفيف الأبيض ذو الرغوة الذي يتوالد أمامك ثم يذوب بسرعة إنما يعني نوءاً طيباً. أما الموج الكبير العالي فيعني أن وراءه ريحاً قوية وعليك الحذر. والبحر حالات مثل الإنسان تماماً؛ يغضب فيرغي ويُزبد ويهدأ فيصبح كالطفل الوديع، وهو كالإنسان . أيضاً . غدار، يخدع بهدوئه، أما البحار الماهر فإنه لا ينخدع بالهدوء. عندما يهدأ البحر عليك أن تقرأ الريح أو تقرأ الشمس والقمر أو النجوم. الله لم يتركنا وحدنا مع البحر، لقد ترك لنا إشارات لنقرأها لنتسلط على البحر. أليس كذلك يا سيدي الفقيه؟

قلت معجباً: نعم... نعم.

قال: هل تعلم يا سيدي الفقيه، أن في البحر أنهاراً مثل أنهار البر، والبحار المحظوظ من يكتشف مثل هذا النهر ليسير به.. وهل تعلم أن في البحر دواب تساعد البحارة في وقت الضيق؟ عجائب البحر لا تقل عن عجائب البر.

. وماذا عن الريح؟!

. الريح مواسم، ونحن نعرف مواسمها، ها نحن في الخريف، وهو وقت طيب للسفر من سبتة إلى صقلية ومن ثم إلى الإسكندرية. الريح مواسم كمواسم المطر. وعلى البحار الماهر أن يعرف أوقاتها وأماكنها. في هذا الوقت، تهب ريح غريبة طيبة تساعدنا في السفر.

استمتع ربان المركب وهو يشرح لي أسرار مهنته، غبطته غبطة شديدة، كان محظوظاً لأن يعمل مسافراً طيلة حياته، ليس مثلي، اضطر إلى المكوث في بلد ما ومصانعة هذا أو ذاك.

فاجأني الربان بالقول: أما ما نخشاه حقاً فهو أسطول البيزنطي.

. وكيف ذلك؟!

قال: عندما نقترب من الساحل المصري أو الشامي فإن أساطيل الفرنجة عموماً تغير علينا، تنهب الأمتعة وتقتل الناس.

قلت: وماذا عن صلاح الدين؟!

قال: له أسطول قوي ولكنه انشغل بحرب أبناء عمومته أكثر ما انشغل بحرب الفرنجة.

. أنت تظلم الرجل.

. لأنه ظلمني.. لم أكن مشتركاً بالمؤامرة ضده قط.

. احذر رأسك عند تقلب الدول!.

. في أرض المسلمين، الدول تتبدل بأسرع من رغبتنا في الحذر.

الربان العجوز رأى أهوالاً كثيرة، أما فأنا فقد كنت أرغب في التكفير عن ذنوبي، ورؤية الأقصى ولا شيء غير ذلك.

مضى شهر حتى وصلنا بلرم في صقلية . أو باليرما بلغة أهلها . لا تختلف عن سبتة أو بونه أو المهدية؛ إن هذه المدن تتشابه في كل شيء؛ التجار هم هم، واللغات العربية واللاتينية هي هي، والنقود هي هي، والبضائع هي هي، في بلرم لا تستطيع أن تنتزع نفسك من أرضك، حتى الثياب كما رأيتها قبل عدة سنوات، ثياب أندلسية، وثياب شامية بالعمائم والعباءات والأحزمة الجلدية السوداء، أو تلك الحريرية الخضراء أو السوداء، ما يزال الإسلام بخير في بلرم.

انطلقت إلى "خان العربي" القريب من المرسى، سجلت اسمي ووضعت أمتعتي ثم انطلقت إلى الحمام العمومي، وهو حمام يختلف عن حمامات القاهرة أو دمشق؛ فليس فيه غرف حارة وباردة وقاعات للراحة واللهو، وإنما غرف متلاصقة صغيرة تكفي لرجل واحد فقط، ودلو ماء خشبي كبير، ولا شيء غير ذلك. احتملت الصراخ والعري المجاني،

ومن ثم خرجت أبحث عن ابن سبتة سليل آل حمود، الشريف الإدريسي، ذلك العالم الجليل الذي ترك ديار المسلمين ليعيش في كنف ملك هذه البلاد. وفيما كنت أسير في الشارع المعبد بالحجارة المصقولة، لاحظت أن نساء البلاد يلبسن ملابس محتشمة أقرب ما تكون لملابس نساء إشبيلية أو قرطبة؛ كثير من الأناقة، كثير من الزينة، وكثير من الاحتشام أيضاً. ولاحظت كذلك عند مروري في السوق الكبير أن كثيراً من تجار الأندلس والشام ومصر لهم دكاكين في قياسر خاصة بهم، وقد عرفت بعضهم في سفرات سابقة، ولهذا، فقد دعوني إلى تناول بعض الفواكه والعصائر، ولكني كنت أعتذر بلباقة.

لم يكن صعباً علي العثور على الشريف الإدريسي، فقد سألت عنه أول ورّاق في السوق، فعرفه بأسرع ما توقعت، كان الورّاق يونانياً وقد تحدث إلي بالعربية الجيدة. قال لي إن من أبحث عنه بين تلاميذه في مدرسة الطب الأولى في بلرم.

وغير بعيد عن السوق الكبير، وخلف كنيسة ذات أبراج عالية ومرهفة ضاربة في السماء، وجدت المدرسة محوطة بسورين: الأول من الحجر الأبيض المزين بالأسود والطيور، وتماثيل النساء، والحيوانات الخرافية، أما السور الثاني فمن التين والزيتون والرمان، وكأنني في حديقة حمصية أو إشبيلية، قلت للحارس بما أعرف من لغة القشتاليين عن بغيتي، فهم قصدي، وسمح لي بالدخول، صعدت سلماً حجرياً عريضاً، وإذا بي في قاعة مهولة مملوءة بالأعمدة الضخمة، أضخم من الأعمدة في مسجد غرناطة. وبين تلك الأعمدة، وجدت رجلاً قائماً بين عدد من الرهبان يتحدث إليهم بلغة لم أسمعها من قبل. توقف الرجل عندما رآني، كان في الستين من عمره أو يزيد، شعره أبيض لا يغطيه بأي غطاء، ويلبس ملابس شبيهة بملابس الرهبان إلا أنه لا يضع صليبهم. التفت الجميع إلي، كانوا سبعة رهبان متقدمين في العمر.

قلت: السلام عليكم.

صاح الشريف الإدريسي بفرح: وعليك السلام. إن لم أكن مخطئاً فأنت أبو الحسن.

قلت فرحاً باستقباله: هو أنا!!

تقدم إلي، عانقني بقوة، ثم تراطن مع الرهبان السبعة فانصرفوا باحترام كبير أظهروه له.

جمع أشياءه عن مائدة قريبة، كان هناك كتب وأعشاب وجذور وأوراق جافة وأخرى خضراء.

قلت: أرجو أن لا أكون قد قطعت عليك عملاً.

قال: جئت في الوقت المناسب، كان الدرس على وشك الانتهاء.

قلت: ظننتك جغرافياً فما هذه الأعشاب؟

قال: هؤلاء يتعلمون الطب، وأنا خبير في طب الأعشاب، وجئت اليوم أعلمهم ذلك.

كانت ملامحه جليلة، بلحيته البيضاء الطويلة، وعينيه النافذتين، وجبينه الواسع. كان فرحاً بي ولكن مرارة ما كانت تطغى على صوته.

سألني: كيف سبتة؟!

قلت: بخير، هي سوق مزدحم بين بحر الروم من جهة، وبحر الظلمات من جهة أخرى.

قال وهو يخفي عينيه عني: كم اشتقت إليها! إنها تعذبني.. أصحو في الليل، فأجد نفسي ألعب في ساحاتها، انظر إلى بحرها.. هل..

شرق صوته بالدمع.

قلت: عد إذاً!!

قال: ظلم ذوي القربى يمنعني...

. ولكنكم من بني سبتة، وجعلها حاضرة.

. ولكنها لم تعد لنا بعد.. ماذا معك من سبتة؟.

. كتاب.

. نعم الهدية. تعال احتفل بها أيها.. أما زلت تعشق السفر؟.

. ليس لي غير السفر.

. إذاً أنت مثلي. قل لي متى التقينا آخر مرة.. آه.. أنت مثلي..

. نعم.. ولكني لست خبيراً بالأعشاب.

ضحك وقال: كل جسد عشب.

أضفت: وماء أيضاً.

التقت عيوننا، ضحكنا معاً، ضحك وضحكت كما لم أفعل منذ زمن بعيد.

كان الشريف الإدريسي نحيفاً، تشع عيناه ذكاء، وقد منحه اللباس الشبيه بلباس الرهبان منظراً فيه هيبة ووقار على ما فيه من ذلك. كنت قد التقيته قبل أكثر من عشرة أعوام في الأندلس أيام كان يصف بلاد الأندلس بنفسه بأمر من الملك راجار . أو روجر بلغة أهله .. كان أيامها مملوءاً بالانفعال والدهشة وحب المعرفة والعلم، كان من الغريب أن ينغمس ابن العائلة الشريفة، بانية الدول والمدن، في وصف البلاد، وأعشابها، ومياها، وناسها، وتعلم لغاتهم وعاداتهم. كان الرجل مثالاً على تقلب الدول والأحوال، الأمر الذي جعل منه مجرد طريد يبحث عن وطن وأهل، وأن يحتمي بجوار ملك نصراني.

الشريف الإدريسي يعطيك الشعور بأنه مرتاح، ولكنه بالتأكيد لا يسمح لك بالاعتقاد

بأنه سعيد في منصبه وبما وصل إليه من تقدير في بلاط الملك غليوم، ملك البلاد.

سألته على حين غرة: لماذا سميت كتابك الذي وصفت فيه الأرض بـ "الكتاب الراجاري"، ولماذا أهديت كتابك إلى ملك نصراني؟.

توقف فجأة، غمره شعور بالانتكاس الشديد حتى خفت عليه. رفع رأسه الكبير الأشيب، قال وهو يحدق بزيد البحر المترامي حولنا: هو الملك الذي رعاني وأعطاني ومنحني الوقت والدعم، وهو ما لم أجده عند ملوك ملتي وديني. لست نادماً، لست نادماً، لقد أعطيت ما عندي كله لملك يستحق.

كنا نمشي على شاطئ البحر في طريق مرصوف، ومحفوف بشجر يشبه شجر الحور، ولكنه أقصر وأكثف، وانطلق الشريف يحدثني عن أيامه هنا، التي يقضيها في التدريس، ووضع الكتب، والمشاركة في ترجمة بعض كتب الطب والرياضيات والفلك، قال إنه يتقن اللسان الإيطالي، وهو شبيه بلسان القشتاليين أو قريباً منه، وأنه يتقن . أيضاً . لغة الإنجيل وهي لغة اليونان، أو الرومان القدماء، وهي لغة العلم والعلماء، وأهل الدين والخواص من القوم، وأضاف قائلاً: إن الملك غليوم وهو ابن الملك راجار لم يؤذ المسلمين في بلاده، ولكن بوادر ذلك آخذة في الظهور بعد أن وصلت أنباء استعادة صلاح الدين لبيت المقدس من أيدي الفرنجة، فسألته عما أشاهده من أنماط الحياة واللباس هنا، فقال لي: إن الفرنجة أناس يعرفون مصلحتهم تماماً، فنحن . المسلمون . نملك العلم والمعرفة، وهم يرغبون في التعلم سريعاً، وأضاف الشريف أن الملك غليوم معتكف منذ ثلاثة أيام بسبب ما نقله إليه أسقف صور، الذي بعثه حاكم المدينة كونراد دي مونتفرات . ودعوه المشارقة بالكندهري . يطلب إليه إنقاذ بيت المقدس. وقال الشريف بأقصى ما في قلبه من امتعاض ومرارة: إن الملك المعتل والمعتكف بصدد إرسال أسطول كبير إلى الساحل الشامي ليشارك في حرب مهولة يبدؤها الفرنجة كلهم لاستعادة بيت المقدس، وإعادة مملكتها إليها. ثم سألني الشريف فيما إذا كنت أرغب في مقابلة الملك غليوم، فزهدت في ذلك، ولكنه حسّن لي مقابلة أحد ملوك الفرنجة العظام، وكان الشريف خبيراً بالفرنجة وأصنافهم ومناقبهم، فشرح لي الفروق بين الأندلسيين والإنكتير والبياشنة والبنادقة والفلاندز والصقالبة والهنكار والدنمرقة، وعن قبائلهم الأبعد المغرقة في التاريخ. وقال لي إن الملك غليوم من قبائل النورمان، وهم سلالة حاكمة في بلاد الإنكتار، وهي تقوم على جزيرة عظيمة كثيرة المطر غليظة الغابات، وقال لي إن بنت الملك هنري ملك الإنكتار كان قد تزوجها ملك صقلية، ثم مات عنها، وترك لها حرية استخدمتها بطريقة شائنة تحرج الملك غليوم نفسه.

وافقت على مقابلة الملك، فقال لي أن أنتظر حتى يخرج الملك من عزلته وحزنه على ضياع بيت المقدس، فقضيت يوماً أو يومين أتجول في الجزيرة العامرة، ورأيت الفلاحين الأندلسيين والشاميين يزرعون الزيتون والكرمة والرمان واللوز في بلاد لم تعرف

ذلك من قبل، وزرت أحياء المسلمين في بلرم، فرأيت أن بيوتهم أضيق من بيوت النصارى، وأن حدائقهم أفقر من حدائق جيرانهم، ولما تحدثت إلى بعضهم لمست في كلامهم نذر ضيق وثورة؛ فقد أشاروا إلى أن ملك البلاد بدأ يلاحقهم ويصادر أملاكهم، وأنه يترك لشرطته نهب واعتقال من يريدون، وأضاف هؤلاء أن بعض شباب المسلمين بدأوا بانتحال أسماء نصرانية أو حتى انتحال الدين النصراني لينجوا من الملاحقة أو المصادرة أو الاعتقال. وبالصدفة المحضة التقيت بمحمد بن عباد وابنته وهما فلاحان نشيطان ولها احترام كبير بين مسلمي بلرم، فحدثاني عن نذر شر في الجزيرة التي فتحها، وعمرها المسلمون طيلة مئتي سنة أو يزيد. وقال لي محمد إن الملك غليوم . وإن كان يحب المسلمين، ويعرف لغتهم، ويستفيد منهم . لا يستطيع إلا أن يطيع ملوك الغرب الآخرين، والقساوسة المتشددين الذين يطلبون إليه طرد المسلمين من الجزيرة أو تقليل أعدادهم فيما بعد. يتزعم محمد بن عباد ثورة كبيرة يقتل على إثرها، فتتزعم ابنته الثورة من بعده، وينتهي الأمر بذبحها وذبح من معها، ويخرج المسلمون من الجزيرة بالكلية.

وبعد أن فك الملك غليوم عزلته وحزنه على ضياع بيت المقدس، طلب إلى الشريف أن استعد لمقابلة الملك.

وصلنا القصر وهو يقوم على لسان بري يتقدم في البحر أقل من نصف فرسخ، بحيث يبدو للناظر أن القصر يقوم في الماء؛ ذلك أن الموج حوله يتكاثر، ويتزايد مما يخفي الأرض حوله.

أثارني المنظر فانطلق لساني بالتسبيح والحمد. مشيت محاذراً الموج يبلل ثيابي، وما إن وصلنا البوابة حتى أفسح لنا الحرس الطريق بعد أن أومأوا بالتحية للشريف الإدريسي.

القصر صغير ولكنه آية في الجمال؛ فالبوابة الكبيرة المحروسة بالتماثيل الخرافية التي تحمل في أيديها رماحاً طويلة، ورؤوس حيوانات مائية، تقع وراءها ساحة كبيرة، ازدحمت بالأشجار الصغيرة المثمرة، وتماثيل فرسان ونساء وحيتان وصورٍ منقوشة، وأخرى منحوتة لسيدنا المسيح وأمه العذراء البتول، وكل ذلك بألوان عجيبة تجعل منها الشمس ألواناً تتغير تلقاء ذاتها.

صعدنا سلماً حجرياً كبيراً وعريضاً ومدوراً، فدخلنا بهواً عريضاً آخر مفروشاً بالسجاد المصري مزيناً بالمصابيح الزجاجية على الطريقة المراكشية، اجتزنا البهو إلى قاعة أصغر مزدحمة بالنوافذ العالية المزودة المغطاة بالزجاج الملون، فخيّل إليّ أنني في حضرة حاكم شامي أو أندلسي تماماً. في هذه القاعة المضاءة بنور الشمس وحده، كان الملك غليوم جالساً إلى كرسي كبير مكسو بالديباج الأسود المذهب، وحوله علية قومه، وقد لبسوا ملابس أندلسية سوى سراويلهم القصيرة التي ترتفع عن ركبهم، فتظهر سيقانهم، فيعمد البعض إلى لبس جوارب صوفية ثقيلة تخفي عيوب الأرجل والسيقان.

تقدم الشريف إلى الملك، وقال بصوت احتفالي بلغة القوم: السلام عليك أيها الملك.

رد الملك بالاحتفال نفسه: وعليك السلام.

الملك غليوم، الملك الشاب الذي ورث مملكة غنية، وواسعة عن أبيه الملك راجار، لم يحاول أن ينفي عن نفسه ما اتهم به أبوه من أنه الملك الوثني؛ فقد كان يلبس الطيلسان الأندلسي، ويضع غفيرة على عنقه كالخواص في الأندلس، لم يكن فيه صقلياً سوى سرواله القصير وجوربيه الصوفيين اللذين يغطي بهما ساقيه المدمجتين كسيقان المصارعين.

التفت إليّ الملك الشاب، وقال بالعربية التي تبعث على الابتسام والارتياح: أهلاً بك في بلادنا.

قال الشريف: يا مولاي. هذا هو العالم المحدث، والفقيه أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير.

قال الملك، لم أفهم مقصدك يا إدريس. ماذا تقصد؟!

قال الشريف: هذا رجل يحقق في كلام رسولنا محمد ε.

توجه الملك إليّ بالسؤال: وماذا وجدت في كلام رسولكم أيها العالم؟!

قلت: عبادة الله الواحد، ومكارم الأخلاق، و تهذيب النفوس، وحب الخير.

سألني: ولماذا يختلف الناس عندكم على كلام رسولكم؟!

قلت: اختلاف المصالح واختلاف اللهجات وفساد الإيمان.

قال: وكيف تعرف الحدث الصحيح من غير الصحيح؟

قلت: بتحري الرواة. نروي عن صادق روى عن صادق حتى الصادق الأمين، سيدنا محمد ε.

قال الملك: هذا علم لا نجده عندنا.

ثم سألني: فإذا اختلفتم حول راوٍ معين، فماذا أنتم فاعلون؟!

قلت: اختلفنا على ما هو أكبر من ذلك، وعندنا مثل ما عندكم من الانشقاقات.

التفت الملك إلى الشريف وقال: صاحبك لا يفيدنا في مدارسنا. أليس كذلك؟!

قال الشريف: أحببت أن يراك، وأحببت أن تراه. ليس إلا.

قال الملك موجهاً الحديث إليّ: وإلى أين تقصد أيها العالم؟!

قلت: إلى بلاد الشام.

اعتدل الملك في جلسته، وقال: هل سترى صلاح الدين؟!

قلت: آمل ذلك؟!

قال باهتمام بالغ: هل صحيح ما ذكر عنه في معاملته للمسيحيين داخل القدس؟!

قلت: هذا ما ترامى إلينا من أخبار في المغرب.

قال وهو يحرك يده: إنه لا يتقدم علينا في معاملة المسلمين هنا في صقلية.

قلت: لقد زرت بلادكم أيام والدكم الملك راجار، وأرى أنكم استرشدتم برأيه ونهجه، ولكن المسلمين يتذمرون من بعض أفعال الشرطة؟!

ضحك وقال: أيها العالم، أنتم عندكم علم وخير كثير، ومن العار والعيب أن لا نتعاون معاً في السلم والحياة الفضلى. ونحن. هنا. وعلى عكس مسيحيي الشام فإننا نفيد من علم المسلمين وعملهم، ولكننا في حرب معكم أيضاً، الحرب كريهة وتدعو إلى الحذر والشك وافتراض نيّة السوء، نحن نحاربكم في الشام والأندلس وبلاد الترك، الأمر الذي يصعب الحياة هنا أيضاً، أنا أعرف أنكم أكثر علماً وأنشط، ولكنكم. وفي الوقت ذاته. لا تستعملون ما عندكم بكفاءة ومهارة. إنني سأعمل ما حييت على حماية المسلمين في بلادي؛ صلاح الدين ليس أفضل مني، ولكني لا أعرف ماذا سيكون بعدي.

قلت: أرجو لعملك ومقصدك الخير أيها الملك.

أضاف وكأنه لا يسمعني: هذا عالمنا المحترم الإدريسي لا استبدله بعشر مدن؛ إنه يعلمنا كل شيء، فماذا يفيدني حربكم؟ الله لم يأمرنا بالحرب، بل أمرنا بحب أعدائنا. هل الأمر كذلك أيها الأسقف المبجل؟!

تنحنح راهب عجوز له لحية كثة تصل إلى صدره، وقال بلغة عربية سليمة: هذا صحيح أيها الملك الرفيع المقام، صاحب الرؤية العظيمة. المسلمون في بلادنا يؤدون أفضل الخدمات، وأفضل النتائج، ولكننا في الوقت ذاته، لا نستطيع أن نخالف أصدقاءنا وحلفاءنا من ملوك الغرب الآخرين.

سألته: وما هو رأيك بفرنجة الشام وفرنجة الأندلس؟!

قال الأسقف باللغة السليمة ذاتها حتى من اللحن: فرنجة الشام لا مستقبل لهم هناك بدوننا؛ هم فقدوا جذوة الإيمان التي دفعت آباءهم إلى تأسيس الممالك والإمارات، أما فرنجة الأندلس فهم الفرسان حقاً، المؤمنون حقاً، ولولا الملك المرابطي ثم الموحدي من بعده لانتصروا!!

قال الملك غليوم فجأة: وفي الشام يطلع صلاح الدين ليجمع في يديه مصر الغنية، ومعظم الشام، ويحشر المسيحيين في قلاع منعزلة وصغيرة، إنه يخطئ كثيراً؛ فقد أغضب ملوك الغرب كلهم بلا استثناء، ولا أعتقد أن الأيام القادمة ستأتي بخير بالنسبة له..

أنهى كلامه وكأنه اكتشف تسرعه، التفت إلى الشريف وقال له بما يوحي بانتهاء المجلس: أيها العالم المبجل، أحسن لضيفنا، وليذكرنا بخير عند صلاح الدين إذا التقاه!!

انحنيت انحناءة خفيفة للملك على عادة القوم، ثم خرجنا، كان قلبي منقبضاً، لاحظ الشريف ذلك فسألني، فقلت: إذاً، كل ما رأيته من هذا التعاون هنا مجرد كذب واستغلال ومنفعة.

قال بمرارة شديدة هو ينفخ: وهل حسبت غير ذلك. النوايا الحسنة لا تقدم ولا تؤخر.

قلت: هل الحرب.. هل لا بد من الحرب؟!

قال: يبدو الأمر كذلك بكل الأسف. كل ما رغبت فيه هنا هو الهدوء ولكن! حتى الهدوء لا أحصل عليه.

قلت: فلماذا لا تذهب إلى مولانا المنصور، إنه خليفة متنور، يحب العلم والعلماء. سيفرح بك؟!

لم يجب الشريف، كان من الواضح أن خيبة أمله من بني قومه لم تخب في صدره. وعندما ودعني بعد أيام. عانقني بحرارة، ثم أعطاني كتابه الراجاري مع إهداء للناصر صلاح الدين طالباً إلي أن أهنئه بالنصر.

انطلق بنا المركب، وانطلقت أفواه البحارة بأزجال ابن قزمان.

كان البحر رضياً ووديعاً بشكل سمح لي أن أنهمك في صلاتي فوق الماء. ولما وصلنا الإسكندرية، وصعد رجال المكوس ليسجلوا أسماءنا وأمتعتنا، ولندفع الضريبة والتي يسمونها "العوارّية"، قيل لنا إن صلاح الدين وجيشه عالقون في حصار عكا وأن الأمر شديد.. شديد.

وقع الشاويش بالصوت في البلد: يا أهل عكا.. المنجنيق المنجنيق.

كان الوقت بعد العصر بقليل، ولم يكن من عادة الإفرنج ضرب المنجنيق في مثل هذا الوقت فما الذي يحصل؟!

هبّ الناس والمقاتلة إلى أماكنهم، خطفت الأمهات أولادهن من الأزقة والشوارع، سار المشايخ والفقهاء إلى المسجد يدعون الله رد كيد العدو، أما الفرسان من النشابة والزرّاقة وضاربي النفط والمنجنيقات فقد سارعوا إلى أماكنهم في أبراج السور وقلاعه، وأما المقاتلة في برج الذبان خارج السور فقد دقوا الكوس، ونعروا بالبوق ليسمع بذلك معسكر السلطان صلاح الدين فيأخذوا أهبتهم.

اندفع الأمير بهاء الدين قراقوش من مجلسه في الطابق العلوي من قلعة الملك وهي المشرفة والمواجهة لمعسكر الإفرنج من الناحية الشرقية، وأطل من كوة صغيرة مغطاة بالجلود المبللة بالخل، فرأى ما أدهشه حقاً؛ ذلك أن العدو عمد إلى منجنيق كبير عظيم الشكل لا يشبه المنجنيق العربي في رهافته ودقته ولا يشبه المنجنيق التركي في سرعة إنجازه، بل هو منجنيق يقذف الأحجار ذات الرؤوس المدببة، تزن الواحدة منها ما يزيد على مئة رطل شامي، وكذلك كرات النار وكتل الحديد، أما طوله فيزيد عن نصف سور البلد.

دخل الأمير الأسفهسلار حسام الدين أبو الهيجاء مقدم العساكر في عكار المحاصرة بكامل لأمته، اندفع إلى القول دون أن يطرح التحية: بماذا تأمرنا أيها الأمير؟!

لم يفقد قراقوش شيئاً من هيبته أو وقاره، فقد رأى من الحروب ما يكفي في حياته. قال بهدوء: ادعُ لي ضاربي النفط والزرّاقين.

أشار أبو الهيجاء لشاويش قريب من باب الحجرة، وأمره بطلب والي البلد بهاء الدين قراقوش.

صمت الرجلان وهما يحدقان من الكوة إلى المنجنيق الإفرنجي العجيب.

قال أبو الهيجاء: الملاعين.. إنهم أصحاب صنعة!!

هز قراقوش رأسه دون أن يجيب، كان يتابع حركة مقاتلة الفرنجة وهم يستعدون لإطلاق الحجارة على البلد.

قال أبو الهيجاء: برأيك أيها الأمير، ما الذي استجد حتى يبدأوا بالمناجزة.

قال قراقوش: اليأس والجوع والعزلة، ألم تر أن أحداً لم يأت لنجدتهم من البحر، أو من صور أو من طرابلس؟ ألم تسمع أن الجوع قد فتك بجمعهم؟ لقد كتب لي مولاي السلطان في كتابه الذي وصلني البارحة أن غرارة القمح صارت بأكثر من تسعين ديناراً صورياً، حتى اضطر هؤلاء إلى أكل جلود خيولهم.

. إذاً، هو قتال اليأس!!

قال الأمير: هو كذلك.

وما أن أنهى الأمير جملته حتى أزّ في الجو حجر هائل الحجم، تجاوز المسافة بين معسكر العدو وسور البلد، اندفع الحجر بكامل جرمه وشرّه، يحرق الهواء حوله، ويصدر صفيراً مروعاً، تجاوز المقاتلة الذين يختبئون خلف الباشورة أعلى السور، تجاوزهم وهم يحدقون به، مأخوذين باندفاعه وسرعته وصورته ورائحته، ومن ثم سقط قريباً من مخزن الغلال وسط السوق، مصدراً ضجة هائلة، ومن عجب أنه لم ينكسر ولم يتفتت إلى شظايا كعادة الحجارة. أسرع الصبيان المكلفون بحجارة المنجنيق إلى زحزحته من الطريق، وهم يكبرون ويهللون. كانت مهمة هؤلاء جمع الأحجار المتساقطة أو شظاياها، ونقلها إلى السور لبناء ما تهدم منه، أما مهمتهم الأخطر فهي صنع شبكات من الليف القوي ينشرونها بين السطوح لاعتراض الأحجار أو كرات النار، وقد قتل منهم الكثير بسبب الأخطاء أو التسرع أو عدم الحذر. منذ اليوم الأول لحصار البلد وجد الأمير بهاء الدين قراقوش عملاً لكل نفس حية داخل السور، حتى الأطفال الذين لم تتجاوز أعمارهم السابعة فقد عهد إليهم بجمع القمامة من شوارع البلدة وأزقتها، ومن ثم وضعها في غرارات تبلل بالنفط لقذفها على الفرنجة من جديد، أما في أوقات السلم وخاصة أيام الشتاء، فإن مشايخ المسجد الجامع يتكفلون بتعليم هؤلاء الأولاد الحروف والآيات والأرقام. بهاء الدين قراقوش لم ينس شيئاً، حتى أنه طلب إلى النقاشين والبنائين والفعلة والصناعيين أن يكلموا المقرنصات الداخلية للباب الجديد الذي استحدثه في سور عكا وسمي باسمه: "باب قراقوش"، وقد تشرف هذا الباب، ودخل منه السلطان الناصر أبو المظفر صلاح الدين يوسف، أعزه الله بنصر من عنده، وخذل به أعداءه.

الأمير بهاء الدين قراقوش، المملوك الرومي الذي التقطه آل أيوب في معارك قديمة حول بعلبك أو دمشق أو ربما في بلاد الروم أيام كان العظام من آل أيوب يحاربون كل من أمروا بمقاتلته. انتقل إلى خدمة السلطان الناصر صلاح الدين، عندما

انفض من حوله الأمراء الذين والوا نور الدين زنكي . قدس الله روحه . وكذلك انفض عنه حتى بعض أقاربه من أولئك الذين طمعوا في ملك مصر . في ذلك الوقت العصيب، التفت السلطان الناصر، بسمرته الغامقة، وابتسامته الآسرة وقال لقراقوش: أحتاجك الآن يا بهاء الدين.

قراقوش، في تلك اللحظة، لم يستطع أن يتنفس، قال بصوت مخنوق: مُرني أيها الأمير الاسفهسلار؟!

قال السلطان الذي كان يعرف منذ نعومة أظفاره أنه سلطان: منذ اللحظة تبدأ أيامنا، سنخدم هذه الأمة بأكثر ما فعل مولاي نور الدين.

قال قراقوش وهو يستعيد القدرة على التنفس: مُرني أيها الأمير.

مد السلطان صلاح الدين يده الكبيرة، السمراء، المشعرة، الطيبة، القوية، ولمس كتف قراقوش وقال: انفضّ عني الأمراء، وألقي عليّ حمل ثقيل. أريدك من أخص خواصي.

قال قراقوش: أفديك بعنقي أيها الأمير.

قال السلطان: وأنت أمير . أيضاً . يا بهاء الدين.

بهاء الدين قراقوش المملوك الرومي، الأبيض بين السمر، صاحب اللكنة أمام كل هذا الحشد من الفقهاء و العلماء والمتصوفة والشعراء، مجهول النسب أمام كل سليلي العائلات والعشائر، فقد القدرة على التنفس مرة أخرى.

اندفعت الحجارة المدببة المسنونة باتجاه سور عكا، وقد اختار العدو بقعة محددة تحت باشورة السور في برج عين البقر المقابل تماماً لتل المصلبين، حيث تنتشر خيام العدو وعساكرهم. صوت الارتطام بين حجارة المنجنيق، وحجارة السور، كان يثير في الصدور كل النوازع، أما شرر النار التي تنقدح بين فكي الحجارة فقد كانت تضيء ما حولها بوهج وحشي.

دخل الزراقون والنفاطون حجرة والي البلد. كانوا حوالي خمسين شاباً بعضهم من دمشق، وبعضهم الآخر من ناصرة أو شفرعم أو الزيب، تلك القرى التي تحيط بعكا من شمالها وشرقها، أما مقدمهم فهو شاب من الديار المصرية ويسمى الراضي، كانوا فرقة تثير الضحك في عكا المحاصرة؛ فهم يتحدثون بلهجات مختلفة أدت في بعض الأحيان إلى سوء الفهم، ومن ثم إلى مواقف مضحكة تندر بها المحاصرون.

قال الراضي، مقدم الفرقة، بلهجته المصرية الممطوطة: بماذا تأمر أيها الأمير؟!

التفت قراقوش إليه بعد أن أغلق الكوة التي كان يراقب منها الموقف، قال بهدوء وثقة: أحرقوا هذا المنجنيق. صمت الجميع. قال المقدم: ولكنه بعيد عن السور و.... .

تردد ثم أضاف: كما أن بيننا وبينه خندقاً عميقاً كما تعرف و.... .

قاطعه قراقوش بحدة: أحرقوه..

ساد صمت قصير، أضاف قراقوش: هذه الليلة.

قال الراضي بعد تفكير: أريد إذاً أن يساعدني مقدمو الأسطول.

قال قراقوش: افعل ما تريد، خذ ما تريد، ولكني أريد أن تحرق هذا المنجنيق هذه الليلة.

قال الراضي وهو يلتفت إلى فرقته: لك ذلك!!

صاح بعض الشباب: يا للإسلام.. يا للإسلام!

تلك كانت صيحة السلطان الناصر صلاح الدين في كل معاركه، تعلمها الجميع ورددها الجميع. فانفرجت أسارير الأمير بهاء الدين، كان الجميع يعرف أن لا شيء يفرح هذا الأمير سوى ذكر السلطان أو ما يذكر به. انطلق أعضاء الفرقة بثيابهم الجلدية اللامعة وأحزمتهم العريضة التي يخبئون فيها ما لا يخطر على بال من الأكاسير والمستخلصات.

هبط الليل على عكا المحاصرة، وعلى بحرها وعلى ما جاورها، من أرض فلسطين. أشعل العدو نيرانه أمام خيامه على تل المصلبين والمرج أمامه، فيما رفع آذان المغرب في معسكر السلطان الناصر صلاح الدين في تل كيسان. المقاتلة في برج الذبان الواقف كالمسلة ما بين البحر وسور عكا أشعلوا مصابيحهم، وبدأوا بصلاة الحذر، فيما لم يستطع الناس إشعال مصابيحهم جميعاً؛ فقد شح النفط والشمع والدهن منذ لحظة الحصار، إذ جمع قراقوش ما عند الناس من ذلك وسلمه لمقدم الزراقين والنفاطين، لم تنقطع الحجارة عن التساقط على باشورة برج عين البقر أو داخل أسوار المدينة، ولم ينقطع الصبيان عن ملاحقة الحجارة، وكرات النار أو كتل الحديد، كان كل ما يسقط يعاد استعماله مرة أخرى. وفي لحظة قدر مقدرة بعلم علام الغيوب، سحق حجر مسنن ومدبب صبياً في العاشرة، هو ابن لصاحب صندوق الظل، نصراني من أهل عكا يدعى ليث، له صوت جميل يرتل به في الكنيسة، بقي الصبي مدة طويلة في الزقاق لا يمكن الاقتراب منه، حتى انتصف الليل وهدأت الحجارة، تقدم الناس إليه بالمشاعل الخشبية، رأى ليث ابنه معجوناً تحت الحجر وقد تجمدت صرخته على فمه، وتحجرت عيناه على مشهد لا يطاق، أجهش ليث بالبكاء، فأبكى الناس، حتى قراقوش الذي لم يعرف أباه أو أمه، شعر بأن اللحظة ظالمة لا تحتمل. وفيما كان الناس يأخذون الصبي إلى الكنيسة، كان الراضي ورجاله يسبحون خارج الأسوار باتجاه طرادٍ شامي أصنع أثبت جدارته في معارك البحر.

كانت خطة الراضي سهلة تماماً؛ فقد طيّر حمامة حملت رسالة كتبت بالترجمة إلى معسكر السلطان تطلب إليهم أن يغيروا على معسكر العدو ليلاً لمشاغلتهم، وفي تلك اللحظة، يكون الراضي ورجاله قد التفوا حول عكا من البحر، ووصلوا إلى المنجنيق

العملاق الرابض خلف الخندق العميق الذي يزيّر عكا في البحر إلى البحر ليفصل بين المدينة والإفرنج الملاعين.

صعد الراضي ورجاله بهدوء إلى الطراد الذي كان ينتظرهم وراء صخرة ناتئة يسميها أهل عكار "صخرة الغراب" بسبب شكلها الذي يشبة سفينة الغراب، وبسبب أن سفن الإفرنج الأولى التي جاءت قبل مئة عام تقريباً ربطت مراسيها فيها، وألحقت بالبلاد الخراب. انطلق الطراد الشامي كالسهم في العتمة، كان الرجال يعرفون الماء من رائحته، هم أهل البلاد، يعرفون ترابها وأمواجها وهواءها كما يعرفون أبناءهم وزوجاتهم وأصدقاءهم.

كان الليل ينتصف تماماً حسب المزولة الرملية في خيمة الطواشي قايماز النجمي، عندما أعطى إشارته بالهجوم، فانطلق الخيالة والمشاة في بهيم الليل وهم يصرخون من أقحافهم: يا للإسلام.. يا للإسلام!

قطعوا المرج الذي يفصل بين تل كيسان وتل المصلبين من جهة الشمال، حيث خيام ملك بيت المقدس الخرع الناكث للوعد، وحيث جنوده أضعف الجنود، وحيث خيامه أقل للخيام.

الهجوم في منتصف الليل لم يكن معتاداً بين المعسكرين، والصراخ من بعيد لم يكن معتاداً أيضاً. فما الذي يجري؟! الفرنجة الذين أنهكم جهد النهار، والجوع والعطش، ذلك أن صلاح الدين منع عنهم الوصول إلى النهر الحلو، فوجئوا بالهجوم المباغت، قاموا إلى خيولهم وأسلحتهم، ولكن الأمر كان قد فات؛ ذلك أن فرسان المسلمين اقتحموا خيام ملك بيت المقدس ونهبوها وأحرقوها ثم فروا من المكان، وفيما كان ذلك يجري في ليل دامس، سمع المعسكران أصوات رعد هائل، وهج أضاء البحر والبرية ثم دخان أبيض عم المكان. كان الراضي ورجاله قد فجروا المنجنيق العملاق، وذلك باستعمال ثلج الصين الذي أتى به الراضي من قلعة شيخ الجبل راشد الدين سنان الحشاش الإسماعيلي. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يقوم فيها الراضي باستخدام هذا الإكسير في الحرب، فهذا الإكسير الشبيه بكرات الثلج ينفجر دفعة واحدة وفي كل الاتجاهات، ويقتل كل من حوله، الراضي الذي طلب إلى شيخ الجبل أن يحضر له هذا الإكسير لم يعرف الكثير عنه؛ فقد اعتقد أن الزرّاقين سيحشونه في أنابيبهم المعدنية، ومن ثم يحرقون أحد طرفيها فتندفع النيران من الطرف المغلق الآخر، ولكن ذلك لم ينجح، ذلك أن التجربة الأولى قتلت صاحبها عندما وضع كمية كبيرة من الإكسير في الأنبوب المعدني، وبعد تجارب عديدة مضنية، استطاع الراضي أن يخلط كمية صغيرة من الإكسير، وأخرى من الجير وألياف الكتان والقطن، ومن ثم حشى كل ذلك في أنبوبة غليظة قصيرة أغلق أحد طرفيها بحصوة ملفوفة بخرقة، وأغلق طرفها الآخر بخرقة مبللة بالنفط، ثم أحرق هذا الطرف ورمى بها، فإذا بها تنفجر انفجاراً مروعاً، حتى أن معسكر السلطان

الناصر طيّر رسالة مكتوبة بالترجمة إلى قراقوش يسأله فيها عن هذا الإرعاد الشديد الذي سمع داخل البلد.

قراقوش الذي كان يراقب كل شيء من حجرته في قلعة الملك، لم يشاهد الكثير من العتمة، ولكنه سمع صوت الانفجار الهائل. فانفرجت أساريره، وعلى الرغم من نفوره من المصريين الذين قاتلوه في القاهرة والإسكندرية، وأطلقوا عليه الإشاعات والنكات ما أذهله وضايقه، إلا أنه قال لنفسه إنه محظوظ بهذا الراضي العجيب، الذكي والمثابر والشجاع.

الأمير أبو الهيجاء الذي كان يقف بجوار قراقوش، ويتابع معه المشهد لم يتمالك نفسه فتحرك حركات فرح وانتشاء، ثم هدأ بعد أن رأى رباطة جأش وهدوء الأمير قراقوش، قال بلهجة اعتذار: لا يملك المرء نفسه أمام النصر.

قال قراقوش بهدوئه المعتاد: لم ننتصر بعد أيها الأمير.

الأمير أبو الهيجاء، ابن العشيرة العربية القوية الممتدة من أرض فلسطين المحروسة إلى حلب المحروسة وما جاورها لم يكن يجد في نفسه شيئاً من إمرة هذا الرومي الأبيض، بل كان يجد ما يثيره من هذا الهدوء والتزمت والوقار الذي لا مبرر له ويكاد يصل إلى حد الادعاء.

الأمير أبو الهيجاء الذي يعرف أن عشيرته قاتلت في أرض فلسطين المحروسة، وفي أعالي سوريا، وفي الجزيرة، وديار بكر، لم يكن يجد في نفسه شيئاً ما حوله من أمراء الكرد والترك والسودان والغز والعرب والمشارقة والمغاربة ما دام الكل مجمعاً على حماية الدين والملة والأرض والعرض.

الأمير أبو الهيجاء كان يعرف أن فلسطين المحروسة، وعلى مدى أكثر من ثلاثمئة سنة، وبسبب وقوعها بين دولة العباسيين ودولة الفاطميين، فقد تعودت على أمراء من كل لون وجنس ولغة، حتى أمراء الأرمن الذين كانت له صولة وجولة في دولة الفاطميين البائدة.

أما قراقوش هذا، فقد جاء إلى مدينة عكا تسبقه الأساطير والحكايات التي نسجت عنه وحوله؛ فقد قيل عنه إنه على صلة بالجن الذي بنى لسليمان ملكه؛ ذلك أن هذا الرومي استطاع في فترة وجيزة أن يبنى بأمر من صلاح الدين قلعة مهولة ظاهر القاهرة على جبل المقطم، وأن يبني أسوار المدينة في غمضة عين، وقذف به صلاح الدين إلى الإسكندرية ليمنع عنها أساطيل الروم والفرنجة عموماً، ففعل قراقوش الفعل ذاته وفي الوقت ذاته. إنه يحكم الجن، فهو لا ينام الليل، ولا يأكل ولا يشرب، ولا يضحك، ولم يتزوج، ولم يعرف عنه سرقة الأموال، وقد أطلق عليه الشاعر عمارة اليمني اسماً لصق به أثار الضحك دائماً، فهو "الضّبْ"، ذلك الحيوان الصحراوي الذي لا يأكل ولا يشرب إلا مرة في السنة ولا يعمل إلا في الليل، وهو مثله في الانغلاق والعزلة والشدة والحدة. عمارة اليمني هذا ظل على ولائه لدولة الفاطميين، وجاهر بعدائه للسلطان الناصر،

وانتهى به الأمر إلى القتل، ولكن اسم "الضب" ظل حيّاً في الأذهان، ولما كان قراقوش شديداً على الناس، كل الناس، لتوطيد دولة سيده صلاح الدين، ولبناء القلاع والأسوار، فقد رأى المصريون ما لم يروه من قبل، ولأنهم أصحاب نكتة، وأرواحهم مرحة ويميلون إلى الصبر، فقد حولوا هذا الرومي إلى ضحكة طويلة، ساخرة وحادة ومؤلمة، وقد وصل صدى هذه الضحكة إلى كل بلاد الإسلام حتى مجلس الخليفة العباسي المستضيىء، إذ تبرع أحد ندماء الخليفة بسرد نوادر قراقوش وحكاياته، فضحك الخليفة حتى بانت نواجده.

النوادر التي وصلت إلى أهل عكا عن واليهم الجديد جعلتهم يتوقعون الأسوأ من والٍ أبيض رومي وخصي. ولكنهم فوجئوا بالرجل، بوقاره، وسمته الواثق، وهدوئه العجيب، ورغبته في الدفاع عن البلد، وتجديد أسوارها المهدمة، ورفع أبراجها المنهارة وخاصة برج الداوية.

وقد حاول قراقوش إطلاق اسم جديد على هذا البرج ليمحو أثر فرسان الداوية الملاعين، ولكن أهل البلد لم يتخلوا عن الاسم القديم.

أهل عكا لم يتندروا على الرجل، بل وقروه ونادوه بلقبه الذي يطربه كثيراً، أبو عبد الله، من جند الأسدية، وعندما كان يلبس لأمة الحرب الكاملة التي يسمونها بالكردية "الكزاغندة"، حاول أهل عكا لبسها رغم ثقلها وعدم ليونة الحركة فيها، إلا أنهم لبسوها ولمسوا قدرتها على توفير الحماية من سهام العدو ونشابه.

أهل عكا، أهل البحر وخبرة التجار، جعلتهم أقرب إلى الليونة في التعامل الظروف، ولكن "قراقوش" كان لا يعرف سوى بناء الأسوار، والقلاع ومباشرة الحرب. أهل عكا خبروا الحرب . أيضاً . وقد تعاملوا مع أجناس الفرنجة كافة وعرفوا لغاتهم وأموالهم وأهدافهم ومصالحهم. أوقات الحرب تحتاج إلى نفوس أخرى وتعامل آخر.

عندما قدم قراقوش والياً على عكا، كانت مجرد مدينة خربة، خربها الفرنجة قبل أن يستردها المسلمون، قبل أن يخرج الفرنجة منها، هدموا أسوارها، ونقضوا أبراجها، وخربوا كنيستها وردموا ميناءها، ثم تركوها مدينة تحترق.

"السيطرة على عكا هي قطع البحر عن الفرنجة"، هكذا قال السلطان الناصر صلاح الدين، لم يجد خيراً من قراقوش يسلمه المدينة ويعيد إليها بهاءها، ويمنع عنها بحر الفرنجة.

أهل البلد الذين عاشوا داخل الأسوار وخارجها، وكانوا مجرد خدم للفرنجة، يزرعون ويعملون في المهن التي لا يقبل عليها فرسان الفرنجة، عادوا إلى مدينتهم بقدوم الوالي الجديد قراقوش. حدثوه عن فظائع الفرنجة وجرائمهم وفسقهم وفجورهم، حدثوه عن عذاباتهم وأيامهم ولياليهم التي كانوا لا يأمنون فيها على أرواحهم أو زوجاتهم أو أطفالهم أو زرعهم. قالوا له إن أكثر الأشياء رعباً في الدنيا هو أن تكون تحت رحمة عدّوك الذي لا يرقب فيك إلاً ولا ذمة.

أهل البلد الذين اندفعوا إلى مدينتهم يبحثون فيها عن منازلهم التي ضاعت أو صودرت أو هدمت، شاهدوا جيش السلطان الناصر الدين، جيشاً جهماً ومتوتراً، يلبس الحديد والخوذ ويتراطن بلهجات عديدة ومختلفة، ولهم أسماء لا تشبه أسماء أهل البلد، ولكنهم مسلمون في نهاية الأمر، مسلمون وجاؤوا لإنقاذ البلاد والعباد. الجيش خليط من الأكراد والأتراك وهم جميعاً في خدمة الإسلام والمسلمين.

أهل عكا رأوا في الوالي الجديد مخلصاً لم يكونوا يحلمون به يوماً. ولما طلب إليهم البناؤون والفعلة والنقاشون والحدادون والنجارون، تقدم الجميع بأريحية عالية. كانوا يريدون أن يغضبوا عن كل الأيام والسنين التي رأوا فيها الفارس الفرنجي يقتل أو يخطف أو يخرب. الفارسي الفرنجي الذي لا يعرف لغتنا ولا صلاتنا ولا حبنا لأشجارنا وزرعنا وبيوتنا، الذي لا يفهمنا ولا نفهمه، الذي يعتقد أنه وحده يعرف الله ويعرف الخير، ويعرف الحرب أيضاً.

ولهذا أحب الناس الأمير بهاء الدين قراقوش بن عبد الله الأسدي، أحبوه من كل قلوبهم، واستغربوا أن تحكى النوادر عن رجل متقشف مثل هذا، لا ينام الليل ولا يضحك، ولا يمد عينه إلى حرام أو مشبوه، يجهد في توفير كل شيء لرفع الأسوار، والأبراج وتعزيز حامية البلد، وشحنها بالميرة والرجال من كل حدب وصوب. ولما حاصره الفرنجة بقيادة ملك بيت المقدس غي دي لوزجنان أو ما يطلق عليه المسلمون اسم الملك العتيق . لأن السلطان الناصر صلاح الدين أسره في حطين، ثم أعتقه بعد أن أخذ منه العهود المواثيق بأن يظل مملوكه ولا يرفع في وجهه سلاحاً أبداً، لكنه نكث بوعده . وكذلك مقدم الفرسان الداوية . أخبث أنواع الفرنجة .، لم يكن قراقوش يتوقع الحصار من البر بل من البحر. ولكن قدر الله وقع، وإذا كان قدر الله فإن الله يسوق إليه من الأسباب ما يوجبه.

وما إن تجاوز الراضي ورجاله برج الذبان بقليل حتى هب الناس، قدموا للفرقة وجبة لا تقدم في مثل هذا الحصار؛ فقد وضع الناس أمام الراضي وفرقته عدساً وملوحات ومخللات وأجباناً وأعسال نحل وفطائر، وما أن انتهى الطعام حتى رفع المؤذن صلاة الفجر، صلى الناس فرحين متفائلين بالنصر. تضرعوا إلى الله أن ينصرهم، وأن يبعد عنهم شر الفرنجة الذي يتناسل مثل النمل. خرجوا من المسجد كل إلى موقعه، أما قراقوش فقد صعد إلى حجرته في قلعة الملك قريباً من برج الداوية، ولم يكد يغفو حتى وقع الصوت: جاءت سفن الكندهري.

والكندهري . لعنه الله . هو كونراد دي مونتفرات بلغة أهله، وهو من البياشنة أو من الجنوية ويقال إنه من مدينة رومية عظيمة تسمى "بيدمونت"، وهو من أكابر الفرنجة وأعيانهم وأخبثهم وأشدهم، حاصره الناصر صلاح الدين في صور ولكنه لم يستسلم، وقد عرض عليه السلطان أن يطلق سراح أبيه العجوز مقابل المدينة، ولكنه رفض بشدة وقال إنه يفضل موت أبيه على تسليم المدينة؛ فمدينة صور هي ما تبقى للفرنجة بعد سقوط

بيت المقدس، وهدد بملوك الغرب الذين سيملأون البحر سفناً ورجالاً.

والكندهري في أواسط العمر، طويل القامة، أشقر الشعر، عريض المنكبين، متجهم الوجه، ويتقن لغة العرب وملم بأصول دينهم، وقد اختلف مع البابا نفسه حول مسألة إنقاذ بيت المقدس، وانصرف مغاضباً، وأرسل الرسل إلى ملوك إنكلترة وألمانية وفرنسة وهنكارية والدنمرقة وملك الروم في القسطنطينية . ولكنه خذله . وقد حمّل أسقف صور رسائل وصوراً تصور السيد المسيح وهو يُضرب من قبل المسلمين، وبعث به إلى الغرب، ولم يعترف الكندهري بسلطة الملك العتيق أو غي دي لوزجنان ملك بيت المقدس المهزوم، واعتبره المسؤول عن ضياع المملكة اللاتينية المقدسة، بل ذهب إلى أبعد من ذلك؛ فقد وصفه أنه لا يتمتع بمزايا سوى فضيلة الاضطجاع مع وريثة عرش المملكة، الملكة سيبيل، التي توفي زوجها الملك أموري فتزوجها هذا الرجل فصار ملكاً بين ليلة وضحاها، وقد رفض الكندهري إدخال الملك العتيق إلى قلعة صور للاختباء بها من بطش صلاح الدين، فاضطر هذا الملك إلى الاتجاه جنوباً حيث عكا فحاصرها ومعه فرسان الداوية . لعنهم الله .، وما مجيء الكندهري هذا الصباح بثمانية عشر شانية إلا نذير شؤم حقيقي؛ ذلك أن مجيئه يعني اجتماع الفرنجة على كلمة واحدة بينهم، أو أن ملوك الغرب قدموا من وراء البحر كما هدد الكندهري صلاح الدين يوم حاصره في صور.

هب الأمير بهاء الدين قراقوش، وأمر الشاويش بمناداة الأمير "أبو الهيجاء" ومقدمي الفرق جميعاً، وما هي إلا دقائق حتى حضر الكل وهم يطردون بقايا الرغبة في النوم من عيونهم.

قال قراقوش: الأمور تنذر بالأسوأ.

قال ذلك دون أن تبدو على وجهه علامات الفزع أو الانزعاج، قال ذلك بحيادية.

قال الأمير أبو الهيجاء: المشكلة أيها الأمير، أن لا مراكب لدينا في الميناء، سوى مراكب صغيرة لا تستطيع مواجهة شواني الفرنجة. لقد عددنا ثمانية عشر مصباحاً في البحر.

قال الأمير بهاء الدين: أكتب كتاباً لمولانا السلطان صلاح الدين أعلمه بالأمر، وأطلب إليه أن يرد عنَّا أسطول الكندهري.

كان الكاتب الدمشقي حاضراً، وهو من تلاميذ الكاتب العماد الأصفهاني، وقد ألم بطريقة الكتابة بالترجمة حيث لا يفهم الأعداء من الرسالة شيئاً إن وقعت في أيديهم، فلكل شيء رمز ولكل حالة إحالة، وهو أمر لا يطيقه العماد ولا تلاميذه الذين يميلون إلى السجع والتقفية والاسترسال.

أملى أبو الهيجاء الرسالة ثم شدت إلى رجل حمامة ثم طيرت من فوق برج الداوية، فرآها الفرنجة، فأطلقوا عليها ما شاء لهم من الزنبورك، ولكن الله سلم الحمامة والرسالة

إلى أن حطت في الحضرة السلطانية عند سلطان لم ينتبه بعد من إذكار الفجر وقرآنه.

الكندهري الذي قدم لحصار عكا تسبقه الحكايا عن بطولاته وشدته وقدرته على القيادة والصبر والصمود، ومناطحته لصلاح الدين على أسوار صور، وكذلك علاقاته المتميزة مع ملوك الغرب جميعاً وخصوصاً الملك هنري ملك إنكلتره، كل ذلك جعله يتبوأ مركز القيادة في معسكر الفرنجة الذي يحاصر عكا، الأمر الذي لم يعجب الملك العتيق، ومقدم فرسان الداوية ما دفع بالكندهري إلى أن يجعل خيمته ومعسكره في الجهة الشمالية من عكا، ولكن وصول الكندهري وما أشاعه من تفاؤل دفع بالفرنجة إلى إظهار الفرح والسرور ودق الناقوس، وإشعال النيران.

وعلى عادته، فقد دعا الكندهري إلى اجتماع عاجل، ولكن الملك العتيق رفض أن ينعقد الاجتماع في خيمة القادم الجديد، بل طلب أن يكون الاجتماع في خيمته هو باعتباره ملك بيت المقدس الشرعي، فاضطر الجميع إلى القبول بعقد الاجتماع في خيمة ممثل البابا، الذي كان يكره الكندهري أصلاً لخلافه مع البابا ذاته.

في بداية الاجتماع، سخر الكندهري من عدم قدرة عساكر الفرنجة من دخول عكا طيلة هذه الفترة، وسخر كذلك من أسلوب الهجوم المتراخي والمضطرب، كما انتقد طريقة توزيع الجند الأمر الذي يسمح لصلاح الدين بالاستفراد بهم كلما أراد.

الملك العتيق الذي هزم وأسر في حطين، كسرت شوكته وضاعت هيبته منذ زمن، ولهذا لم يستطع أن يرد على سخرية الكندهري المرّة، ولكنه سأل بسخرية . أيضاً . عن الخطة البديلة التي يقترحها هذا المتجهم! فرد هذا بالقول إنه يريد أن يختبر قوة صلاح الدين على الأرض، بعد أن اختبرها في البحر.

المجتمعون الذين يمثلون فرسان الراوية، والهسبتالية، والبابا، وتجار بيزا، وجنوة، والبندقية وقومص من طرابلس، وعدد من المركيسات المختلفين الذين تم طردهم من بيت المقدس، رغبوا في أن يقودهم الكندهري أملاً في نصر سريع. بعد هذا الحصار الطويل والجوع المستشري والقتل النافذ؛ رغبوا جميعاً في أن يسكت هذا الملك العتيق الذي لا يفعل شيئاً سوى التزلف المكشوف لزوجته الملكة سيبيل، التي لم تخفِ فرحتها بوصول المركيس باليان الإبليني برفقة الكندهري.

الكندهري، من جهته، أطلع المجتمعين على قرب وصول ملوك الغرب إلى عكا، وطلب إلى الجميع أن يستعدوا للمواجهة، قبل ظهيرة هذا اليوم، هجوماً كاسحاً على قوات صلاح الدين، وعلى مدينة عكا من البر والبحر معاً، وكانت هذه هي الخطة الجديدة، إنهاك المسلمين طيلة الوقت، وعدم إعطائهم الفرصة للراحة، ذلك أن عسكر صلاح الدين سريع الملل، ويبحث عن نصر سريع.

قام المجتمعون إلى عساكرهم، طلبوا إلى الجميع الاستعداد، الخيالة والرّجالة والنبّالة والنقابين وضاربي المنجنيقات والنار والزنبورك. دقوا الناقوس، ورفعوا الأعلام البيضاء

والحمراء على العربات ذات العجل، لمع حديدهم تحت الشمس، كانوا فرساناً غلاظاً أشداء، بخيولهم الضخمة الأوراك المغطاة بالزرد، ووجوههم وصدورهم المغطاة بالحديد السميك، والزرد ذي اللون الرصاصي، ودروعهم التي لا تشبه دروع مصر أو الشام، ورماحهم وسيوفهم الطويلة المستقيمة والثقيلة، كان منظرهم مرعباً ومهولاً عندما ملأوا المرج بين تل المصلبين وتل كيسان، وعندما اندفعوا إلى الأمام وهم يصرخون بلغة لا تفهمها الجبال والسهول والتلال المحيطة بهم، كان صراخهم خليطاً من لغات ولهجات مختلفة، تبعثر على إثرها، الطير وحيوانات السهل البرية.

وفي تلك اللحظة ذاتها، اندفعت المنجنيقات تدك برج عين البقر، وبرج الداوية، وباب قراقوش، فيما اندفعت أربع شانيات تحاصر برج الذبان على باب ميناء عكا داخل البحر، ترميه بالنار والزنبورك المشتعل أو المسموم.

استعرت الحرب، اندفعت الأطلاب الإسلامية بكامل هيئتها وعدتها وخفتها، مقدمة وميمنة وميسرة وقلباً ومؤخرة، يقف عليها أبناء صلاح الدين وإخوته، جميعاً اندفعوا نحو الحديد والزرد والرماح الطويلة الثقيلة.

التقى الجمعان في المرج الواسع المخيف، انفجر الصوت العالي يحمل الأمل والدعاء: يا للإسلام... يا للإسلام!.

التقت الرشاقة بالحديد الثقيل، والخيول الرهيفة الخمصاء الضامرة بالخيول الغليظة ذات الرؤوس المربعة، والرجال السمر الخفاف بالرجال الذين يتقدمون وراء دروع تكاد تغطيهم، التقت القلوب المترعة بإيمانها وأوهامها وأطماعها ومخاوفها، انقضت الرجالات على بعضها البعض في راح ذلك المرج المخيف، بين تضاعيف غبار خرج من باطن الأرض، وشعاع شمس يصب زيتاً حاراً على كل شيء. كانت الأطلاب الإسلامية تتشكل من الحلبية، والمواصلة، والنابلسية، والعساكر الصلاحية، والأسدية، وعساكر سنجار، وعساكر ديار بكر، وجماعة المهرانية والهكارية، أخلاط من العرب والكرد والترك والغز والسودان، كلهم يصيحون صيحة رجل واحد: يا للإسلام... يا للإسلام! كل بلهجته، كل بقلبه، كل بجسده.

التقى الرجال الطوال ذوو العيون الزرق والأذرع الطويلة، والحقد الضامر، والكشح المرتفع بالرجال الربع الغلاظ ذوي الأذرع المفتولة والبطون المجدولة، اشتعلت الأرض وانقدحت النيران من كل مكان، كانت لحظة صدق وحق اختفت فيها الخلافات الصغيرة، والنمائم التافهة، والمطامع الشخصية. شق الحديد الحديد، وأكلت النار النار، واشتبكت الرماح بالأضلع، وتمرغت الأنوف بالتراب، ونعر ونخر وشخر كل حي في ذلك المرج الذي ضاق وضاق حتى صار أضيق من سم إبرة.

العساكر الصلاحية والأسدية أبلت بلاء لا مثيل له؛ طاروا على ظهور خيولهم، تعالوا، تساموا، شقوا الغبار والحديد واللحم والنار. قائد الأسدية المملوك سيف الدين

يازكج ونائبه رسلان بُغا، كانا على رأس النار والخيل، كان الناظر إليهما يتخيل أنهما ليسا على فرسيهما، وإنما يسيران على ظهور خيل العدو المخذول، كانا مثل طيرين من الأبابيل التي تحمل حجارة مسمومة لا تخطئ ولا تخيب، وكلما شقا صفاً من صفوف العدو المخذول يلحق بهما جنودهما، حتى استطاعت عساكر الأسدية والصلاحية الالتفاف على جند الكندهري نفسه، فلما رأى هذا أنه محاصر بكل هذه العساكر، صاح بلغته صيحة عظيمة، ثم حمل حملة مكروب حتى فتح ثغرة في الحصار عليه، وفر هارباً إلى تل المصلبين، فلما رأى جند الفرنجة أن الكندهري يفر من أرض المعركة، فر الجميع وراءه، فلاحقه اليزك الإسلامي مدة من الزمن يضرب دبره ويؤثر فيه إلى أن تجاوز العدو تلال التراب التي أقاموها لتفصل بين تل المصلبين والمرج الفسيح تحته.

وفيما كان ذلك يجري في المرج، أمام سور عكا، كانت هذه تتعرض لقصف متواصل من المنجنيقات التي أحضرها الكندهري معه من صور، كانت مناجيق إفرنجية حسنة الصنع، بعيدة المدى ولكن حجارتها صغيرة لا تكاد تمزق مصائد الليف التي يصنعها الصبيان داخل عكا المحاصرة، وقد استمر قذف الأسوار والمدينة حتى حل المساء دون توقف، بحيث منعت ضاربي المنجنيقات داخل الأسوار من الرد، إلا أن ذلك كان حسناً أيضاً؛ إذ لم تكن هناك حجارة كافية في المدينة لقذفها، وقد رآها قراقوش مناسبة لجمع بعض الأحجار لقذفها من جديد، فقد كانت مسألة توفير الحجارة تشغل بال المدافعين عن المدينة، أحد الاقتراحات التي رفضها قراقوش كانت هدم بعض باشورات الأبراج التي لا تواجه الأعداء من الشمال والجنوب لاستعمالها في المنجنيقات، ولكن قراقوش رفض هذا الاقتراح وطلب إلى الفعلة أن ينزلوا إلى الميناء قريباً من برج الذبان لتكسير بعض الأحجار من الصخور القريبة من صخرة الغراب، وعلى الرغم من صعوبة المهمة، وتعرض الفعلة للنشاب الإفرنجي إلا أن ذلك لم يمنعهم من العمل ليلاً، البناؤون المهرة تقدموا هم الآخرون باقتراح ذكي، ذلك أنهم جمعوا الأحجار المتساقطة، ثم صاروا يلصقون بعضها إلى بعض بملاطٍ اخترعوه، بحيث صنعوا أحجاراً صغيرة وكبيرة حسب الطلب، الأمر الذي أعجب قراقوش وطلب إليهم الاستمرار فيه.

أما برج الذبان في البحر أمام ميناء عكا، حيث حاصرته أربع شانيات إفرنجية، فقد عمد عساكر الإفرنج إلى صنع برج من الخشب والحديد والنحاس يكاد يصل إلى باشورة البرج الضارب في السماء، وكمن عساكر الإفرنج داخله، وأخذت الشانية تقترب والبرج على ظهرها، والآخرون يشاغلون مقاتلة البرج بالنشاب والزنبورك، وما إن اقترب البرج الخشبي حتى انقض عليه المقاتلة بالزراقات التي تقذف النار بإرعاد ودخان شديد، ولكن ذلك لم يؤثر فيه كثيراً؛ إذ سرعان ما تنطفئ النار، عندئذٍ تقدم نقاط دمشقي يدعى إبراهيم، كان والده أحد الذين قتلوا عندما ثار أهل دمشق على حاكمهم الذي صانع الإفرنج، إبراهيم هذا، طلب إلى مقدم البرج أن يوفر له لفائف الكتان والقطن ليكفيهم شر هذا البرج الخشبي الذي يرونه لأول مرة في حياتهم.

إبراهيم، النقاط الدمشقي، لم يكن معروفاً عنه سوى أنه صموت، وهادئ، ويقوم بما يوكل إليه، لم يتحدث كثيراً عن أسرته في دمشق سوى عن حادثة قتل والده على يد جند الحاكم الخائن الذي صانع الإفرنج. ربما تحدث عن خطيبة ما، أو عن بستان صودر ذات يوم، أو عن صديق مات في أرض بعيدة وهو يحارب الإفرنج المخذولين. وعندما التقطه الراضي في دمشق ذات يوم، وضمه إلى فرقة النفاطين لاحظ أن إبراهيم هذا قادر على تقديم أفكار عجيبة، كان آخرها حديثه عن ثلج الصين الذي سمع به عند راشد الدين سنان زعيم الحشيشية في قلعة مصياف، الأمر الذي أثار فضول الراضي بحيث دفعه إلى إحضاره بكمية ضئيلة تناقصت بسبب التجارب الفاشلة الكثيرة.

سأله مقدم البرج، وكان رومياً هو الآخر: ماذا ستفعل يا إبراهيم؟.

قال بهدوئه وصمته وانطوائه: ستعرف عما قليل أيها المقدم، ولكني سأكفيكم شر هذا البرج اللعين.

. ولكن كيف؟!

. سترى بعد قليل.

أخذ إبراهيم زيوتاً مختلفة ودهن نفسه بها، ثم لف على جسده الكتان والقطن، وبلل ذلك بالنفط، ثم ربط قموعاً محشوة بثلج الصين على خصره، فعل ذلك والعسكر ينظر إليه بعين مدهوشة: ماذا تفعل يا إبراهيم؟!

لم يرد إبراهيم، بل قرأ الفاتحة، وسلم رسالتين إلى مقدم البرج، الأولى لمقدم فرقة النفاطين الراضي في عكا المحاصرة، أما الثانية فلامرأة ما في دمشق المحروسة. صعد إبراهيم باشورة برج الذبان، وهناك نظر إلى الدنيا الواسعة، نظر إلى ملكوت الله الأزرق والأخضر والأبيض، نظر إلى طيور البحر البيضاء، وثبج إلى البحر المتضاحك دائماً، رأى تحته شانيات العدو المخذول، وقمة البرج الخشبي العجيب، سمع بوضوح صراخ جنود الحضرة السلطانية: يا للإسلام... يا للإسلام!

رأى والده يقتل بيد الحاكم الخائن، ورأى آماله وأحلامه كلها مرة واحدة. صاح من قحفه: الله أكبر! أشعل النار في نفسه دفعة واحدة. واندفع باتجاه البرج الخشبي، كان خفيفاً كفراشة، فقد صلته بالكون كله، سقط على قمة البرج الخشبي في شانية العدو المخذول، وضع روحه في كفيه اللتين التصقتا بالبرج تماماً، وإذا الانفجارات تتوالى، وإذا النار تهب دفعة واحدة، البرج يتهاوى، بالشانية كلها تتهاوى، فانفجر الصوت من برج الذبان وأبراج عكا المقابلة: الله أكبر... الله أكبر... يا للإسلام... يا للإسلام!

كان ذلك يحدث للمرة الأولى، فوجئ العدو المخذول بما جرى، توقفوا عن الرمي، بهتوا بهذا كله، حسبوا كل شيء سوى هذا، شاهدوا البرج الذي أنفقوا فيه وقتاً ومالاً وجهداً لا يقدّر يتهاوى مرة واحدة إلى قاع البحر، أخذتهم المفاجأة تماماً، ولسوء حظهم فقد ركد الهواء، فلم يستطيعوا الانسحاب من ميناء عكا، فانهالت عليهم كرات النار

والسهام المجنحة، فاشتعلت الشانيات الباقية، فاضطر الجند فيها إلى إلقاء أنفسهم في الماء طلباً للنجاة.

كان يوماً طويلاً ومجيداً، طار فيه اسم إبراهيم، وصار حمامة تطوف البلاد، ويحكي عنه العباد. حتى الناصر صلاح الدين تبسم ابتسامة بديعة عندما سمع بذلك، وقال معلقاً: أنا أحب دمشق وأهلها.

ولم يكن السلطان يخفي حبه للشام وأهل الشام.

قرأ الراضي رسالة إبراهيم إليه فإذا فيها حض على الجهاد، والاستبسال في قتال الفرنجة أعداء البلاد والعباد، ثم علقت الرسالة في المسجد الجامع ليقرأها الجميع.

أما الكندهري فقد ودّ أن تبتلعه الأرض، ولكنه أرغم نفسه على التجلد ودعا إلى اجتماع عاجل، وتجنب النظر إلى الملك العتيق حتى لا يرى في عينيه أي معنى من معاني التشفي. وفي الاجتماع، دعا الكندهري إلى وقف القتال، والاهتمام بتحصين المعسكر، وتهيئة العدة إلى حين وصول ملوك الغرب، وتجنب الحديث عن أحداث المعركة.

قراقوش الذي شعر بسعادة غامرة لنتائج المعركة، دعا مجلس الحرب للتداول، فلما التأم الجمع، قيل له إن هناك نقصاً في الميرة والسلاح وخاصة السهام بكل أنواعها والنفط والخل والزيت والشحم، وأضاف الراضي أن هناك نقصاً شديداً في ثلج الصين أيضاً، وطلب كمية كبيرة منه، فلما سأله قراقوش عن مكان هذا الإكسير، قال له الراضي أنه في قلعة لدى زعيم الحشيشية، فقال قراقوش إن ذلك مستحيل، ذلك أن الحشيشية تحالفوا مع الفرنجة ونكثوا عهدهم مع الناصر صلاح الدين الذي أبرم قبل عددٍ من السنين؛ إذ إن الكندهري الملعون أقنع راشد الدين سنان أن ملوك الغرب سيقطعون البلاد والعباد حال وصولهم وانتصارهم على صلاح الدين.

الأمر الأخطر من هذا كله، ما قاله بعض الحاضرين من رغبتهم في الخروج من المدينة، وطلبهم المباشر إلى قراقوش أن يكتب للناصر صلاح الدين لاستبدالهم بآخرين، وعللوا ذلك بالمرض أو زيارة الأهل أو التعب، ما أدهش قراقوش أن الأمير أبا الهيجاء طلب ذلك أيضاً. قراقوش نفسه، وبعد أن انفض الجمع، تساءل وهو يحدق من كوة حجرته بقلعة الملك عن تعبه وعن مللـه، لم يجد شيئاً في أعماق صدره، كل ما وجده هو أنه يجب أن يكمل المهمة بنجاح، كما في كل مرة.

إنه محارب، ومحارب فقط، منذ أن عمل في قوات أسد الدين شيركوه وصار مقدمها، ومن بعد ذلك انتقاله إلى قوات صلاح الدين.

الحرب مهنته، إطاعة الأمر حياته، ولا شيء يشبه إرضاء الناصر صلاح الدين، لا معنى للأسرة أو البيت والعدو بين ظهرانينا، ولا طعم للسعادة، أو المرأة أو المسكن الطيب فيما يتناسل العدو، ويدمر ويقطع الطريق.

قراقوش الذي لم يذكر يوماً واحداً قضى فيه وقته دون عمل، لا يتصور يومه دون إنجاز شيء يجب إنجازه.

إن بناء أسوار القاهرة وقلعتها وإن كان عملاً دون مخاطر إلا أنه صنع لقراقوش معنى وأهمية، كان يستغرب ميل الفعلة والبنائين إلى الكسل، وطلب الراحة أيام الأعياد، وهي كثيرة لدى المصريين، اضطر معها قراقوش إلى إلغاء جميع الأعياد إلا العيدين فقط، حتى يوم الجمعة، أمر بأن تكون الراحة فيه وقت الصلاة ليس إلا، ولما رأى أن النهار طويل في أيام الصيف، قسم الفعلة والبنائين إلى ثلاثة أقسام، بحيث يعملون طيلة النهار والليل، ولما رأى أن أحجار المقطم لا تكفي، طلب إلى الناس أن يقدموا أحجاراً بعدد أولادهم أو خدمهم، ولما لم يكف ذلك، طلب إليهم البحث عن آثار وخرائب الأمم السابقة، ونقل حجارتها إلى الأسوار، ولما رأى أن الفعلة والبنائين ينفقون وقتاً طويلاً في تناول الأكل ثلاث مرات في اليوم، فرق عليهم وجبة واحدة يقدمها عسكره لهم، ولما شغب عليه بدو الصحراء مما يلي الفسطاط، كان يعتقلهم ويفرض عليهم نقل التراب والقش على ظهورهم دون إجرة، وفيما كان الجميع يعتقد أنه يقوم بعمل مرهق ويائس، كان قراقوش يشعر أن لحياته ولاسمه معنى وأهمية، وأنه دون ذلك مجرد كائن تافه.

قراقوش لم يطلب يوماً أن يرتاح، ولم يطلب دستور السلطان للمغادرة أو الانعزال، وعلى نقيض أستاذه الأول أسد الدين شيركوه الذي كان يحب الأكل الغليظ حتى انفجر قولنجه، فإن قراقوش لم يعشق الطعام، ولم يعشق النساء، ولم يعشق الشراب رغم حب الأكراد والأتراك له، لم يعشق سوى شيء واحد فقط العمل والعمل فقط.

وعندما أنعم عليه السلطان الناصر صلاح الدين لقب الأمير في مصر، شعر قراقوش أنه نال ما يتمنى، وأن صلاح الدين ما هو إلا نور الدين زنكي قدس الله روحه، نور الدين رجل لا مثيل له، وقاراً وحناناً وهيبة وحسن طوية وطلب جهاد. هؤلاء رجال يجدر العيش بقربهم، والتعفر بالتراب الذي يطأونه.

قراقوش الذي عاش صدر شبابه الأول مملوكاً للسادة من آل زنكي وآل أيوب، تعلم أن الإنسان ما يعمل وما يطمح، وفي زمن الحرب، فإن للرجل فرصة ما لإثبات نفسه، الحرب وإن كانت ظرفاً استثنائياً إلا أنها يمكن أن تعاش بطريقة صحيحة، لا يندم عليها المرء، والحرب مطامع ومصالح، وفيها لا يمكن للمرء أن يثق بأحد إلى ما لا نهاية، أما الناصر صلاح الدين ففيه ما لا يوجد في الآخرين، إنه مثل ذلك الأمير الذي مضى تاركاً وراءه عطر الدنيا وعبيرها ونورها، نور الدين زنكي.

ولقد رأى قراقوش أمراء كثيرين حوله، خذلوا الأمة، وصانعو الفرنجة، ودفعوا لهم الجزية وقد احتقرهم من أعماقه، مصانعة الفرنجة ليس عملاً جديراً بالرجل، وليس إنجازاً يفخر به، وقد اعتقد في قرارة نفسه أن الرجل لا شيء سوى سمعته، وأن المصلحة . في نهاية الأمر . هي المجد بشكل أو بآخر، وما دام قد حصل على لقب الأمير، فإنه على

استعداد لفعل كل شيء من أجل أن يحظى بهذا المجد، والمجد معلق بآل أيوب العظام.

رغب قراقوش في هذه الليلة أن يتحدث إلى شخص ما، رغب في أن يقول له إنه يريد أن يظل في عكا حتى يخذل الله الفرنجة، وأنه غير متعب، وأنه لا تعتريه ما يعتري الرجال من ملل أو ضجر، كره أن يستدعي مقدم العسكر حسام الدين أبا الهيجاء؛ فهذا رجل فيه أنفة وكبر، وظلت هناك مسافة ما تفصل بين الرجلين، فلم تنشأ بينهما صداقة بالمعنى الحقيقي، أما مقدم الأسطول حسام الدين لؤلؤ فلم يشف من جراحه بعد، ولا يزال طريح الفراش، ولهذا فهو لا يشارك في مجلس الحرب.

رغب قراقوش في الكلام، لم يجد أحداً، جاءت جارية رومية ترفع آنية الطعام من المجلس، كان اسمها رامك، في أواسط العمر، نحيفة ذات جلد أبيض.

شاهدها قراقوش وهي تقوم بعملها بهدوء واستكانة، اعتقد لوهلة أنه يشاهدها لأول مرة، قال لها تحت إلحاح حاجة في صدره: رامك.

كانت تلك المرة الأولى التي يناديها باسمها المجرد، التفتت إليه مذعورة: نعم يا مولاي.

لم يجد ما يقوله لها، ضاع ما في الصدر من مشاعر، قال: كيف حالك؟!

قال ذلك بحنو شعرت به المرأة التي لم تتعود على سيدها هكذا. اضطربت، سقط منها إناء نحاسي كبير، شعرت بحرج عظيم أمام سيدها، لم تجد غير البكاء الصامت.

اقترب منها، قال: لماذا تبكين يا رامك؟!

قالت المرأة من أعماق روحها التي تلبدت بفعل الإهمال والإهانة: لأنك سألتني عن حالي يا مولاي!!

يا للبشر! كل ودموعه! مدّ قراقوش يده إلى كتف المرأة التي صارت ترتجف مثل عصفور مبلل. مد يده إلى وجهها الأبيض النحيف ذي العظام البارزة والعيون المذهولة. قال لها: ماذا تتمنين يا رامك؟!

قالت: رضاك يا مولاي.

انكبت على يده تقبلها بكامل الشغف، وكامل الإحساس بالامتنان، شعر بشفاه المرأة تأكل لحم يده، استيقظ الجسد العجيب.

رفعها إليه، وقال لها: هل تعرفين يا رامك أنني أتمنى..

انتبه لنفسه، لا يجدر الضعف والاعتراف أمام من لا يحسن، ولا يفهم الاعتراف، مد يده إلى وجهها الممتن، ربت عليه، قال لها: امض يا رامك إلى شأنك.

ذهبت الجارية لا تصدق ما جرى. اكتفت ومضت.

في الحرب، يقسو الإنسان على نفسه وعلى الآخرين، ينسى أشياء كثيرة جميلة

ولطيفة، نسي قراقوش أن يصنع أصدقاء له؛ فقد تحول هو نفسه إلى كائن ينفذ الأوامر ولا يصنعها، طيلة عمره كان مملوكاً للعظام من حوله. في الحرب تبحث عن المجد لا عن الأصدقاء. في الحرب نبحث عن النصر لا عن العواطف، هذا هو سر سيدي ومولاي صلاح الدين الذي اختار غضب نور الدين زنكي على الانصياع له، مولاي الناصر أبو المظفر صلاح الدين يوسف لم يكن مملوكاً، كان مليكاً، ولد في زمن الحرب، وعاش زمن الحرب، وبحث عن المجد والنصر والعزة، وهذه أمور لا تفترض حسن النية أو الاستسلام للضعف أو العاطفة، لقد اختار مولاي أن يغضب آل زنكي كلهم على أن يتنازل عما ساق الله إليه من الملك. كان مولاي يضمر أمراً في نفسه.

في الحرب لا يجدر الضعف أبداً، ولا تجدر الثقة أحد أبداً. الحرب تعلمنا الأسوأ فينا، وترغمنا على الأسوأ فينا، وإذا كانت الحرب استثنائية فإنها معيار حياتنا العادية أيضاً.

قراقوش، الذي عاش الحرب طيلة عمره، يكتشف هذه الليلة أنه حارب في كل مكان من العراق والشام ومصر، ولكنه لم يصنع صديقاً واحداً، أو أسرة، و عشق امرأة كما فعل الآخرون. وعندما يكون العدو في بيتك لا تستطيع أن تستمتع بالحياة أبداً، والفرنجة متوحشون فعلاً، وهم على استعداد لفعل كل شيء من أجل بقائهم بين ظهرانينا، إنهم يسممون الحياة فعلاً.

ومثل كل ليلة، آوى قراقوش إلى فراشه وحيداً، وقبل أن تأخذه سنة النوم اللذيذة الرائقة، رأى نفسه على فرسه يتمختر بين صفوف العسكر التركية والكردية، وهم يحيونه باحترام كبير، ظل يسير بين الصفوف، ويسير إلى أن نام.

خم المرج وفسد ريحه لكثرة الجثث فيه، مما اضطر المعسكر الإسلامي أن ينسحب من تل كيسان إلى تل خروبة الذي يبعد عنه قليلاً إلى الشرق، فيما حاول الفرنجة أن يدفنوا قتلاهم بأسرع ما يمكن، ليتفرغوا لتحصين مواقعهم، انتظاراً لملوك الغرب الذين تواترت الرسائل بقرب وصولهم من وراء البحر، فساد الريح حمل المرض إلى جند الفرنجة، فكثر المرض فيهم، ومن ثم الموت، وبسبب ذلك ماتت الملكة سيبيل زوجة الملك العتيق، ملك بيت المقدس، وبموتها، فقد هذا الأخير شرعيته وأهميته في أعين الفرنجة؛ إذ انتقل تاج المملكة إلى إيزابيل شقيقة الملكة المتوفاة، ورأت الفرنجة أن هذا تدبير من السماء؛ إذ تخلصوا من الملك العتيق، فهو لا يحق له أن يكون ملكاً بعد الآن، حسب القوانين المرعية في هذا التاج، كما أن إيزابيل هذه، امرأة لعوب ضاقت ذرعاً بزوجها المركيس المريض العجوز الذي لا يرضيها. أما الكندهري، فهو محارب أفنى حياته في خدمة الفرنجة، فلم يتزوج، وكانت حياته أشبه بحياة الرهبان، ولهذا فقد أجبر أعيان ومقدمو الفرنجة على اختلاف أجناسهم المركيس المريض على تطليق زوجته الملكة إيزابيل، ومن ثم زوجوها إلى الكندهري ليكون ملك بيت المقدس، وزعيمهم الشرعي

في قتالهم ضد المسلمين، ممثل البابا الذي لم يعجبه الحل نزل على رغبة الفرنجة طلباً للسلامة والنصر كما قال في خطبته المرتجلة في مراسم الزفاف. وهكذا تحول الكندهري في ليلة وضحاها إلى ملك بيت المقدس رغم كل خلافاته مع البابا، هذا الأمر لم ينل رضا الملك العتيق، ولا فرسان الداوية فأعلنوا أنهم غير ملزمين بإطاعة الكندهري أبداً، وأن الملك العتيق هو الأحق بالملك، وكانوا يعتمدون في ذلك على دعم ملك الإنكتار الملك هنري الذي لم يخف خلافه مع البابا أصلاً، وبهذا الانشقاق فإن الفرنجة انكفأوا على أنفسهم، ولم يهاجموا معسكر السلطان، ولا مدينة عكا، الأمر الذي سمح للناصر صلاح الدين أن يرسل إلى أسطوله في بيروت أن يبعث بطسة كبيرة محملة بالميرة والسلاح إلى عكا رغم حصارها.

وفي بيروت، لم يجد أمير البحر هناك ربان سفينة قادراً على تنفيذ المهمة غير الأسطولي المصري يعقوب الذي وصل من الاسكندرية قبل عدة أيام فقط، ولوصوله بيروت قصة، ذلك أنه لما وصل إلى الاسكندرية وارتاح ورجاله عدة أيام، وجد أن كثيرين من تجار المسلمين، وتجار الفرنجة يرغبون في السفر إلى بيروت بحراً، فقد سمعوا بغائلة الجوع التي تفتك بالناس هناك، وأن الأسعار بلغت أوجها، هذا بالإضافة إلى انخفاض سعر الدينار الصوري مقابل الدينار المصري، رغب هؤلاء التجار في انتهاز الفرصة تماماً، فأقنعوا يعقوب بتلك الرحلة على أن يدفعوا له أجرة مضاعفة، ولما نادى المنادي في أسواق المدينة بقيام المركب إلى بيروت، سمع ذلك ابن جبير . أيضاً . الذي خاب أمله تماماً في المدينة؛ فقد خلت من الفقهاء الذين التقاهم في رحلته الأولى، فالمدينة تحولت إلى ما يشبه المعسكر بأسوارها الضخمة، وميناؤها المحكم، وحاميتها الكبيرة.

فما إن سمع أن مركباً سيقوم إلى بيروت حتى ذهب إليه ليسجل اسمه، فوجد هناك يعقوب بين رجاله يدققون في المركب وهيئته. ولما أعلن ابن جبير عن رغبته في السفر إلى بيروت، استقبله يعقوب استقبالاً حسناً واعتبر ذلك فألاً حسناً، فقد كانت الرحلة من سبتة إلى الاسكندرية من أكثر الرحلات أمناً وقلة مخاطر. ولما سأله عن زيارة الأقصى، والسلطان الناصر صلاح الدين، قال ابن جبير إنه سيفعل ذلك من بيروت، تلك المدينة التي زارها أيام كانت بيد الفرنجة، ورأى فيها الأعاجيب من الفسق والفجور.

وعندما وصل يعقوب بيروت، دهمته الأخبار كلها، أخبار الحرب المستعرة على أسوار عكا، وأسطول الكندهري الذي يحاصرها واستعصاء أمر الفرنجة هناك، والأهم من هذا كله، وجود ابنه الراضي مقدم فرقة النفاطين في مدينة عكا المحاصرة، وأن المدينة تعاني من الجوع الشديد إلى درجة أن الناس هناك صاروا يأكلون الجلود.

لم يتردد يعقوب في الموافقة على الذهاب إلى هناك واختراق الحصار مهما تكن النتائج. لم يتردد قط. لم يفكر ساعتئذٍ بصلاح الدين وظلمه إياه، لم يفكر بقراقوش ذي الأحكام العجيبة، عادت إليه أيامه القديمة، أيام حارب في أسطول الدولة الفاطمية،

وكيف انتصر. عاد يعقوب شاباً قديماً تملأ روح المغامرة أعطافه وشرايينه.

أمير البحر في بيروت لم يتردد هو الآخر بتكليف يعقوب بالمهمة؛ فهو أسطولي خبير ومجرب، وله ابن محاصر هناك.

قال له أن يأخذ ما يشاء من المقاتلة لحماية البطسة، ولكن يعقوب رفض ذلك، وقال إن كل ما يريده هو الميرة والسلاح ورجاله فقط، قال إنه يريد أن يملأ البطسة بأقصى ما يستطيع من الميرة والسلاح ولا يريد أن يرهق الحمولة بالمقاتلة.

سأله أمير البحر عن توفير الحماية، فقال يعقوب إنه يريد فقط ثياب مقاتلة الفرنجة ليس إلا، كان الطلب غريباً ومفاجئاً، فلما ألح بطلبه، أسرع أمير البحر إلى توفير ذلك له.

ملأ يعقوب مركبه بالبقر والغنم والجبن والبصل والعدس والسكر والسهام والنبال والسيوف والممنجاه . ذلك السلاح الذي يفضله الأكراد . والنفط والدهن والزيوت بأنواعها، والملح والقماش والقطن، وما يخطر على البال وما لا يخطر، حتى رقاع الشطرنج حملها معه، كان يفكر بابنه الراضي الذي لم يره منذ سنتين أو أكثر.

ولدهشته، فقد رأى يعقوب أمامه ابن جبير مرة أخرى.

. ما لك يا سيدي الفقيه! ألا تريد أن تتركني؟

قال ابن جبير بوقاره وجهامته المعتادة: أريد أن أرحل معك إلى عكا.

ضحك يعقوب على عادته: هذه المرة ليست رحلة... إنها حرب يا سيدي الفقيه.

قال هذا دون أن يهتز: أعرف، ولأنني أعرف أنها ليست رحلة، فإنني أود، بل أريد الذهاب معك. ومن هناك قد أرى السلطان الناصر صلاح الدين.

. ولكننا قد نقتل أو نؤسر.

. لا يهمني ذلك... المقادير بيد الله. أريد أن أرى كل شيء.

لم يعرف ابن جبير كيف قرر أن يذهب إلى عكا المحاصرة، كان قراره أشبه بهاتف من داخله أمره بالذهاب إلى هناك. لقد رأى عكا أيام كانت بيد الفرنجة، وكرهها كراهية شديدة لفسقها الذي فاق كل الحدود. هذه المرة، رغب في أن يراها وهي محاصرة تعاني القتل والجوع، بلاد الشام عجيبة وفيها من الغرائب والأسرار ما لا يعلمه إلا الله.

سأله يعقوب على حين غرة: هل تعرف لغة أخرى غير العربية؟!

قال ابن جبير: نعم، أتحدث القشتالية أو الأشبانية كما تسمى.

قال يعقوب فرحاً: إذاً، اصعد إلى المركب.. أنت بركة يا سيدي.

قال ذلك بلهجته المصرية الناعمة الرخوة الممطوطة، فوقعت في صدر ابن جبير موقعاً حسناً. ابن جبير لم يجد تفسيراً لأشياء كثيرة، منها قراره الذهاب إلى عكا

المحاصرة.

وفي عرض البحر، وبعد الخروج من ميناء بيروت الصغير والمحكم البناء، جمع يعقوب رجاله على ظهر المركب، وطلب إليهم أن يلبسوا ملابس الفرنجة، وأن يرفعوا علمهم، ثم طلب إلى ابن جبير أن يلبس ملابس الرهبان، ففعل هذا ما أمر به، وهو يرتجف من فرط الإثارة، كان ذلك فوق التخيل، ولدهشته فقد أقبل ابن جبير على دوره هذا بكامل الجدية والوقار، وقد فرد جدائل شعره لتناسب هيئة راهب متبحر ومتنسك.

يعقوب الذي أراد لخطته أن تنجح، صار يوجه رجاله بلغة أعجمية تضطرب فيها الأوداج وتنتفخ، لم يفهم منها ابن جبير شيئاً.

يعقوب، الربان المصري، الذي لا تعرف عمره بالضبط، طلب إلى ابن جبير أن لا يؤذن للصلاة، وأن تقام سراً قدر الإمكان، وعندما هبط الليل، كان يعقوب لا يزال مندمجاً في دور الإفرنجي، حتى أنه حاول أن يحاور ابن جبير باللغة القشتالية، فرد عليه هذا بلسان ثقيل، فطلب إليه أن يتحمس لذلك، ففعل ابن جبير ما وسعه ذلك.

. أين تعلمت ذلك أيها الربان؟!

ضحك يعقوب تلك الضحكة الممتلئة العميقة الطويلة وقال: أنسيت أنني بحار منذ أن ميزت الأسماء والألوان؟

. أي لغة تتكلمها؟!

. هذه لغة الفرنسيس، وهم الجنس الغالب في الفرنجة، وقد تعلمتها بأمر من أمير البحر الفاطمي لنتعامل مع الأسرى ثم مع التجار.

ضحك الربان يعقوب وقال: إنها لغة نسوان، أما اللغة الأكثر نسوية فهي لغة البياشنة والجنوية، إنها ترخي الحنك وتهد الحيل.

ضحك بعفوية وعمق، حتى أن ابن جبير تبسم ابتسامة عريضة، كانت المغامرة تستحق. كان البحر عصبياً بشكل خاص، غاص المركب بين الأمواج الضخمة الكبيرة، ثم ارتفع إلى ذرى رجراجة تهيل لحظة تكونها.

هاجم الخوف القلوب وعلقها في السماء، ورأى الإنسان كم هو ضعيف إلى درجة تدعو إلى البكاء والتضرع!

كان المركب مجرد قشة صغيرة في خضم غاضب ووحشي. يعقوب، الرجل الذي ولد بين الموج وقف كالوتد على ظهر مركبه يصيح برجاله مرة، ويصيح بالماء مرة أخرى، ثم يصيح بالريح مرة ثالثة، أنزل القلوع، وسلم المركب للموج لا يعانده، طلب إلى الله السلامة ليس من أجله، هو مخطئ كبير، طلب من الريح أن تكون طيبة، ومن الماء أن لا تكون غادرة هذه اللحظات. وعد الله والريح والماء أن يكون طيباً عندما يصل، ووعد . أيضاً . إنه لن يتكلم عن صلاح الدين أية كلمة سوء، ووعد أن لا يميل إلى

النساء الساقطات في الموانئ الإفرنجية التي يصلها. تكلم مع كل شيء وهو واقف كالوتد يصيح في وجه كل شيء.

ابن جبير، وهو في ملابس الراهب الإفرنجي صلى من كل قلبه أن يكلأ الله الجميع برحمته ولطفه، صلى ابن جبير والماء تغيض به إلى قعر البحر، اهدأ أيها البحر. الربان يعقوب، كان يفقد أعصابه في بعض اللحظات، فيشتم البحر، ويصفه بأنه عاهرة مثل كل العاهرات، وأن الريح مجرد كلبة في فصل شيوعها، ثم يعود إلى السماء فيطلب إلى الله أن يلجم الجميع برحمته ولطفه ووداده.

المضحك المبكي في الأمر كله أن البقرات العشر والخمس عشرة ماعزاً بدأن بالخوار والثغاء بما يشبه النواح الذي يقطع نياط القلب، إلى درجة إلى أن ابن جبير نسي نفسه، وهو يتابع ذلك الصوت الذي يفتت الصخر. يا الله، يا لطيف، أنقذنا مما نحن فيه!

مضى وقت طويل أو قصير حتى هدأ البحر، وعاد بساطاً من نسيج ناعم مغرٍ، يلتمع بكل الألوان التي تخطر على ذهن. ومع انحدار الشمس في مكمنها الغربي، كان البحر ساحراً وكأنه ليس الذي كان قبل لحظات على استعداد للفتك بكل شيء.

قام ابن جبير وصلى بالبحارة صلاة الشكر؛ قرأ ما تيسر من القرآن على صفحة الماء المترامية، التي تخفي وراءها أسرارها وكنوزها، وما لا تفصح عنه، آيات القرآن العجيبة التي كانت تتمدد على وجه الماء دفعت الكائنات كلها إلى الاستماع طوعاً وكرهاً. البحارة عادة ما يقولون بعد هذه الأنواء العصيبة إنهم رأوا كائنات خرافية تظهر على سطح الماء، كنساء جميلات، وحيوانات برؤوس بشرية، ويتحدثون . أيضاً . عن سماعهم للأغاني التي لا يفهمون من كلماتها شيئاً، أو عن عزف يكاد الجسد يتشقق له طرباً وأريحية. كلام البحارة كثير، ولا تعرف صدقه من كذبه.

وما إن أقبل صباح اليوم الثالث، حتى كان المركب على أبواب عكا، وكان باستطاعة يعقوب أن يرى بأم عينيه شانيات الكندهري ترابط في البحر، وما إن اقترب أكثر حتى واجهته طرادات العدو الصغيرة مملوءة بالجند المدججين بالنبال والزنبورك وآلات النفط المختلفة. عندئذٍ صاح يعقوب برجاله: اليوم يومكم يا رجال،... يا للإسلام! وعندما تقدم طراد العدو، وكان بالإمكان الحوار المباشر. صاح يعقوب بلغة الفرنسيس التي تملأ الأوداج بالهواء:

. ليباركم الرب أيها الجند، كم أنا مشتاق لرؤيتكم! إنني أحمل إليكم أخباراً سارة؛ إن ورائي سفن الملك فيليب أغسطس، ملك فرنسا العظيم هيا، استعدوا لاستقباله.

وما إن سمع جند العدو ذلك، حتى انطلقوا عائدين وهم يصيحون فرحاً ونشوة.

قال يعقوب لرجاله: ها، أظهروا الفرح.

سأل ابن جبير: ماذا لو كانوا غير الجنس الذي توقعته.

قال يعقوب منتشياً: وماذا تفعل أنت إذاً؟!

تقدمت البطسة ببطء، فيما أخذ البحارة يهللون ويلوحون بالأعلام، دخلوا بين الشانيات الآن، وصار بإمكانهم أن يشاهدوا بحارة العدو وأعلامه وأسلحته.

تقدم ابن جبير ليراه الجميع، وصار يباركهم عن بعد، فيتلقى التحيات والتهليل من الجميع، ظلت البطسة تتقدم بهدوء وثبات، حتى وصلت شانية الكندهري نفسه، ولا يزال البحارة يظهرون الفرح والسرور، وابن جبير يبارك الجميع بصلواته الموهومة، وبحجة الالتفاف والرسو من جديد، تقدم يعقوب . وساعدته الريح في تلك اللحظة . باتجاه برج الذبان، ولإدهاش الجميع، فإنه لم يعد، وإنما تقدم وتقدم حتى تجاوز برج الذبان، وصار داخل الميناء في مأمن من هجوم الفرنجة، وما إن تم ذلك، حتى انفجر الجميع بالهتاف الذي يأخذ بمجامع البدن: الله أكبر.. الله أكبر!.. يا للإسلام.. يا للإسلام!

دقت الكوس، ونعرت الأبواق، وخرج الناس إلى باشورات الأبراج جميعاً، هللوا، وكبروا، ورقصوا، وطيروا الحمام للسلطان الناصر، يعقوب، تزيى بزي الفرنجة ليدخل عكا المحاصرة.

يعقوب، الذي دخل المدينة وعلى يمينه ابن جبير، فوجئ بأنه أمام والي البلد الأمير بهاء الدين قراقوش، المملوك الرومي الأبيض، الممتلئ بالوقار، المتوشح بالهدوء الذي لا مثيل له، لم يجد يعقوب في نفسه شيئاً وهو ينحني بكل احترام وتقدير ليقول من أعماق قلبه: إنني أشعر بسعادة غامرة لأن أراك سالماً يا مولاي!!

هذه الحادثة وما رافقها من كلام كثير أو قليل، أجبرت قاضي عسكر الناصر صلاح الدين القاضي ابن شداد أن يذكرها في كتابه المعروف "النوادر السلطانية".

ابن جبير الذي هزته الحادثة، طرب لها طرباً لم يظهره على عادته في الوقار. أنف أن يكتب عن نفسه راهباً يبارك العدو، ولم يرغب في أن يكتب عن ذلك حتى لا يقال عنه أنه كاذب، والأهم من هذا كله، اكتشف . لدهشته . أن الحياة وتفاصيلها أغنى من أي مدعٍ أو واضعٍ للكتب، وأن هناك ما لا يمكن وضعه على ورقٍ أبداً.

ما إن حل الربيع هذه السنة حتى قدم ملك الفرنسيس في ست بطس تحمله، وتحمل ميرته والخواص من حوله، في الربيع، عادة ما ينفتح البحر، ويقذف إلى سواحل الشام أجناساً من الفرنجة يحتاجون إلى عدة ترجمانات ليتفاهموا فيما بينهم.

مضى حتى الآن أكثر من ثمانية عشر شهراً وعكا محاصرة، وبقدوم ملك الفرنسيس فإن الأمر يزداد تعقيداً وخطورة.

وملك الفرنسيس هذا يسمونه بلغتهم "فيليب أغسطس"، ملك له سطوة على عموم الفرنجة، ورأيه مسموع وكلمته نافذة، وهو رجل قصير أبيض الجلد أزرق العينين في إحداهما ما يشبه الطرف؛ فهو لا يستطيع تحريكها بحرية، بحيث يخيل إليك أنها عين جامدة، ما يجعل وجهه يميل إلى تعبير البله أو الفزع.

وقد سمعت من بعض الأسرى أن قوة هذا الملك تأتي من انصياعه لأوامر البابا أولاً، ولأن معظم الفرنجة هم من الفرنسيس ثانياً، وثالثاً أن أول أمر مجيء الفرنجة إلى بلادنا، كان بسبب اجتماع كبير حضره البابا، والملك، والأمراء في حاضرة فرنسية، تنادوا فيه إلى إنقاذ قبر المسيح في بيت المقدس من أيدي المسلمين، وأنهم تعاهدوا على الحرب بدعوى أن الله أرادها حرباً، وهكذا، فإن هذه الحرب التي تواصلت حتى الآن أكثر من خمس وثمانين سنة في بلادنا كانت بسبب أن الله أرادها وليس بسبب أي شيء آخر.

وقد رأيت وسمعت بنفسي أن السلطان الناصر صلاح الدين التقى أسيراً إفرنجياً عجوزاً سقطت أسنانه وعشيت عيناه، فسأله عن المسافة بين بلادنا وبلاده، فقال هذا من خلال الترجمان إن المسافة هي ثلاثة أشهر في البحر، فسأله السلطان عما دفعه إلى المجيء إلى بلادنا وهو في هذا السن، فقال الإفرنجي إن ما دفعه إلى ذلك هو محبة المسيح، ولا شيء غير ذلك، فتعجب السلطان أيما عجب، وقال أن ليس لكم أكثر ما لنا في المسيح فلماذا هذا الجنون؟!

وقد رأيت الفرنجة عن قرب، فوجدتهم لا يوقرون أحداً، ويميلون إلى الشقاق أكثر

من ميلهم إلى الاتفاق، وفيهم غلظة وجلافة، أجسادهم جميلة ولكن أخلاقهم قبيحة غاية القبح، ونعوذ بالله من قول أكثر من ذلك، وكفى بالتلميح عن التصريح، وهم إلى ذلك أجناس عديدة، لا يفهمون لغات بعضهم البعض، ولا يتشابهون في المأكل والملبس، ومختلفون حتى في دينهم اختلافاً بيّناً، وهم . وإن كانوا يوقرون المسيح . إلا أن المسيح الذي يتكلمون عنه لا يشبه النبي الرسول الذي نوقره ولا نفرق بينه وبين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ولهذا السبب فإن الله الذي يتكلمون عنه . أيضاً . يفترق عن الله الذي نعبده نحن؛ فهم يعتقدون أنهم أرفع منا وأسمى لهذا السبب، فالله الذي يعبدونه هو أوسع وأشمل وأعلى من الله الذي نعبده، تعالى الله علواً كبيراً عن لغوهم وشططهم الذي يثير الضحك، فهم أجهل من أن نجادلهم في تخاريف وهذيان.

قلت إن ملك الفرنسيس هذا قدم هذا الربيع، في نيسان منه تماماً، حيث أطلقت الأرض كل ما لديها من بدائع الزهر والخضرة، وقد امتلأ المرج المخيف الواسع بين تل المصلبين، وتل كيسان بالزهر الأبيض والأصفر والأحمر والأرجواني، وكأن كل ما جرى فوق ثرى هذا المرج كان مجرد حلم من الأحلام، أما تل الخروبة وما جاوره من أراضٍ في شفرعم فقد سال بخضرة اللوز والرمان والأعناب، وأهل فلسطين المحروسة أرض زراعة وفلاحة، وهم أقدر الناس على تحويل الجبال الوعرة إلى جنات غناء، فهم أسرع الناس إلى تقطيع الجبال بالجدران الطويلة، وتحويلها إلى أرض قابلة للفلاحة، وهذا أمر لم أشاهد مثله حيث ولدت في الموصل، وحيث درست في بغداد، وحيث ذهبت إلى حواضر كثيرة في سفارات متعددة باسم "أتابك الموصل" في ما مضى من زمن.

وباندلاع الزهر حول معسكر الحضرة السلطانية، فقد عادت عساكر المسلمين من كل مكان أيضاً، إذ أعطى السلطان الناصر دساتير بالمغادرة لمعظم العساكر في بداية الشتاء الماضي، وبقي وحده مع عساكره وبعض العساكر الشامية والمصرية، وقضى السلطان الناصر الشتاء وحده على تل الخروبة في خيمة تضربها الرياح والثلوج من كل ناحية، وقد تحمل البرد، وبعد الأهل والتياث المزاج ليظل يقارع الفرنجة المخذولين الذين يحاصرون عكا.

كان أول من قدم من عساكر المسلمين علم الدين سليمان بن جندر، من أمراء الملك الظاهر صاحب حلب، ثم قدم مجد الدين بن عز الدين فروخشاه بن شاهنشاه صاحب بعلبك، ثم جاء بعدهما عساكر سنجار، وديار بكر والموصل، ونابلس، وجنين، وعساكر مصرية من القاهرة والاسكندرية والفسطاط، وحتى من بلاد النوبة، وعساكر من اليمن، وكان كلما قدمت فرقة من هذه الفرق، خرج السلطان الناصر إلى استقبالها وإنزالها في مواقعها على التلال المجاورة. وكان يخلع على أمرائها ومقدميها فروات أو كزاغندات، وربما أعطى بعض أمرائها ممنجاته التي يشدها إلى وسطه. وكان السلطان الناصر ينتظر عساكر المنصور الموحدي في المغرب ولكن هذا الأمير لم يرسل عساكره، وقد علل بعض الأمراء تصرفه هذا بسبب أن السلطان الناصر صلاح الدين لم

يكتب إليه برسالته "خليفة المسلمين" بل "أمير المسلمين" ما أغضب المنصور، ولكن السلطان الناصر صلاح الدين كان في شغل عن هذا، فالأمر خطير؛ فهذا الغرب يجمع ملوكه وأمراءه وجيوشه لقتال كل المسلمين، وقد تتابعت الأخبار المزعجة على مولاي السلطان، فملك الألمان يسير بجيش عرمرم من جهة بلاد الروم براً، وهذا ملك الفرنسيس وصل بحراً، فيما يتقدم ملك الإنكتار ببطء في أسطول لا مثيل له، وكذلك غليوم ملك صقلية بأسطول عظيم يدافع الريح إلى صور. هذا بالإضافة إلى أساطيل البياشنة والجنوية والبنادقة والدنمرقة وأجناسٍ أخرى لا علم لنا بها يقال إنها تأتي من بلاد طول النهار فيها ثلاث ساعات، وأن الشمس تشرق في منتصف الليل عندهم والعياذ بالله. فما الذي دفعهم إلينا خذلهم الله؟!

أما أنا فقد لازمت مولاي السلطان الناصر منذ أن التقيته في دمشق، وكان أن وقعت في موقع حسن منه، طلبني لخدمته الشريفة، فلم أرد أن أغضب أتابك الموصل، ولكن مولاي صلاح الدين ألح عليّ في خدمته الشريفة، وكان أن قبلت؛ ذلك أن مخايل الشرف، والنبل والرغبة في الجهاد، والنية الصادقة في تطهير البلاد من دنس الفرنجة كانت واضحة في حركات وسكنات وكلمات مولاي السلطان الناصر صلاح الدين، قبلت خدمته، وآثرت عليه من كنت أخدم سابقاً.

مولاي الناصر صلاح الدين، نصبني قاضياً لعسكره المنصور، قال لي بلهجته الكردية الواضحة، الغليظة، الواسعة، الصافية، الطيبة والقوية، التي لا تخلو من خيط حنان ودفء: أنت قاضي عسكرنا يا أبا المحاسن، وليس هذا فقط، بل أنت قاضي للقدس الشريف.

كان ذلك تشريفاً ما بعده تشريف! مولاي صلاح الدين حذر في تكليفه الناس بالأعمال والمناصب، يعرف كيف يختار، وكيف ينتقي الأفضل للأفضل. حمدت الله على هذا الفضل، فقدمت لمولاي كتابي الذي صنفته في الجهاد خلال إقامتي في دمشق، فتقبله مثنياً عليّ، ووضعه تحت وسادته، وظل يقرأ فيه كلما سنحت له الفرصة. مولاي صلاح الدين له هيبة ما بعدها هيبة، وهو سلطان ابن سلطان، لا يلهو ولا يلعب، لا يهذر ولا يهزر، لا يتخذ المعازف ولا القيان، ولم تسحره الحسان أو تغرقه الدنان، رجل زاهد، اختار ظهور الخيل والخيام التي ينصبها في السهول والتلال، وعلى أكتاف الجبال، وفي بطون الوديان، يأكل اللبن والتمر والجبن والعسل، ولا يكثر من اللحم. فيه انحراف مزاج دائم، وجفاف باطني. كثير الصلاة، كثير الاستغفار، يوقر أهل العلم وأهل المعرفة، معرفة أهل السنة، الجماعة، جماعة سيدنا محمد . ε . وتابعيه بإحسان إلى يوم الدين، وقد رأيته عندما وصله كتاب من ولده الملك الظاهر، صاحب حلب يقول فيه إن شاباً زري المظهر لا يستحم، ولا يقص شعره، ولا يغير ملابسه حتى أنتن، يبتدع قولاً في الله يشابه أقوال براهمة الهند، أو دعوة القرمطي في بلاد البحرين، وأن فقهاء حلب وعلماءها يطلبون الدستور بقتل هذا الشاب واسمه السهروردي. وما إن انتهى مولاي وسيدي

صلاح الدين من قراءة الكتاب، حتى اغتم واهتم، فجمع إليه خواصه من العلماء والفقهاء وعلى رأسهم سيدي القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، فعرض الأمر بكل اهتمام، فاستفاض سيدي القاضي الفاضل بتنفيذ دعوى السهروردي، وأخطارها ومضارها. كان سيدي ومولاي صلاح الدين يكره الفلسفة والمتفلسفين، وأصحاب الكلام، وأصحاب البدع، ولم يقربهم إليه ولم يطلبهم. كان يحب التقرب إليه بكتب أهل السنة، وخاصة ما يتعلق بالجهاد والحض عليه، لا شيء أكثر ولا شيء أقل، حتى الشعر الذي أحبه سيدي ومولاي لم يكن يروي منه إلا أقل القليل، كان سيدي ومولاي لا يحب الادعاء أو المظاهر أو الزخارف، حتى أولئك الذين رغبوا أو أرادوا أن يجعلوا له نسباً عربياً، رفض طلبهم واستنكره، وقال إنه ابن أيوب بن شاذي، وإن شرف النسب هو تحرير بيت المقدس من أيدي الفرنجة.

سيدي ومولاي الناصر صلاح الدين، فاتح القلاع والمدن، سلطان الشام ومصر واليمن، كان يفاجأ بعض الأحيان أنه لا يملك ديناراً صورياً واحداً، وفيما كانت رعيته تنام قريرة العين في دمشق وحلب ونابلس والقاهرة، كان ينام في خيمة صغيرة تضربها الرياح من جهاتها الأربع بريح صرصر عاتية، أو ريح رملية عاصفة.

وأشهد الله أنني قضيت معه صيفين وشتائين حول عكا نواجه العدو المخذول ولا شيء يشغله عن مقاتلتهم، لا الولد ولا الملك ولا اللذة ولا المغنم، رغم مرضه المتكرر لليبس في جوفه، ورغم معاندة بعض الأمراء له، وطلبهم الدساتير المتكررة في المغادرة، ورغم الأمراض التي انتشرت حول عكا لكثرة الجيف.

في الشتاء الذي مضى، تركه الجميع وبقي وحده مع خواص عسكره، الصلاحية والأسدية، تركوه في المطر والثلج، وعادوا إلى بلادهم يتنعمون بالأكل والدفء والنساء، أما هو، فقد ظل على تل خروبة بخيمته، يصلي الجماعة، ويجلس للمظالم يومي الاثنين والخميس، ويكاتب الأمراء والملوك المسلمين منهم وغير المسلمين، طالباً النجدات ومبرماً المعاهدات، ومانحاً الدساتير لمن يطلب.

قال لي ذات ليلة شتائية، صبت فيها السماء ما عندها: ماذا لو عدت يا أبا المحاسن إلى دمشق؟!

كنت وإياه نتذاكر كتب الحديث، وكنت أحب ذلك، فقلب مولاي رقيق، ودمعته قريبة، فيزداد إيماني وأملي.

قلت له: لا أتركك يا مولاي!!

قال: اذهب إلى أسرتك!

قلت: لا أسرة لي يا مولاي!

طافت على وجهه الكريم ابتسامة ما: لماذا لم تتزوج يا أبا المحاسن؟!

قلت: أنفقت حياتي متعلماً وعاملاً، تنقلت كثيراً، ولم تتح لي الفرصة يا مولاي؟!

قال وهو يعود إلى الكتاب: الزواج جنة يا أبا المحاسن.

قلت وأنا أشعر بالحرج من عدم الزواج، كما تقول يا مولاي!!

أحس بما في صدري، التفت إلي، ربت على كتفي وقال: لا تجد في نفسك يا أبا المحاسن، لكل وما اختار.

تشجعت وقلت: لا أجد راحتي في صحبة أو تحمل النساء، أنفقت عمري حتى الآن في صحبة العلماء والكتب.

ابتسم سيدي ومولاي، رأيت ابتسامته تحت السراج الكبير المشحون بدهن الماعز، ابتسمت عيناه، ربت على كتفي مرة أخرى وقال: بارك الله لك في علمك وعملك، لكل وما اختار.

عدنا إلى ما كنا فيه، أقرأ عليه أحاديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتدمع عيناه، فيما تصب السماء ماءها علينا، حتى خشيت عليه السيل، بينما هو يتفكر بما يسمع من كلام سيد الخلق أجمعين. في بعض الأحيان، كنت أتساءل بيني وبين نفسي عما يدفع رجلاً مثله في الخمسينيات من عمره يترك نعيم الملك كله، ثم يختار هذه الحياة القاسية، فلا أجد سوى جواب وحيد لا أجد غيره: إنه الجد في طلب الرضوان والغفران.

وإذا كان السلطان هو بطانته، فإن بطانة السلطان هي السلطان أيضاً، وقد جمع سيدي ومولاي حوله بطانة جليلة لا هم لها سوى نصر الإسلام والمسلمين، يتقدمهم في ذلك القاضي الفاضل البيساني العسقلاني ابن فلسطين المحروسة، الوزير المدبر، الكاتب الجهبذ، العالم العامل. الذي فوجئت به عندما رأيته لأول مرة، فقد حسبته جهماً ضخماً، فإذا بي أرى رجلاً ضئيل الحجم، كبير الرأس، له حدبة في ظهره يحاول إخفاءها بذؤابة طويلة يرميها وراء عمامته المصرية الكبيرة، حقاً، الرجال أفعال لا أطوال. وعجبت لنفسي كيف اتفق أن جمعت الأقدار بين سيدي ومولاي صلاح الدين على ما هو عليه، وبين القاضي الفاضل على ما هو عليه!

وما سر تلك العلاقة الوطيدة المليئة بالإشارات والأسرار بين الرجلين؟ لا أحد له دالة على سيدي ومولاي صلاح الدين مثل ما للقاضي الفاضل عليه. غبطته على ذلك أشد الغبطة، أما غيري فقد حسده على ذلك.

سيدي ومولاي صلاح الدين لم يكن كغيره ممن حولنا من الأمراء، أو ممن عرفناهم، أو سمعنا عنهم، حتى أنه لم يكن مثل الخليفة العباسي نفسه ـ رغم جلال اسمه وشرف نسبه؛ فسيدي ومولاي السلطان أبو المظفر صلاح الدين يوسف بن أيوب، لم يهن في محاربة الفرنجة أو طلبهم، لم يتفق معهم على شر للأمة أو فساد أمرها، لم

يصانعهم، ولم يستخذ أمامهم، لم يتفق معهم على سر يخجل أن تطلع عليه الأمة، ولم يفوت فرصة كان فيها خذلان لهم إلا وانتهزها، ولهذا أرى . وأرجو من الله أن أكون صائباً . أن استيلاء سيدي ومولاي على ملك نور الدين زنكي . رحمه الله . ما كان إلا لهذا السبب، أي توحيد الأمة، وجمع الصف المصري والشامي لطرد الفرنجة من البلاد الإسلامية، وتخليصها من شرهم وفسادهم ودنسهم. إن ما قيل عن طمع سيدي ومولاي في ملك نور الدين . رحمه الله . ومحاربته لورثته لم يكن إلاَّ لأن سيدي ومولاي تزوج من أرملة نور الدين، وأكرمها، وأقطعها، وأحسن إليها، ليس إلا ليقول لكل الناس إنه أحق الناس بكل ما تركه نور الدين من فرض الجهاد، وصون الأمة والذود عن كل الحرمات. سيدي ومولاي صلاح الدين . وبعد أكثر من عشر سنوات من خصومات، وحروب صغيرة مع أهل ملته . استطاع أن يفعل ما لم يفعله سلطان من قبل؛ لقد ورث ملك الفاطميين، وملك الزنكيين، وأعطاه الله من الملك والقوة والسؤدد ما صانه وزانه وزاد عليه. إن السلطان لا يكون سلطاناً إلا بهذا، الحكمة والعلم والقوة، وقد أعطى الله سبحانه وتعالى سيدي ومولاي حكمة لا مثيل لها تجلت في اختياره بطانة صالحة، وعلماً صحيحاً ليس فاسداً بعقائد الدهرية، أو المعطلة، وقوة استخلصت من رشاقة أهل مصر، وجلد أهل الشام، وشدة المحاربين من أعالي سنجار، والموصل وديار بكر . سيدي ومولاي . وعلى الرغم من امتلاكه خيرات مصر، وخيرات الشام، وأطايب اليمن . اختار السكن على ظهر جواده يطير به من جبل إلى جبل، ويفتح مدينة إثر مدينة، ويفترع قلعة إثر قلعة، يلحق به خاصته من بلد إلى بلد، يديرون شؤون بلاد حدودها صنعاء جنوباً إلى حلب شمالاً، ومن اسكندرية غرباً إلى الموصل شرقاً.

ثمانية عشر شهراً وأنا معه حول عكا، نحاصر من يحاصرها من الفرنجة المخذولين، وبوصول ملك الفرنسيس هذا الربيع، فقد آذن ذلك بتجدد القتال من جديد، فاستدعى سيدي ومولاي السلطان مقدم الجواسيس إليه، وهو عمر الزين في بعض قرى نابلس، وهو من الذين يتقنون لغة الفرنجة بمعظمها، وقد ظل وأهله يعملون في قراهم ومزارعهم تحت حكم الإفرنجي، ولهذا أتقنوا لغته إتقاناً تاماً.

طلب مولاي إلى عمر الزين أن يأتيه بخبر ملك الفرنسيس، وما يحمله من ميرة وسلاح ورجال، وأن يستطلع دخائلهم، فصدع هذا بالأمر وانطلق، وما أن حل هذا المساء على تلك البطاح، حتى أتت العيون التي أرسلها السلطان لاستطلاع أمر ملك الألمان، فتقدم الأمير كرج إلى خيمة الحضرة السلطانية دون أن يرتاح أو يريح دابته، وطلب الإذن للدخول، فأذن له، فعانق السلطان وقبل رأسه وكتفيه، وقال بصوت مليء بالفرح: أعلمت يا مولاي، أعزك الله بالنصر، أن ملك الألمان قد مات في نهر كان يستحم به، وأن جيشه تفرق لخلاف وقع بينهم، وأن ابن الملك الميت أصر على المسير في عدد قليل لا يعتد فيه.

انشرحت صدورنا، أما مولانا السلطان، فقد مد كفيه، وقرأ شيئاً من القرآن الكريم،

وتمتم بما لا يعرف ثم قال: أحمدك يا رب، وأشكر نعمتك. اللهم إن النصر من عندك تؤتيه من تشاء، وتحرمه ممن تشاء، اللهم انصرنا يا قوي يا عزيز.

أحسست كم سعد سيدي ومولاي بهذا الخبر؛ ذلك أنه عندما ترامت إلينا أخبار جيش ملك الألمان، الذي زاد تعداده عن مئة ألف، فقد آيسنا من الشام كلها، ولكن الله سلم، سيدي، ومولاي، ولسعادته الغامرة، أمر مقدم الطبل خانة بضرب طبوله، وأمر الطست خانة بصنع وليمة يأكل منها كل العساكر، وما أن أذن للعشاء حتى كان هناك سماط عظيم قدم حسب طريقة الأكراد في أكل اللحم، والبقول، والتوابل التي وصل شذاها إلى مسافة بعيدة. الطبل والنيران والشذى في معسكر الحضرة السلطانية قابله نيران، ومزامير، وغناء في معسكر الفرنجة المخذولين احتفالاً بمقدم ملك الفرنسيس، وكان ذلك في صالح لصوص المسلمين الذين يستغلون مثل هذه الأوقات في معسكر العدو لنهب ما يستطيعون من متاع، أو رجال، أو أي شيء تصل إليه أيديهم؛ فعندما يحتفل العدو المخذول يسكرون وينامون كالبغال، فيتسلل اللصوص إليهم فيخطفون ما يشاؤون، ويأتون به إلى السلطان أو لا يأتون، وقد يختلفون فيما بينهم حول ملكية ما سرقوا، فيأتون إلي فأقضي بينهم، وقد اعتبر ذلك جزءاً من الجهاد نفسه، ولم يعتبروا لصوصاً لأنهم ينهبون العدو الذي يحاصر المسلمين، ويجهد في قتلهم.

سيدي ومولاي كان يغضب من هؤلاء عندما يخطفون طفلاً أو امرأة، فيطلب إليهم إعادتهم حيث كانوا بعد أن يفديهم من حر ماله. كان الجميع يعرف أن سيدي ومولاي محارب صلب يقابل العشرة والمئة ولا يهاب، ولكنه في الوقت ذاته صاحب قلب هش، يبكي لأفراخ ضلت الطريق إلى العش. المحاربون من الأمراء والمقدمين والفرسان كانوا في بعض الأحيان يحتارون في هذا السلطان الذي يصبر على محاصرة قلعة ما عدة شهور، ثم يبكي من أجل طفل فقد أمه؛ فقد حصل أن أسر بعض أمراء الفرنجة، وجيء بهم إلى خيمة الحضرة السلطانية، فقام إليهم بعض أبناء صلاح الدين الصغار يريدون قتل الأسرى، فأسرع إليهم السلطان ومنعهم من ذلك، فلما سئل عن السبب، قال بما يشبه الغضب: لا أريد لأبنائي أن يستهينوا بالدم، وإلا فإنهم سيستهينون بدماء المسلمين أيضاً.

محارب مختلف، سيدي ومولاي، ثقفته عقيدته، فعرف صحيحها وعاشه كما هو، كانت حروبه جزءاً من رؤيته وليست جزءاً من أحقاده، لم تكن له أحقاد؛ قيل لي يوماً إن سيدي ومولاي تنازل عن حصار قلعة إعزاز القريبة من حلب بعد شهرين طويلين من حصارها لأن طفلة من آل نور الدين طلبت إليه ذلك يوم العيد. مثل هذه التصرفات جعلت بعض أمرائه يقفون موقف الحذر من أوامر سيدي ومولاي، كانوا يخشون رقته غير المفهومة، هؤلاء محاربون أشداء يطلبون النصر والظفر، ولا يخشون الحرب، ولا يقيمون خلالها وزناً لأي شيء، أما سيدي ومولاي، فكان دائماً يقف عند حد ما لا يتجاوزه. دفع ذلك بأمرائه أن يطلبوا إليه دائماً المواثيق والعهود، ودفعهم . أيضاً . إلى طلب الدساتير المتوالية إما بالمغادرة، أو التلكؤ، أو المماطلة.

فحروب سيدي ومولاي طويلة ومعقدة ومتشابكة. أما أمراؤه فهم متعجلون، وفيهم عنجهية وأنانية لا تخفى، ولولا هيبة سيدي ومولاي وسطوته لتفرقوا كل إلى بلاده. كان سيدي ومولاي يجمعهم ويبث فيهم من جذوة إيمانه ورغبته في مواصلة الجهاد. كان يقدم لهم المثل الذي ما بعده مثل، وقد ظل وحده شتائين وصيفين على تل خروبة في خيمة واحدة قلقاً، ومهتماً كالأم الثكلى يتابع حشد الفرنجة من وراء البحر، ومن أمامه حول عكا المحروسة. أنا لم أر مثل سيدي ومولاي هذا، فلزمته ولم أفارقه، ولن أفعل بإذن الله. سيدي ومولاي وحتى يطمئن أمراءه، ويبعث فيهم الثقة، كان يجعل إخوته وأبناءه على رؤوس الجيوش التي يحارب بها، أو يبعثها للحرب، كان على استعداد لأن يبذل كل شيء من أجل مقصده الشريف.

هذه هي المرة الأولى التي أصحب فيها سيدي ومولاي إلى حرب حقيقية؛ عندما كنت في الموصل، كانت أخبار مولاي تترامى إلينا وكأنها حكايا الجن، كانت حكايا تحرج بشكل ما أتابك الموصل، وما بقي من الزنكيين عموماً، فهذا الرجل الذي اتهموه بحب الملك والسعي إليه، أثبت لهم فعلاً لا قولاً أنه لا يريد سوى وجه الله بمقارعته الدائمة، والمستمرة لأعداء الملة والدين، الأمر الذي دفع كثيراً من المتطوعة إلى اللحاق بجيش مولاي السلطان الناصر.

ولأنني معه في هذه الحرب التي طالت على غير العادة، وتعقدت وتشابكت على غير العهد الذي رآه مولاي في كل حروبه السابقة، فقد رأيت مولاي يقوم الليل يدعو الله، ورأيته يكتب رسائله بالترجمة إلى أهالي عكا المحاصرين، ورأيته كيف يلتقي الجواسيس، والمستأمنين من المسافرين والتجار الذين يدخلون معسكر الفرنجة، يسألهم عن أدق الدقائق، ورأيته كيف يطلب إلى السباحين أن يوصلوا إلى عكا ما يريدونه من أموال، أو نفط، أو دهن أو ملح، وقد رأيت شاباً طويلاً حسن الجسم وحسن الوجه، عريض الصدر، وعريض الابتسامة يدعى عيسى العوام كيف كان يدخل على السلطان فيحكي له كيف استطاع السباحة ليلاً من بين بطس العدو وشانياته وهو يشد إلى وسطه وعنقه وقدميه الميرة أو ما يحتاج إليه المحاربون وذلك في أكياس من جلد الماعز لا ينفذ إليها الماء. وكنت أرى السلطان يمد يده الشريفة، فيربت على كتف العوام ويثني عليه، ويطلب إليه المزيد. أما ما لم يقله العوام أمام السلطان فهو عن فحش الفرنجة، وفسقهم على بطسهم، وشانياتهم في الليل؛ إذ قال العوام إنه رأى الفرنجة يتسافدون أمام بعضهم البعض، وإنهم يطاردون النساء وهم عراة، وإنهم يسكرون على الطعام، ثم يبدأون يتشاجرون أو يتراشقون به وسط صخب لا مثيل له، وقال العوام إن للفرنجة في ذلك فنوناً وطرائق لا تخطر على بال؛ الفرنجة لهم جلد على القتال وطرائقه، ولهم باع في الفحش وفنونه أيضاً، وقد رأيت ذلك فيما مضى من أيام عندما كنت في سفارة إلى طرابلس، حيث قابلت الكند وزوجته سيبيل التي قيل عنها إنها تكاتب مولاي السلطان الناصر، وتسدي إليه النصائح، لما قدم لها ولزوجها من فضل سابق، وقد رأيتها امرأة وضيئة الوجه، تضع على رأسها

عصبة مقصبة كالتي تضعها نساء حلب على رؤوسهن، ولكن صدرها مكشوف إلى منتصفه، ما يسمح للمرء أن يرتكب فاحشة النظر، والعياذ بالله، يومها، أنزلنا الكند الذي يقال له بلغتهم "الكونت" وهي رتبة من رتب الإمارة عندهم، أنزلنا في نزل الضيافة. نمت فيه ليلتين ورأيت من فسقهم تحت شباكي ما جعلني في أسوأ حال؛ فقد رأيت ما لا أطيقه، ولا أستطيع وصفه حشمة وحياء، وقد عجبت للفحش الذي استشرى في هذه البلاد، ليس بسبب الفرنجة فقط، ولكن بسبب انقلاب الأحوال، وتغير الأزمنة والحكام، وتغير الوجوه وتلاقيها في الحواضر المختلفة. حدثوني عن فسق القاهرة زمن الفاطميين، ورأيت فسق بغداد وأمرائها من السلاجقة؛ في زمن الحروب تنعدم الأخلاق أو تضعف، أما مولاي وسيدي السلطان الناصر، فقد جعل من المحارب مثالاً للناس، وقدم نفسه مثالاً للطهارة والعفة والنزاهة. والناس على دين ملوكهم، فسيدي ومولاي الذي قضى ما يزيد على خمسة وعشرين عاماً من عمره المبارك في بعلبك ودمشق والقاهرة لاهياً غافلاً منكباً على ملذات الشباب .كمن هم في عمره من الأمراء وأبنائهم . نفض كل ذلك عن كاهله، وعن قلبه عندما ألقيت عليه مسؤولية الأمة؛ هجر كل شيء أحبه وأدمنه. حرق آلات مجلس الندمان، وترك جلساءه الذين اعتاد اللهو معهم، ولبس ثوب الزهد والتقوى والجهاد، وخرج على الناس رجلاً آخر لا يعرفونه. استغرب كل الناس ذلك، لم يكن أحد يعرف عن سيدي ومولاي ما يعرفه الآن عنه؛ كان شاباً لا يكاد يلتفت إليه أحد. هو محارب جيد، وفارس مغوار، ولكنه لا يختلف في ذلك عن أي أمير آخر من آل أيوب، وبعيداً عن الحرب كان يلهو ويعبث. لم يتدخل فيما يجري، ولم تكن له كلمة، حتى ألقى الله بين يديه مسؤولية الأمة، فإذا هذا الشاب يصبح رجلاً لم تعرف الأمة له من الناس على دين ملوكهم، هذا صحيح ودقيق دائماً، فالرعية تستحسن ما يستحسنه الملك، وتستقبح ما يستقبح الملك، الملك لا يحكم الناس فقط؛ إنه خلاصة أذواقهم وقيمهم، وما وصلوا إليه من اتساع رؤية، وبعد نظر.

الملك التافه هو ملته التافهة، والملك العظيم هو ملته العظيمة، والملك العظيم والقوي والحكيم من يختار رجالاً عظماء وأقوياء وحكماء، لأنه يتقوى بهم، ويزيد عليهم بغلبته وسلطانه، أما الملك الضعيف فيختار ضعفاء تافهين حتى لا يغلبوه أو يسلبوه، وقد رأيت أميراً يستشير غلاماً له يلوط به، وقد اشتهر أمرهما في أنحاء طبرستان وما جاورها، ولن أذكر اسمه تعففاً، ولأن الله أمرنا بالستر.

سيدي ومولاي السلطان الناصر صلاح الدين لم يقل للناس: تعففوا، بل تعفف هو نفسه، ولم يقل للناس: جاهدوا، بل جاهد هو نفسه، ولم يقل للناس: ارحموا بعضكم بعضاً، بل رحم هو نفسه الناس، ورحم حتى أعداء الأمة. لم يقل للناس: لا تكنزوا، بل هو أنفق على المدارس والمساجد والثغور والأسطول والجيش وعمارة الأسوار والقلاع. وقد أدهش سيدي ومولاي الناس، كل الناس، بمعاشه وإدارته للأمر، فهو لم يجاهد الفرنجة فقط، بل عمر وبنى وخطط، وشجع العلم والعلماء، وكان للفقهاء عليه دالة لا

تدانيها دالة.

كان فيه حزم أبي بكر، وتدبير عمر بن الخطاب، وشجاعة علي بن أبي طالب، ورقة عثمان بن عفان، نعم، جمع سيدي ومولاي كل ذلك فيه جملة واحدة، فأقام دولة مترامية في وقت لم يسبق دون أن يفرط بأمر من الأمور. وهذا تدبير، ورحمة منا لله أرادها لسيدي ومولاي، الذي فتح الله على يديه بيت المقدس، وحرر المسجد الأقصى الذي بورك حوله من أرض الشام التي لا تنقضي عجائبها، وأسرارها إلى يوم الدين.

سيدي ومولاي لا يخطب في الناس، ولا يجيد الحديث أمامهم، ولكن صمته أبلغ من كلامه، وهيبته تسبق حضوره، لهذا، لم يتكلم مولاي كثيراً، حتى عندما يأمر الأطلاب بالمسير، أو الهجوم أو التراجع، فإنه يستعمل أقل الكلام، ولا يحاول أن يتأنق في ذلك، أو يبالغ أو يتشدق؛ كان يستعمل الكلمات الأقرب إلى لسانه وقلبه، وترك أمر الدعوة والإقناع والمحاورة والمناظرة لوزيره الفذ، القاضي الفاضل البيساني العسقلاني، ابن فلسطين المحروسة، ذلك الذي أعطاه الله من البيان والسحر، وبعد النظر ما يعجز عنه الرجال.

أظن . وأرجو من الله أن أكون صائباً . أن سيدي ومولاي ما كان له أن يصل إلى ما وصل إليه بسبب قدرته الفائقة على تحريك الجيوش فقط، وإنما في تحريك من حوله من الرجال أيضاً. رأيت ذلك في تنصيبه للقضاة في دمشق والقاهرة، وفي إقطاعاته للأمراء من أراضي دولته المترامية، كان حكيماً دون ضجيج. الملك المنتصر ينتصر في كل شيء، ويبدو أن النصر مسألة معقدة لا تتحصل فقط بالقوة؛ النصر يحتاج القوة، ولكنه يحتاج للنيّة بالدرجة ذاتها من الأهمية. يمكن للضعيف أن ينتصر إذا أراد وإذا أصر؛ النصر غير مرتبط بالكثرة أبداً، وهذا ما قرره رب العزة في كتابه العزيز. نعم النصر نية ليس إلا. مكان يمكن لسيدي ومولاي صلاح الدين أن يكتفي بمصر وخيراتها، وكان يمكن لمولاي أن ينسى أمر الشام والفرنجة فيها، وكان يمكن لمولاي أن يعود إلى مجلس الندمان بعد أن صار الآمر الناهي في أمر مصر، ولكن سيدي ومولاي رأى ببعد نظره أنه . حتى يحمي مصر من أساطيل الفرنجة المتتالية من الغرب، ومن جيوشهم التي تغزوه من الشرق . كان لا بد له أن يخرج من مصر إلى الشام، وأن يجمع الأرضين معاً. كان يمكن له أن يعيش في قلعة من قلاعه المهيبة في القاهرة، أو دمشق أو حتى حلب، ولكنه رفض ذلك، قبل أن يعيش على ظهر حصانه، وبين جنبات خيمة لا تقيه الحر أو القر، سيدي ومولاي رجل خارق، قليل الكلام، يابس الجوف، سريع العطب، رقيق القلب، قريب الدمعة، ساطع الحضور، إذا رأيته في النهار تستغرب أن يكون هو في الليل، وإذا رأيته في الليل تستغرب أن يكون هوهو في النهار، هؤلاء هم السادة!!

وما أن أصبح الصباح، فإذا معسكر الفرنجة يهجم علينا دفعة واحدة، ونصبوا

منجنيقات جديدة جاء بها ملك الفرنسيسة معه من بلاده، فتحوا علينا الحرب من كل أبوابها ومداخلها؛ كان الفرسان منهم يتقدمون بخيول غطيت بالزرد، وصفائح الحديد، فيما غطوا رؤوسهم بصناديق حديدية، وصدورهم بصفائح سميكة، وحملوا في أيديهم رماحاً غليظة وطويلة يزيد طول الواحد منها على أربعة أذرع أو يزيد، أما الراجلة منهم، فقد تدرعوا بدرق طويلة واسعة يكاد الواحد منهم يختفي وراءها بالكلية، بحيث يحمي نفسه من النشاب أو الدبابيس أو الرماح أو السيوف. الفرنجة الملاعين عندهم فنون متقدمة في صناعة السلاح أكثر منا؛ فنحن نعتمد على الشجاعة، والصبر، والتضحية، وخفة الحركة، فارسنا يغطي نفسه بالجلد، وقليل من الزرد، وخوذة تغطي رأسه وليس وجهه، أما محارب الفرنجة فيتقدم ثقيلاً بطيء الحركة يحمل على جسده عدة أرطال من الحديد، ويحمل أسلحة طويلة تجعل بينه وبين فارسنا مسافة كبيرة. هناك فرق كبير بين الفارس الإفرنجي والفارس الإسلامي؛ الفارس الإفرنجي لا يترك شيئاً للأقدار، إنه يعتقد أنه كلما زاد الحديد على جسده كانت الفرصة في الحياة أكبر، أما الفارس الإسلامي، فإنه لا يعتقد بذلك كثيراً، هو يعتقد أن حياته ليست ملكه، وأن الحياة والموت متساويان تماماً في مثل هذه المواجهات، ولهذا لم يهتم المعسكر الإسلامي بتحميل الفارس حديداً أكثر، بل تركه هكذا خفيفاً، رشيقاً، يقدم حياته رخيصة من أجل الملة والدين، الأمر الوحيد الذي استرعى انتباه سيدي ومولاي السلطان الناصر ما تعلق بالمنجنيقات؛ فقد أراد السلطان أن يحسن منجنيقاته بأقصى ما يمكن حتى يقدر على القلاع الإفرنجية المعلقة على رؤوس الجبال، أو في ألسنة البحر الصعبة، فأعطى السلطان دستوراً للمرضي بن علي بن مرضي الطرطوسي بالعمل على صنع منجنيق لا يخيب، ولا يخذل، فقام هذا بتركيب منجنيق طويل الذنب، كبير الكف يستطيع أن يرمي أحجاراً ضخمة إلى مسافات بعيدة كافية، فسر السلطان بذلك كثيراً.

وقد أكمل الطرطوسي عمله هذا بأن وضع كتاباً في المنجنيقات، أمر السلطان الناصر بنسخه عدة مرات، وإرساله إلى أمرائه في الثغور والعواصم والقلاع.

كان من المستحيل على رجالنا أن يطلقوا نشابهم باتجاه فرسان ومقاتلة الفرنجة في هجومهم الكبير هذا؛ ذلك أن المهاجمين كانوا متحصنين وراء صفائح حديدهم، ولهذا لم يكن هناك بد من الاصطدام في ذلك المرج الواسع المخيف، وفي التلال المحيطة به حتى النهر الحلو وما بعده. صاحت الأطلاب الإسلامية: يا للإسلام!! ثم انحدروا من تل كيسان، وتل العجول، وتل العياضة والمروج الأخرى المجاورة. انطلقوا على ظهور خيولهم المجدولة التي تكاد تذوب في الهواء لرشاقتها وسرعتها وليونتها. سالوا كالنار، اندفعوا كلهم، عساكر الشام، وعساكر مصر، وعساكر اليمن، وعساكر الموصل، وعساكر حمص، وعساكر نابلس، وعساكر جنين، اندفعوا جميعاً يحملون أعلامهم، تتقدمهم أعلام السلطان الناصر صلاح الدين، تحملها القوات الصلاحية والأسدية، وفي

منتصف المسافة بين المعسكرين، وعلى أرض ذلك المرج الواسع الممتلئ بالزهر والأعشاب القصيرة، التقت العساكر، اشتبكت بالحديد والأضلاع والأكف والوجوه. صدر صوت رهيب مكتوم جراء اصطدام الجند بعضها بعضاً، اشتعلت الحرب وأز أزيزها، وتعالى أوارها، وتطاير كل شيء؛ الغبار والقلوب والرؤوس والمتاع والصراخ والعذاب واليأس والفرح. نسي كل واحد منهم ما وراءه وما أمامه، لم يبق إلا الدفاع عن اللحم والحياة، ولا منقذ سوى رشاقة الجسد، وقوة الساعد، قلب الجيش الإسلامي الذي يقوده الأمير العظيم عز الدين جرديك، حاول شق عسكر الفرنجة إلى قسمين، فيما حاولت ميسرة الجيش الإسلامي، التي يقودها الأمير الشجاع تقي الدين عمر، أن يفتت ميسرة الفرنجة، ويشتتها إلى ما وراء النهر الحلو، أما ميمنة الفرنجة، فقد كان يقودها الملك العتيق الأخرق، وقد استطاع الأمير حسام الدين لاجين، صاحب نابلس أن يدفعه إلى التراجع سريعاً بعد أن أثخن في عسكره، سيدي ومولاي صلاح الدين، ومن على تل كيسان كان يتابع الحرب وهو كالأم الثكلى، تأتيه الرسائل من المرج فيرد عليها، ويتابع سير المعركة بقلق ما بعده قلق، وكان سيدي ومولاي رأى أن لا يدفع بجميع العسكر مرة واحدة إلى المرج؛ فقد أخفى عساكر بعلبك وسنجار في المروج البعيدة وراء التلال التي تقع مباشرة بين تل خروبة وشفرعم، وكذلك في أعالي الطريق الذاهبة إلى صفورية، فقد رأى بثاقب نظرته أن المعسكر الإسلامي قادر على أن يشتت معسكر الفرنجة، ويدفعهم إلى الهرب إلى الشمال، حيث لا مفر إلا من هناك، وهو ما حصل فعلاً؛ فقد نجحت الأطلاب الإسلامية بدحر عسكر الفرنجة المدججين بأرطال الحديد، فلم يجدوا بداً إلا الفرار إلى الشمال، فواجهتهم العساكر الإسلامية وراء التلال، وهي في كامل عافيتها واستعدادها، فأثخنوا فيهم، بحيث اختلف المكلفون بعد القتلى حول عدد من قتل من الفرنجة المخذولين.

أما ما كان من أمر الهجوم على عكا، فقد عمد جند الفرنجة إلى ردم الخندق المحيط بالمدينة؛ وذلك بأن صاروا يقذفون فيه موتى دوابهم، وحتى موتاهم ليعبروه إلى باب البلد، فما كان من أهالي عكا إلا أن انقسموا أقساماً ثلاثة: قسم يأخذ ما يرمي به الفرنجة في الخندق، ويقطعونه، ويقذفونه إلى البحر، وقسم يذود عنهم بالنشاب حتى يتمكنوا من إنهاء عملهم، وقسم أخير في المنجنيقات وحراسة الأسوار، ومضى عليهم نهار كامل وهم كذلك، فأصاب منهم التعب والنصب مبلغاً عظيماً، ولكنهم صبروا واحتسبوا.

ملك الفرنسيسة لم ييأس؛ فقد شاغل العسكر الإسلامي طيلة الوقت. حاربنا في الليل والنهار، ما اضطر السلطان الناصر أن يتحول من تل إلى تل، وأن ينزل بنفسه إلى الأطلاب يقويهم، ويبعث فيهم النخوة والحمية، ويبعث باليزك في كل النواحي يتصيدون الفرنجة الذين يخرجون لجلب الحشيش لدوابهم أو الماء من الأنهار أو الينابيع المجاورة. أما مقدم الجواسيس، عمر الزين، فقد جاء خيمة الحضرة السلطانية التي أقيمت

على عجل فوق تل العياضية، وأخبره أن ملك الفرنسيسة هذا لـه شأن كبير في دينهم، وعند أمرائهم ومقدميهم ورهبانهم، ولهذا فقد أوقف النزاع بين الكندهري من ناحية، وبين الملك العتيق وفرسان الداوية من ناحية أخرى، وحسم الأمر بينهم بالقول إن تاج مملكة بيت المقدس سيتم البت فيه عندما يصل ملك الإنكتار في غضون أيام. والأهم من هذا كله، قال عمر الزين: إن ملك الفرنسيسة عنف أمراء الفرنجة جميعاً بقوله: إنكم تتنازعون على مملكة لم تعد قائمة، وعندما تستردون بيت المقدس تستطيعون أن تختلفوا، أما الآن فليس أمامكم سوى مقاتلة صلاح الدين.

وقال عمر الزين إن ملك الفرنسيسة أحضر معه آلات حرب لم تعرف بعد، وإنهم قائمون على تركيبها الآن أمام برج عين البقر فوق باب البلد، وحاول عمر الزين أن يصف تلك الآلات، فقال إن إحداها يشبه جسراً من الخشب يتحرك على عجلات، فكلما دارت العجلات تقدم جسر الخشب وارتفع، وإنه كلما ارتفع، وضع القائمون تحته التراب، فيظل معلقاً. وهكذا، فإن مقاتلة الفرنجة يستطيعون الصعود في هذا الجسر إلى حيث يريدون، وأنهم يركبون . أيضاً . دبابة من خشب، ونحاس وحديد، يدخل فيها المقاتلة فلا يظهر منهم شيء، وأنها تسير على عجلات يدفعها الجند من الأمام، أو من الخلف من خلال حبال وزرد، وهناك دبابة أخرى لا تفترق عن الأولى سوى أن لها قرناً من الخشب الملبس بالحديد قادراً على الدوران أو النطح. فوقع ذلك في صدر السلطان موقعاً غير حسن. وقيل في حضرة السلطان إن الفرنجة لهم تفانين في الحرب لم نعرفها، وإن حبهم للحياة دفعهم إلى التعلق بالسلاح، واصطناع المحكم منه. أما المحدث ابن جبير الذي استطاع الخروج من البلد بمساعدة عيسى العوام، فقد قال إن بلاد الفرنجة فيها قلاع كثيرة عالية، ومنيعة وإن بينهم حروباً كثيرة، ولهذا، فإنهم يضطرون إلى اصطناع آلات حربية عجيبة. وقال ابن جبير الأندلسي الذي خبر الفرنجة وحروبهم في بلاده، ورآهم في بلادهم التي جاؤوا منها. إن الفرنجة . عموماً . يحبون الحرب، ويميلون إليها، وإن اختلافاتهم كثيرة؛ بين ملوكهم من جهة، وأمرائهم من جهة أخرى، وبين ملوكهم وبابا كنيستهم. وقال إن أناسهم فقراء، يعمل جلهم بالزراعة، والأعمال التافهة، ثم لا يجدون قوت يومهم، وهؤلاء يؤمنون بتوافه الأمور وعجائبها، وهم على استعداد للقيام بكل شيء يمكنه أن يغير حياتهم.

ابن جبير الأندلسي الذي رأى سيدي ومولاي صلاح الدين لأول مرة، لم يستطع إلا أن يقبل يده وصدره، وأظهر له من صنوف الاحترام والتقدير ما أدهشنا جميعاً، وحدثه عما رأى وسمع، وعما يحمل له من رسائل، وكتب، منها كتاب الإدريسي الذي يعيش في بلاد الملك غليوم، ملك صقلية الذي جاء بأسطوله إلينا ليحاربنا. سيدي ومولاي أكرم العالم المحدث، وسأله عن أمير المسلمين المنصور الموحدي، فقال ابن جبير إن هذا الأمير مشغول بحرب الفرنجة شمال الأندلس، وإنه يذود عن ديار الإسلام في الغرب، كما يذود سيدي ومولاي عن ديار الإسلام في الشرق. سيدي ومولاي صلاح الدين لم

يخف أسفه على فرقة المسلمين، وعدم توحدهم بسبب المطامع، والأهواء، والخوف والريبة والشك، فأثنى المحدث الأندلسي على كلام سيدي ومولاي وقال إن العصبية مقتل الأمة، عندئذ قال سيدي ومولاي إنه يتمنى لو استطاع أن يوحد ملة الإسلام بالسيف وكلمة الإسلام، تماماً كما فعل الأكابر الذين مضوا، وأضاف سيدي ومولاي أن الأمر لا يترك لمغامر، أو لمقامر، أو لمن تبرق في رأسه أخيلة المجد والملك على حساب كل شيء. قال سيدي ومولاي إن الأمة التي تواجه هذه اللحظات ملوك الغرب جميعاً، عليها أن تتخلى عن أوهام كثيرة، قال سيدي ومولاي ها قد مضت أكثر من ثمانين سنة والفرنجة بين ظهرانينا، فلم ينفع معهم التفاوض، ولم ينفع معهم الحوار، ولا حتى مصانعتهم، فقد هاجموا حليفهم أتابك دمشق ذات مرة، قال سيدي ومولاي إن الحوار والتفاوض لا يكون في حالة أن تغزى بيتك ودارك، ولا يكون مع من لا يراك، ولا يعترف بك، ولا يعطيك حق الحياة والوجود.

قال سيدي ومولاي إن القوة التي تشكمها وتهذبها الحكمة هي الطريق الأسلم والأحزم والأكرم، للتعامل مع الفرنجة أو من هم في حكمهم. قال سيدي ومولاي إن الفرنجة هؤلاء يريدون الأرض دون أصحابها، ويتوهمون أنهم الأحق والأقوى والأكثر خلقاً. لا يمكن الكلام معهم هكذا. ولا يمكن حوارهم هكذا، يصبح القتال هو الوسيلة الوحيدة لإثبات الحق، ولإثبات الحضور، ولإثبات الشرعية. هذا هو المفهوم الحقيقي للجهاد، والجهاد ليس حرباً فقط، بل هو قيمة حضارية تعني البقاء والحضور وفرض الهيبة. قال سيدي ومولاي إن الناس . وإن فطروا على حب الخير والحق . فإنهم لا يصلون إلى ذلك إلا عبر النوايا السيئة، النية السيئة هي جزء من الحياة يجب التعامل معها بكامل الجدية، وسأل سيدي ومولاي الحاضرين: لماذا يأتي ملوك الغرب إلى بلادنا بهذا الجمع الذي لم يكن في وقت من الأوقات؟! أليس لأنهم يعتقدون بأنهم الأحق منا بسيدنا عيسى عليه السلام وبخيرات بلادنا؟! إذاً هم يروننا ولا يعترفون بنا، ولهذا فهم على استعداد لأن يسلبونا حياتنا، وأرضنا ومقدساتنا. هكذا، مرة واحدة، دفعة واحدة. الجهاد هنا جزء من جسدك، يشبه رجليك أو يديك، مرة أخرى، الجهاد ليس حرباً، بل هو نوع من العظة الأخلاقية؛ فالمجاهد لا يتجاوز كرامته، ولا كرامة من يقاتله. الجهاد تذكير بالحق والخير؛ إن خليفة رسول الله . ε . سيدنا أبا بكر الصديق الذي وصل إلى المغزى العميق للجهاد طلب أن لا تقطع الشجر، أو تحرق الزرع، وأن لا تقتل النساء والشيوخ والأطفال والعباد والزهاد. إذاً الجهاد رسالة وليس اعتداء. هذا في حالة الهجوم، فما بالك في حالة الدفاع؟! هنا يصبح الجهاد وسيلة الحياة الوحيدة. وقال سيدي ومولاي، وهو يتفرس في وجوه الحاضرين، إنه لا يفهم، ولا يدرك سر إصرار هؤلاء الفرنجة على تجشم مشاق السفر في البر والبحر، والمجيء إلى بلادنا واحتمال أهوال الحرب، من قتل وحصار وجوع! فهل هذا هو ما يأمرهم به دينهم أم أهواؤهم أم مطامعهم؟!

قال المحدث الأندلسي إن الأمم تتصارع دائماً إذا أحست في نفسها قوة، وقال إن

أسباب الحروب متعددة وكثيرة، وفيها غموض كثير. وأضاف المحدث الأندلسي أن أمة الإسلام غزت الفرنجة، وأرض الروم كثيراً، وخلص إلى القول إن بيننا وبين الفرنجة اختلافات كثيرة تشمل الدين واللغة والمصالح والمطامع. سأل سيدي ومولاي: لمن النصر إذاً؟!

قال ابن جبير: لمن يكتبه الله له يا مولاي.

أعجب مولاي بكلام العالم الأندلسي، قال له: صدقت يا أبا الحسن. النصر من عند الله بعد أن تؤخذ الأسباب له. النصر جائزة سماوية لاستعداد أرضي.

قال العالم الأندلسي: تذكر يا مولاي ما حدث في غزوة حنين، عندما اغتر المسلمون بكثرتهم؟!

قال سيدي ومولاي: يعجبني كلامك يا أبا الحسن، نعم، النصر لا يتحقق لمجرد الكثرة أو القوة، الكثرة والقوة شرطان يجب السعي إليهما، ولكن هناك ما هو أبعد، وأعمق منهما.

قال المحدث الأندلسي: وأرى يا مولاي بهذا الصدد أن على ملة الإسلام أن تمتلك ما هو أبعد من الكثرة والقوة، إنه سر بقائها وديمومتها.

قال سيدي ومولاي: ووحدتها واجتماع أمرها.

رد ابن جبير بطريقة لم أشهد ولم أسمع بمثلها: يا مولاي، قد أبالغ في القول، قد أجامل، قد أكون مخطئاً، ولكني أعتقد أن وحدة الملة، واجتماع أمرها، وصدورها عن قول واحد، يتعلق دائماً برجل مملوء بهذه الحكمة، متقد الحماس بهذا الإيمان. نحن دائماً ننتظر هذا الرجل، والأمة يا مولاي متعلقة بك، ترجو على يديك الخير، بعد أن حررت المسجد الأقصى، واستعدت بيت المقدس.

طأطأ مولاي رأسه طويلاً، رفع رأسه، كانت في عينيه بقايا أو بداية دمع. قال وهو لا ينظر إلى أحد: ومن أنا حتى أشبه الأكابر الذين مضوا؟! أنا مجرد رجل لم يفعل بعد شيئاً، واضطر إلى اصطناع الأمراء من حولي بالمال مرة، وبالوعيد مرة أخرى؛ إنني أكابد الأمرّين، فأمراء المسلمين من جهة، وملوك الغرب من جهة أخرى، ولا أملك سوى أولادي وأشقائي وظهر جوادي. ترقرقت عينا سيدي ومولاي بالدمع. سكت الجميع، احتراماً وهيبة، وإذا شاويش الخيمة يدخل طالباً الإذن بدخول مقدم الجواسيس عمر الزين، فدخل هذا وهو يضع على ذراعه بازاً عظيم الهيئة، هائل الخلق، أبيض اللون، نادر الجنس، وقال عمر الزين بعد أن طلب الكلام إن هذا البازي يعود لملك الفرنسيسة، وإنه طار منه على أسوار عكا، فاصطاده رجالنا متعهدو الحمام خوفاً منه على الحمام، وإنهم أنفذوه للسلطان الناصر ليتفاءل به ويستبشر، فرأيت عيني مولاي تبتسمان، وانفردت الثنيات العميقة حول عينيه وفمه دلالة الرضا. أضاف عمر الزين أن ملك الفرنسيسة طلب البازي مقابل ألف دينار بالنقد الذي نطلبه. وقع ذلك موقعاً حسناً في صدر سيدي

ومولاي والحاضرين.

عندئذ حكى المحدث الأندلسي، ابن جبير وقائع قصته مع البحار المصري يعقوب، وكيف تنكروا بزي الفرنجة، ودخلوا ميناء عكا، فزاد انشراح سيدي ومولاي، ودعا الله للجميع، فطلب ابن جبير إلى سيدي ومولاي أن يسمح مرة أخرى للبحار يعقوب أن يعود إلى عكا ببطسة محملة مرة أخرى، على أن يضمن السلطان مشاغلة العدو من البر والبحر في الموعد المحدد، فأذن السلطان بذلك، واستحب أن يرى يعقوب نفسه ليشكره على فعله. ولدهشته فقد قال ابن جبير إن يعقوب ينتظر على باب الخيمة، وإنه خرج معه من عكا المحاصرة عبر الخندق المحيط بالمدينة، بمساعدة اللصوص الذين يدخلون معسكر الفرنجة ليلاً، فيكبسونهم أو يخطفونهم أو يسرقونهم.

دخل يعقوب هذا، في الستين أو السبعين من عمره، يلبس ثياب الأسطولين المصريين بالسروال الواسع، والحزام القطني العريض، والقميص الضيق دون أكمام، والعمامة الصغيرة جداً، والخنجر الصغير الذي يكاد يختفي وراء الحزام العريض، يعقوب هذا، أضاف إلى ذلك كله، عباءة أضفت عليه هيبة واحتراماً ما، تقدم بخطوات وجلى حيث السلطان، ومد يده، فقال: هذا دون مقدمات: يعلم الله يا مولاي أنني لم أخنك قط.

استغرب السلطان: ومن قال إنك خنتني يا يعقوب؟!

قال هذا وهو مطأطئ الرأس: لقد طردت من الأسطول المصري أيام فتنة مؤتمن الخلافة، وكنز الدولة وإضرابهما، بتهمة صلتي بهما، ولكن هذا لم يكن.

قال السلطان بصوت رقيق: اجلس هنا يا يعقوب، اجلس بجانبي.

تقدم يعقوب بوجل، ثم جلس إلى يمين السلطان، الذي وضع ذراعه على كتف البحار المصري، فرأيته وقد سكنت حركته. قال السلطان: أنت لم تخني قط، أنت أسطولي شجاع تستحق مني هذه.

سحب السلطان ممنجاته من حزامه، كانت ممنجاة مكسوة بالفضة، ومطعمة بالياقوت الأحمر، انتزع نصلها من غمدها، فبرقت أمام أعيننا، كان نصلها عريضاً وطويلاً ومدبباً تكاد تجرح كل ما حولها. قال السلطان:

خذها يا يعقوب، هذه لك، ولا تنس حقها.

تناولها يعقوب بإجلال كبير: أعرف حقها يا مولاي!!

قال السلطان: ولك مني دستور ببطسة محملة بالميرة، والرجال والسلاح، تدخلها إلى عكا كيفما تشاء.

قال يعقوب: لك ذلك يا مولاي بإذن الله.. ولكن.. لي طلب أخير يا مولاي.

قال السلطان: قل يا يعقوب، لك ما تريد!!

قال يعقوب: ابني الراضي.. مقدم النفاطين في عكا.

دهش السلطان: أهو ابنك؟!

قال هذا بفخر شديد: نعم يا مولاي.

صاح صلاح الدين: ما شاء الله.. ما شاء الله.. لكم الله يا أهل مصر.. لم يخطئ فيكم قاضينا الفاضل الذي ينصحني دائماً بحب مصر وأهلها.. ماذا يريد ابنك المقدام؟

قال يعقوب: إنه بحاجة إلى ثلج الصين ليحرق به سفن العدو ومراكبهم.

قال السلطان: وأين نجد هذا الثلج الآن؟! إن هذا الثلج أندر من الزئبق.

قال يعقوب: إنه عند مقدم الحشيشية الإسماعيلية في مصياف.

نفخ السلطان، حرك رأسه يمنة ويسرة، قال: سأرى يا يعقوب، ما يمكنني فعله.

قام يعقوب وهو يرتجف من فرط الانفعال، ثم استأذن ابن جبير وخرج.

اشتد ملك الفرنسيسة في مهاجمتنا، ومهاجمة البلد؛ كان ينازلنا كل يوم، في المرج وفي التلال المجاورة، وفي ضرب البلد بالمنجنيقات وآلات الحرب الجديدة التي جاء بها معه من بلاده، وتواترت رسائل الأمير بهاء الدين قراقوش تنذر بسوء الأحوال في عكا، وتأثر بعض أسوارها، وسقوط بعض أحجارها، ورغبة بعض الأمراء في المغادرة، ومنهم الأمير حسام الدين أبو الهيجاء، وأمير الأسطول الحاجب حسام الدين لؤلؤ.

عندئذ أمر السلطان الناصر بكتابة دستور يطلب إلى هؤلاء الخروج من الحصار، ثم كتب السلطان دستوراً يطلب إلى الأمير سيف الدين علي المشطوب والمقدمين أرسل وابن الجاولي، وسنقر الوشاقي الدخول إلى البلد بدلاً من المغادرين، وقد تم ذلك بنجاح كبير؛ إذ استطاع رجال الأسطول إدخال بركوس. وهو مركب صغير يتسع لعشرة من الرجال فقط. في ميناء البلد رغم شانيات العد وبطسه، ومن ثم إخراج الأمراء الذين طلبوا المغادرة، وإدخال الآخرين الذين طلب إليهم السلطان الدخول، وقد ساعد في إنجاح المهمة ما قام به السباحون وفي مقدمتهم عيسى العوام الذي أوهم أسطول العدو بالهجوم؛ وذلك بأن حمل هو ورجاله. وبعد أن اطمأنوا إلى ابتعاد شانيات الفرنجة عن الميناء. غطسوا في الماء مرة أخرى وابتعدوا، وكان ذلك كافياً لأن يدخل البركوس ويخرج ويتم التبادل.

ولما دخل الأمير الإسفهسلار حسام الدين أبو الهيجاء الخيمة السلطانية على تل كيسان. بعد أن انتقل إليه سيدي ومولاي ليتابع المعركة عن قرب. تحدث الأمير بصوت خفيض فيه انكسار واعتذار، فحدث عن الجوع والموت والمرض والضيق والإنهاك في البلد، كما تحدث عن صمود الأهالي، ونيتهم في المقاومة إلى النهاية، وأشاد بالأمير

قراقوش إشادة تامة، وعلل خروجه من البلد بطول المقام، والرغبة في رؤية الولد والأهل. استمع إليه سيدي ومولاي بهدوء وصمت، ووجهه لم يسفر عن أي شيء، أما الأمير حسام الدين لؤلؤ، فقد اعتذر بالمرض، وعدم الجدوى بالبقاء؛ ذلك أن لا شانيات للمسلمين في ميناء عكا، أما مقاتلة برج الذبان فهم في أسوأ حال لانقطاع الميرة والسلاح عنهم. سيدي ومولاي لم يعلق على ما قالاه بشيء، انصرفا من أمامه وهما في أسوأ حال؛ لم ينعم عليهما، ولم يتبادل معهما كلمة.

كنا نعرف جميعاً . وقد قال ذلك الملك العادل شقيق سيدي ومولاي بكل صراحة . إن المقدمين أرسل وابن الجاولي، وسنقر الوشاقي ذهبوا إلى عكا دون رضاهم، وإنهم متعجلون، ولا يتمتعون بالحنكة، والصبر اللازمين، ولكن . أضاف الملك العادل . الأمير بهاء الدين قراقوش سيعرف بالتأكيد كيف يعامل الجميع.

المقدمون الثلاثة هم من قوات الصلاحية الذين اشتهروا بحب الطعام الغليظ، وغالباً ما يصاب أرسل بالذات بالخانوق لكثرة اللحم الذي يتناوله في المساء. قد أمر السلطان بإرسالهم إلى عكا رغبة منه في تعليمهم دورساً كثيرة، كما أنه كان يعرف أن في عكا من الأمراء والمقدمين الأشداء ما يكفي للاعتماد عليهم؛ فقد كان هناك إلى جانب الأمير قراقوش، كل من الأمير شيركوه بن باخل، والأمير حسن بن باريك، وطغرل السلحدار أحد خواص مماليك سيدي ومولاي السلطان الناصر.

أما الأمير سيف الدين علي المشطوب فهو أمير شديد وعنيف، وسريع الغضب، وذو حمية ونخوة على عكس والي البلد الأمير بهاء الدين قراقوش، صاحب الهدوء المدهش والجأش المستقر.

لم يعد أمامي عمل كثير في القضاء بين العسكر، ذلك أن اشتداد المعارك مع ملك الفرنسيسة جعل من الأطلاب الإسلامية ترابط في أماكنها المواجهة لمعسكر العدو المخذول ليلاً ونهاراً؛ إذ إن الفرنجة لم يتركوا عكا لحظة واحدة، فقد أثخنوها بأحجار المنجنيقات، والزنبورك المحكم الصنع، وكرات النار، وكذلك ما اصطنعه مقاتلة الفرنجة من آلات حرب لم نرها من قبل، كالأبراج المتحركة، وسلالم التراب، والدبابات العجيبة المصنوعة من الخشب والنحاس والحديد. هذا كله وأهل البلد صابرون محتسبون يجترحون الأمثولة في القتال والصمود والمقاومة. وقد حدثني فرسان من اليزك الإسلامي من الذين يواجهون أسوار المدينة، أن مقاتلة السور قفزوا من أماكنهم إلى برج متحرك، وقاتلوا من فيه من الفرنجة، رغم المنجنيق، ورغم النار، ورغم سهام الزنبورك التي يتفنن الفرنجة في صنعها، وقد قارنت بين النشاب الإسلامي، والزنبورك الفرنجي، فرأيت الأخير أكثر إتقاناً، وأنفذ وسيلة، وأكثر دقة، وقد عمد السلطان الناصر إلى صنع زنبورك شبيه بذلك ولكن النتائج لم تكن كالمأمول؛ فمقاتلة السلطان متعودون على القوس الخشبية المرنة التي تمنح الفارس أن يختبر نفسه بالقوة والإحكام والجرأة والقدرة على

التصويب، أما الزنبورك فليس فيه كل ذلك، فهو أشبه ما يكون بالزراقة في هذا الصدد.

وبسبب ابتعاد العسكر عن التلال، ومرابطتهم بالليل والنهار كما قلت، فلم يعد أمامي من عمل في القضاء بينهم، كان عملي ينحصر في كتابة العقود لشراء العبيد أو الأسرى أو بيعهم، وكذلك الفصل بين منازعاتهم حول ملكية مال أو قماش أو عبد، وربما في أحوال نادرة الفصل في دماء هدرت عن غير عمد، والأهم من كل ذلك، العمل كسفير بين الأمراء، وبين سيدي ومولاي صلاح الدين، فقد كان هؤلاء كثيري الطلبات، كثيري التذمر، فمنهم من يريد إقطاعاً أكبر، ومنهم من يريد أن يزاحم أميراً آخر في إقطاعاته، ومنهم من يريد أن يغادر أرض المعركة، ومنهم من كان يطلب مصانعة الفرنجة. كل ذلك وسيدي ومولاي صابر محتسب يلقى الجميع بوجه بشوش، وقلب ثابت.

وربما جاز لي هنا أن أذكر الأمور بصراحة تستحق؛ فسيدي ومولاي الذي حارب فلول الدولة الفاطمية، ثم آل زنكي ثم الفرنجة، كان أمثولة الأمير الذي لم يتعود عليه بقية الأمراء، والأتابك في الشام، الذين تعودوا رد الفرنجة بالمال أو المصانعة، وفي بعض الأحيان بالقتال. كان سيدي ومولاي بالنسبة لهم محيراً، ولهذا، فإن كثيراً من الأمراء حوله . وقد تعودوا على انتصاراته السريعة . أرادوا إليه أن يعجل في حسم المعركة حول عكا، ولكن ذلك لم يحصل لإرادة الله أو لا، ولحشد الفرنجة لأنفسهم حول عكا ثانياً، وربما لعدم حزمه أمره ثالثاً، ولأن الحسم لم يحصل، فقد بدأ هؤلاء الأمراء يتململون ويتذمرون، مع ما رافق ذلك من أمطار وثلوج، وأمراض، وروائح فاسدة، وهواء راكد ثقيل، هل كان ذلك تقاعساً أو استهانة؟! أشهد أن سيدي ومولاي لم يغادر أرض المعركة طيلة هذه الشهور الثمانية عشرة، ولم ينم خلالها إلا تحت خيمة، مثله في ذلك مثل أقل جندي في العسكر كله، عكا كانت ضرورية لنا وللفرنجة، عكا قسطنطينية الفرنجة، ومن يحكمها يفتح البحر أو يغلقه، ومنذ أن احتلها الفرنجة قبل ثمانين عاماً جعلوا منها قبلة التجار والرهبان والمقاتلة، وعندما فتحها سيدي ومولاي كان يعرف أنه يغلق البحر أمام الفرنجة على عمومهم.

الحصار حول عكا كان جديداً؛ لم يحدث أن كان ذلك منذ أن تولى سيدي ومولاي الأمر، وكان جديداً . أيضاً . استنفار ملوك الغرب جميعاً، وإعلانهم الحرب علينا، وكان على سيدي ومولاي أن يجابه كل ذلك دفعة واحدة، كانت تلك المرة الأولى التي نسمع فيها أن كل ملوك الغرب قرروا حربنا من جديد. فهل كان ذلك سبباً آخر في دفع أمراء السلطان إلى كثرة المطالب وكثرة التذمرات؟!

حمل الحمام رسائل كتبت بالترجمة تقول إن البلد في أسوأ أحوالها؛ فالميرة في تناقص، والماء ينفد بسرعة، وكذلك السلاح، وأن المرضى والجرحى في ازدياد، والأنكى من ذلك كله، أن أسوار بعض الأبراج بدأت تتصدع، وطلب الأمير قراقوش في نهاية الرسالة الإسراع في مشاغلة العدو من البر والبحر، والإسراع بإدخال الميرة، والسلاح إلى

البلد.

استدعى سيدي ومولاي عيسى العوام، وأمره بزيادة عدد السباحين الداخلين إلى البلد خلسة، وحمل ما يستطيعون من متاع، بانتظار فرج الله. وعد هذا خيراً وانطلق. سأل سيدي ومولاي عن أخبار البحار المصري يعقوب وبطسته، فقيل له إن هذا قد خرج من بيروت ببطسة كبيرة محملة بكل شيء استعداداً لإدخالها إلى عكا، وبينما نحن كذلك، إذ وقع الصوت أن ملك الإنكتار قد وصل عكا في خمسة وعشرين شانياً مملوءة بالرجال والسلاح والعدد، وقيل إن هذا الملك ذو رأي في الحرب مجرب. هذا والسلطان يتلقى ذلك بالصبر والاحتساب.

مات زوجي؛ ملك صقلية، ومات والدي، ملك إنكلتره في أوقات متقاربة، أما الأول فكان منفتحاً وسهلاً مع المسلمين حتى شغلوا كل شيء، ووصلوا حتى غرفة نوم الملك. أما والدي هنري فكان متسرعاً بشأن العلاقة مع البابا فتورط في خلافات عميقة مع النبلاء والوزراء، لم يكن زوجي، ولا والدي ممن يهتمون كثيراً بالبابا، أو بأوامره ونواهيه، بل يمكن القول إنهما كانا يكرهان البابا، ويعملان على الخلاص منه، وقد فعلا في النهاية. الآن ماتا، وتركاني وحيدة في جزيرة مشمسة طيلة أيام السنة، نبيذها وأطعمتها المخللة المالحة يبعثان في جسدي كل حرارة العالم، وأشواقه، واللذائذ الممكنة فيه. لا يمكن العيش في جزيرة مثل هذه، حيث لا رقيب، ولا حسيب، دون أن ينشغل المرء بابتكار أسلوب للبقاء أو ذريعة له؛ فبعد أن مات زوجي، واعتلى الملك وليم العرش نسيني الجميع. تركوني في قصر صغير مع جيش كامل من الوصيفات، والعبيد المسلمين، والحراس العجائز الذين ينامون في الليل والنهار أيضاً.

لا شيء أفعله هنا، في صقلية هذه، حتى زوجة الملك وليم لم تكلف نفسها بدعوتي إلى أية حفلة أو مناسبة، فهي امرأة من جنوة، والدها يملك أسطولاً من المراكب التي تسافر إلى سواحل بلاد الشام وسواحل إفريقية، وتعتقد في قرارة نفسها أن الملك بحاجة إليها لغنى والدها أكثر مما هي بحاجة إلى جاهه، هذا إلى جانب أنها تكره الإنكليز؛ فهي تعتقد أنهم باردون ومتكبرون ومتعجرفون، ولا يعبرون عن مشاعرهم إلا إذا تمت مضاجعتهم، وتعتقد . أيضاً . أن النورمان . عموماً . هم أناس متخلفون، يحبون المشاجرة والحرب ليس إلا، ولا يفهمون في الشعر أو النحت أو التصوير، فلا مشاعر فنية لهم. وقد سمعت أن والدها جمع لها تحفاً نادرة من كل البلاد التي تصل إليها سفنه، بالإضافة إلى عدة حيوانات تكاد تكون أخذت من الأساطير والحكايات الخرافية، وأن الملك وليم يزور هذه الحيوانات بشكل يومي للعجائب التي تأتيها؛ فهناك طائر يتكلم، وهناك حيوان يزيد من حجمه عدة مرات في حالة الإثارة أو الغضب. أما قصري فلا شيء فيه سوى الطعام المخلل والنبيذ اللذيذ، وهذه الخيالات التي تبعث القشعريرة في جسدي.

ولما حاولت إشغال نفسي في الزراعة، استدعيت أحد عبيدي المسلمين، وطلبت إليه أن يعلمني أصول الفلاحة والزراعة. أحضر لي هذا كتاباً ضخماً بالعربية، يتناول فيه أنواع النبات، والآفات التي تصيبها، وأوقات زراعتها، والمفيد من أجزائها، قال لي خادمي إن مؤلف هذا الكتاب هو ابن البصال، فقلت له إني لا أجيد العربية، فصار يترجم لي، ولما صرت أحدق فيه، بشاربيه وبشفتيه، اشتعلت الخيالات في جسدي، فصرفته قبل أن أتهور، واكتفيت بري أشجار الكرمة، والرمان التي تحيط بقصري بكثرة لافتة للنظر، ولكن الحر والفراغ والنبيذ جعلني أتهور، أتهور أكثر مما تصورت، وأكثر مما خططت. الشمس هنا واضحة ولا تخفي شيئاً. في بلادي الشمس مخادعة ومراوغة، ولا تفصح عن نفسها. أما هنا، فكل شيء واضح، وكل شيء تحت الأنف تماماً، وصيفاتي المسلمات أو المنتصرات . صرن يتنصرن هن وأهليهن بعد أن أخذ الملك وليم يضيق على المسلمين في البلاد، بعد أن تواردت الأخبار عن انتصارات صلاح الدين على مسيحيي الشام . أسقطن في أذني أسرار حياتهن، وخبايا أرواحهن، وعجبت لصبرهن، وتكتمهن وتحرقهن، وقدرتهن على احتمال الحرقات كلها. وحدثتني عن الرجل كأنه شبيه بالإله، وعن لذائذ اللحظات الحميمية التي يتعلمها الجميع باعتبارها جزءاً من دينهم. عجبت لخبرتهن العالية، ودقة فهمهن لأجسادهن، وأجساد رجالهن. لم تكن وصيفاتي يشبهنني قط، لم أكن ممن تتوقف لتتذوق متعة الصد، والإغراء والممانعة، أو تلك المتع الصغيرة التي يغرقنا فيها الحب الذي يجري في ممنوعات ومحرمات. الشمس هنا ساطعة، وعندما يذوب النبيذ في الدم، فإن الجسد يتحول إلى أثير يطير في الأجواء، لا يبحث إلا عن شبيهه، ولأنني كنت أعرف أنني أتهور بدم إنكليزي حقيقي، لا يحسب حساباً للعواقب عند الوله والغضب والحاجة، فقد منعت نفسي من التورط مع من يستعمل ذلك في إذلالي، أو إذلال عائلتي، أو اسمي في جزيرة صغيرة مثل هذه، وخاصة أمام زوجة الملك وليم المغرورة، فلم يكن أمامي سوى عبيدي الذين يجيدون كل شيء في جو احتفالي، مليء بالخضوع والاحترام، والمهابة التي تجعل من كل شيء ممتعاً وعذباً وسرياً إلى أبعد حد، انتهاب اللذة هكذا، في مثل هذا الجو غير المتكافئ المقارب للخطيئة، الغارق في السر، المضمخ بالخضوع، الراتع في انتهاك الغريب والجديد، يجعل للحياة معنى، وللبقاء ذاته ذريعة.

وصيفاتي اللواتي عرفن ذلك بسهولة، قدمن لي نصائح مهمة، وقدمن لي كذلك مراهم ذات رائحة نفاذة تفيد في منع المضاعفات غير المحمودة، انصعت لذلك دون كلام، أما الوصيفة العجوز التي كنت أناديها باسم دلال، فقد تجرأت، وقالت لي إنني قد أكون أعاني من عرض معروف، وذكرت اسمه بالعربية . مما أخجل من قوله كما هو، ولكن ترجمته تعني أنني مثل بئر لا قعر له . ضحكت رغماً عني، وقلت لها بما لا يعني أنني أبادلها الحديث، بل كأنني أحدث طبيباً. إنني لست كذلك، ولكنني أشعر بملل كبير، فسألتني وهي تحدق فيَّ بعيون ثابتة لا تهتز، ولا ترمش فيما إذا كنت أعاني من

الصفراء، أو أي مزاج منحرف، فقلت لها ولا ذلك أيضاً، بل إنني أعرف ما أفعل، وأستمتع به ليس إلا، عندئذ، تقدمت مني دلال، وقالت بعيونها الثابتة، إنها ستعرفني على أشياء جديدة لم أسمع بها من قبل، وهكذا، صارت تقرأ لي من كتاب شهواني لمؤلف مسلم من الأندلس عن الحب. لم أكن أفهم كثيراً من الشعر المكتوب، فهو شعر فيه بكاء كثير، وفيه تصوير لعذابات العاشق لا ضرورة لها، وكأن الحب عذاب، وما كان له أن يكون كذلك، فسألت دلال فيما إذا كان هناك كتب أخرى أكثر صراحة، فأحضرت بعد يومين كتاباً صغيراً بغلاف سميك أسود، قالت دلال إن عنوانه هو ما لا يمكن التجرؤ على لفظه، انصدع قلبي مرة واحدة، أيكتب المسلمون مثل هذا الكتاب وهم المحافظون والمتشددون؟! وعندما صارت دلال تقرأ لي، وتترجم ما تقرأ، حولت أيامي إلى جحيم حقاً؛ فقد صرت أطارد كل ما يتحرك في قصري، فاق الكتاب خيالي، وأيقظ في كل ما يمكن أن يدفع إليه الملل والفراغ والبحث عن معنى، وانتهى الأمر إلى أن صارت دلال هذه تقوم بالعمل لي، ووفرت علي الكثير من مهانة السؤال، أو ذل العرض، وأصبحت أسيرة دلال، أنتظر أفعالها وتدبيرها، وما توفره لي مما أحتاج؛ فلم أعد أغادر قصري إلا للتريض قليلاً على شاطئ البحر، أو للصلاة في الكنيسة مما يضطرني إلى مجاملة الملك وليم، وزوجته المغرورة التي تسلم علي بأطراف أصابعها. ومما زاد الطين بلة أنني أصبحت أرتدي الملابس الأكثر شبهاً بملابس نساء إشبيلية أو قرطبة . لتمثل أجواء الكتب التي تقرأ لي دلال، ولأن ذلك ليس مستغرباً في باليرمو أصلاً . الأمر الذي استهجنته زوجة الملك وليم التي تلبس ثياب نساء جنوة التي تكشف الصدر والكتفين، فيما تبدو ثياباً فقيرة بالقياس إلى الثياب التي ألبسها، فهي . وإن كانت تغطي الصدر والكتفين والعنق . إلا أنها مليئة بالتفاصيل الصغيرة من الثنيات، والألوان والمخرمات والخيوط المختلفة، والقطع المتعددة، والطبقات الحريرية التي تجعل الجسد متعة بحد ذاته. هذه الملابس كانت تثيرني، وتبهرني وتجعل من جسدي واثقاً من نفسه، ويشعرني بأنني مثل كنز مخبوء داخل صندوق من اللون والبرودة والضوء المتكسر، أما زوجة الملك فاتهمتني بأني مثل الراهبات بهذه الثياب، وأنني لم أتحرر بعد من تأثير الكفار علي. لم تقل لي ذلك مباشرة ولكني سمعته ممن ينقلون الكلام والنمائم عادة. استغربت أن تقول هذه مثل هذا اللغط، وهي تعرف أن المسلمين هم الذين يعمرون هذه الجزيرة منذ قرنين من الزمان مضيا، وعندما أفتش في صدري عن كراهية للمسلمين فإنني لا أجدها؛ هم لا يشبهوننا في أسلوب حياتنا، يميلون إلى اعتبار أنفسهم أنهم أفضل من الآخرين بسبب من دينهم الذي يعتقدون أنه آخر الأديان، وأفضلها، وأن محمداً آخر الرسل وأفضلهم، وأن إلههم لا يشبه أي إله آخر، وبسبب من ذلك تجدهم أكثر فخراً، وأكثر استنامة إلى ذلك بما يشبه عقيدة السكون والركون، وكأن مجرد إسلامهم يعطيهم أفضلية على الكون، وما عدا ذلك فهم رائعون في كل شيء؛ لهم طرقهم في النظافة والحب، والزواج والبناء والزراعة والعلم والفلسفة والجغرافية، وهم

يربطون كل شيء بدينهم، حتى طريقتهم في مباشرة نسائهم، وقد عجبت لذلك أشد العجب، دينهم فيه تفاصيل غير محتملة، ولم تخطر على بال، حتى في العهد القديم لا نجد مثل هذه التفاصيل، ولكني لم أكن منشغلة بذلك قط.

المسلمون حولي، في القصر، وفي الطريق، وفي كل مكان أذهب إليه، وما يشيع في إشبيلية أو قرطبة من ألبسة أو مصنوعات، فهو يصل إلى بالبريمو بعد شهر واحد فقط، حتى أسلوبهم في الغناء والرقص، تحول في باليرمو إلى أسلوب دارج في وضع الألحان والقصائد، وأخذ شعراء ومغنون يقلدون شعراء الأندلس المسلمين في التنقل، وإلقاء القصائد بمصاحبة القيثارة، وقد سمعت قصيدة مثل هذه تتحدث عن ذلك الفارس المسيحي الذي قاتل المسلمين في قشتالة وبلنسية، ويدعى "السيد الكابنيتور". ولم يكن يعنيني كل ذلك؛ فأنا إنكليزية تزوجت من ملك صقلية لتوسع نفوذ أبيها، ولتقلل من نفوذ البابا عليه. تقدمت بي السنون دون جدوى، ولم يعد من حياتي سوى أن أنهل من لذائذها التي لا يشبع منها، ويجدر الاعتراف . هنا . أنني لا أصدق الكاهن الذي يتحدث عن المتع الروحية، والإخلاص للرب، حيث لا يمكنني تصور هذا الرب إلا من خلال حكايات وصيفاتي أيام طفولتي؛ حيث تختلط حكاياتهن عن الغابات الماطرة والعتمة والثلج، والشخصيات الخرافية مع يسوع الذي يتنقل من مكان لآخر دون أمطار أو عتمة أو ثلوج. أحببت يسوع لهذه الأسطورية فيه، وهي . وإن كانت لا تشابه أسطورية أبطال النورمان . إلا أنها كانت شيئاً عظيماً وعميقاً؛ فقد قبل أن يصلب ويتعذب من أجل الخطاة رغم أنه كان قادراً على تخليص نفسه، لا أفهم الخطيئة التي يتم الكلام عنها، أبطال النورمان لا خطايا عندهم، ولهذا لم أتمكن قط من تسليم روحي للرب. كانت هناك مسافة كبيرة بيني وبينه، فعندما أحدق في وجهه في الكنيسة، كنت أحب وجهه وأشفق عليه، أحب هذا الوجه المنكفئ إلى الداخل، المتعذب بوجع لا نهائي، وأحب جسده النحيل الذي يبعدك عن التفكير بشهوة الجسد، بل يدعوك إلى الغرق بالتأمل في كمية العذاب وتوتر الروح، ولكن رغم كل ذلك، كنت أشعر أنني أقرب إلى جسدي، وإلى انفعالاتي واستسلم لها. كنت لا أفهم الكاهن وهو يتحدث في موعظة الأحد عن قمع الشيطان فينا، وعن كبح أرواحنا عن الخطيئة، الحقيقة أنني لم أكن أفهم ما معنى الخطيئة، ما دام يسوع نفسه قد اعترف بها، وضحى بنفسه من أجل كل الخاطئين. يسوع جاء لتعريفنا بالخطيئة، وتخليصنا من ربقتها، وقاتل إبليس بالنيابة عنا. الخطيئة هي ما نعتبره خطيئة ونعترف بها، أما ما لا أعتبره خطيئة فهو غير كذلك.

أنا أستمتع بأيامي وجسدي، ووجدت لنفسي عملاً أقوم به كل يوم، البحث عن المتعة، هذا هو عملي، ولهذا كففت عن الاعتراف، أما الكاهن، فزاد في سخرية زوجة وليم، ومن معها من زوجات الأمراء الآخرين.

الحقيقة أن يسوع من بلاد غير بلادنا، وتحدث إلى أناس خطاة أصلا وجدوا في أرض قديمة. أمَّا نحن، فإننا محاربون نسعى إلى المجد بكل ثمن، وعندما أقارن بين

يسوع، وبين ما سمعته من وصيفاتي عن الملك العظيم وليم الفاتح، ومن معه من الفرسان، وعن أجدادهم العظام الذين قاتلوا العتمة والثلج والوحوش والكائنات الخرافية، وعن أولئك الرجال والنساء الذي كانت علاقاتهم مهلكة ومخيفة، وواجهوا مصائر لا تحتمل، وأقدارا لا تصدق، وتغلبوا عليها بالقوة والذكاء والمثابرة، فإنني أجد يسوع رجلا حسن النية لا يكاد يسمع. الإنكليزي لا يصدق إلا نفسه، ولا يطيع إلا ذكاءه، حتّى المسيحية تحولت في بلادنا إلى مسيحية أخرى، واعتقدت لوهلة ما . وخاصة بعد أن ذهبت بعيداً في مغامراتي مع دلال . أن الكتاب المقدس هو نتاج أرض بلا تشبه أرضي، وثقافة لا تشبه ثقافتي؛ الكتاب المقدس نتاج أهل الشرق، حيث الصحاري، وقلة الماء، والناس الباحثون عن الفسق، واجتلاب الشهوة، ومن ثمَّ البحث عن عزاء من السماء. إن دلال، المرأة العجوز التي عاشت شطراً من حياتها في دمشق ثمَّ في إشبيلية، ثمَّ بيعت هنا في باليرمو لزوجي تخلط بين الرجل والإله خلطاً عجيباً، وهي تسمي الزوج بعلاً أو رَّباً، الشرق بلاد يقترب فيها الله إلى درجة أن يصبح كل شيء وأي شيء، أمَّا في بلادي، فالناس ناس، متشككون، حذرون، وصارمون أيضاً، ويجعلون من الإله مجرد كائن يتمتع ببعض الخوارق ليس إلا.

كان ذهابي إلى الكنيسة جزءا من الواجب ليس إلا، وفرصة لمشاهدة الناس، والوجوه الجديدة، وسماع الأخبار المتواترة عن سقوط القدس في يد صلاح الدين الأيوبي، وجنون الملك وليم أو مرضه جراء سماعه ذلك الخبر، واستشراء العداء للمسلمين في الجزيرة؛ فقد صار ينظر إليهم على أنهم أعداء أو جواسيس، ممَّا دفع بالناس إلى مضايقة هؤلاء في دكاكينهم ومزارعهم وبيوتهم، وغض الملك وليم بصره، وسمح للناس أن تعبر عن غضبها وكراهيتها، ثمَّ رأى أن من الحكمة أن يتدخل هو شخصياً في ذلك ليظهر تشدده وتعصبه، فأطلق العنان لشرطته أن تعتقل، وتحاكم، وتسجن كل مسلم يخالف شرطاً من شروط العمل أو التجارة أو التملك، ما أيقظ آمال الكثيرين من الفقراء والأغنياء على حد سواء بتملك ما بأيدي المسلمين. ولما فرض الملك وليم ضريبة سماها ضريبة "صلاح الدين"ليمول إرسال أسطول كبير إلى سواحل الشام ليساعد مسيحيي الشام، فرض تلك الضريبة- أيضاً . على المسلمين، فضج هؤلاء ورفضوا، ممَّا أعطى حملة الملك ضدهم شرعية أخرى، كانت دلال تعلمني بذلك أولا بأول، بعد أن سألتها عن اختفاء الشباب الذين كانت تحضرهم إلي ليلا ونهارا بحجة قيامهم بأعمال الزراعة والتبييض وإصلاح ما تهدم من جدران أو نحوه؛ فقد ذكرت لي أن هؤلاء صاروا يتجنبون الظهور في الشوارع خوفاً على أنفسهم من الاعتقال أو الطرد. ولم يكن ذلك ما يثير بي شيئاً سوى تناقص الرجال الأشداء، ولكن ذلك لم ينته على ما أحب قط، ذلك أن أحد هؤلاء الشباب . ونسيت اسمه . فقد كنت لا أسأل عن الأسماء، لأنها صعبة من جهة، ولأنني لا أرغب في إقامة علاقة شخصية أبداً من جهة أخرى . قال لي بعد أن انتهى مني:

. أريد مساعدتك!!

كان طويلاً، جلده بلون التراب، وله شعر كثيف على صدره وذراعيه وساقيه ممَّا يفقدني صوابي. لم يكن وسيماً بقدر ما كان شديداً وقوياً وعليماً.

قلت دون أن أنظر إليه: تريد مالاً؟!

قال بإصرار: لا. يريدون مصادرة مزرعتي.

قلت: من هم ؟!

قال: الشرطة. شرطة الملك وليم.

قلت: وكيف أساعدك؟!

قال: قولي لهم أن لا يفعلوا ذلك. أنت الملكة، أليس كذلك؟!

ضحكت: كنت ملكة، الآن أنا أرملة مسكينة.

قال بإصرار: أريدك أن تساعديني، مزرعتي هي مزرعة ورثتها عن أجدادي الذين عمروا هذه الجزيرة قبل عشرات السنين، قبل الملك وليم نفسه.

اللذة لا تكتمل ولا تتواصل، كان جباراً بجسده وحضوره. كانت عيناه مليئة بالرجاء والأمل، وقبل قليل كانت تبرق بالنار والوهج. ما أروع الرجال!!

قلت بنوع من التفهم: سأرى ما الذي يمكنني أن أفعله!!

قبلني حيث أحب، لبس وخرج، ونسيت الحكاية من أصلها، فلن أورط نفسي بالدفاع عن فلاح مسلم، سيثير دفاعي عنه أقاويل أنا في غنى عنها تماماً. ولكن المسألة لم تجر كما خططت لها؛ إذ فوجئت ذات صباح بزيارة الأب أنطونيو أسقف المدينة بوجهه الأبيض اللامع كالشمع، ورأسه الأصلع الكبير الذي يعكس أشعة الشمس بوضوح يثير الضحك، حيث لا تتناسب جديته ورزانته مع لون وجهه ولمعانه ونعومته.

فوجئت بهذه الزيارة، ولكني لم أتوقع قط سببها. جلسنا في الحديقة تحت شجرة رمان كبيرة. كان واضحاً، وكان صارماً، ودقيقاً وهو يقول لي مطأطئ الرأس:

. يؤسفني أن أكون رسولاً إليك بهذه المهمة الشاقة على نفسي، ولكن هذا كان قرار الملك.

دق قلبي بقوة، استشعرت السوء. قلت: تفضل حضرة الأب.

قال وهو يخفي وجهه الناعم اللامع عني: هناك أقاويل لا نصدقها تتناول مقامك الرفيع؟

دق قلبي بقوة مزعجة: أقاويل؟!

قال بصوت خفيض وبطيء: نعم مصدرها فلاح مسلم ادعى أنك وعدته بعدم مصادرة مزرعة له.

سطعت في رأسي الفضيحة كالحريق الهائل. رددت دون وعي: مزرعة؟!

قال الصوت الخفيض البطيء: نعم. عندما اعتقل الفلاح صرخ باسمك ثمَّ.. ثمَّ..

أحسست بدوار خفيف طاف في رأسي، ثمَّ انحدر إلى جسدي، أكمل الصوت الخفيض البطيء:

. ثمَّ.. ثمَّ اعتقلت وصيفتك دلال مساء أمس.. وجلالة الملك بنفسه..

لم يكمل الأسقف لأنني لم أعد أسمع ما يقال.

انفجرت الفضيحة في كل البلاد، الملكة جوانا، الأرملة الطروب، وقصرها الذي جعلته مثل قصور الشرق شبقاً وفسقاً، كالكفار المسلمين تماماً، ووجد أولئك الذين يعادون الوجود الإسلامي ذريعة للإسراع في طرد المسلمين من الجزيرة، ووجدت زوجة الملك وليم الفرصة السانحة لتحولني على عاهرة إنكليزية مات زوجها، وقام رجل مسلم يدعى محمد بن عباد بمسيرات صاخبة في باليرمو يطالب الملك بالعدول عن سياسة التمييز، والجور التي يتبعها بحق المسلمين، ولكن الشرطة هاجمت المسيرة وفرقتها واعتقلت الكثيرين، الملك وليم وحده لم يجد ما يفعله سوى الإسراع في إعداد أسطوله، وإرساله إلى سواحل الشام، وشجع سياسة كراهية المسلمين ومضايقتهم، أمَّا بالنسبة لي، وأنا أحد أفراد عائلته، فقد طرد جميع عبيدي وخدمي ووصيفاتي، واستبدلهم بآخرين من المسيحيين، واستبدل فرقة الحرس العجائز، بعدد آخر من الفرسان المحترفين يقفون على بوابات القصر، ولا يدخلونه، ولا يسمحون بالدخول لأي كان، وهكذا، تحولت إلى أسيرة فعلية، بعد أن كنت ملكة.

ويبدو أن ذلك لم يشبع رغبة زوجة الملك بالانتقام مني، لذلك أقنعت زوجها بإرسال عدد من الراهبات العجائز ليقمن معي بحجة مساعدتي في أداء الصلوات، ولكنهن في الحقيقة كن عيوناً علي، وحرساً مشدداً يقيدن حركتي، ويحسبن على أنفاسي، والعجيب في كل هذا، أن ذلك لم يمنعني من الغلو والإيغال فيما أنا فيه، فلم أعدم الوسيلة للوصول إلى مبتغاي، ولم تمنعني الفضيحة من إيماني العميق بأحقية مطلبي، ورغبتي في العيش، والتعلق بسبب من أسباب البقاء، ولم أعدم وسيلة في تجنيد إحدى الراهبات لتقوم بالخدمات التي كانت دلال تقدمها لي، هذه الراهبة كانت في منتصف العمر تعاني من نوبات صرع مخيف، تتعرى فيها، وتدعى أنها عروس مقدسة، وقد أقنعتها أن خطاياي مقصودة لأنَّ المسيح سيأتي آخر الزمان، فيحتضن الخطاة أولا، ويخلصهم، ثمَّ يبيد الأشرار جميعاً، فصار بيني وبينها سر عميق؛ إذ صارت تمارس دور العروس المقدسة بحياتها العادية، وليس في حالات صرعها التي صارت تخف تدريجياً بعد أن انخرطت في تقديم خدماتها لي، وبعد أن صارت تطالب باختلاس النظر بحجة حماية المكان من الراهبات الأخريات. وكانت اللذة المسروقة في مثل هذا الجو المحتقن والمتوتر أعمق اللذات التي يمكن أن يتصورها عقل أو جسد، كنت أصفى وأنقى ما يكون

في التقاط، وامتصاص اللذة قطرة قطرة، أوزعها على عقلي وجسدي بالتساوي، إلى درجة تدفعني إلى الصراخ. وسألت نفسي فيما إذا كان الفسق جزءاً أصيلاً في نفسي! ولم يكن الجواب بعيداً عني، فالفسق بمعناه الجسدي، ومعناه الروحي لم يكن يوماً بعيداً عنا، هناك في بلدي البعيدة، أو هنا في هذه الجزيرة التي تدعو إلى الفسق دعوة صريحة.

وفي هذه الظروف التي لم أكن أحلم يوماً بأن أغرق فيها، وصل أخي ريتشارد في خمس وعشرين سفينة ضخمة لم أشاهد مثلها في صقلية كلها. وصل أخي فقامت الجزيرة لوصوله، انطلق الملك وليم وزوجته وحاشيته كلها إلى الميناء لاستقبال أخي ريتشارد؛ استقبلوا بالورد والإعلام والموسيقى و التصفيق، وأنزلوه في قصر ضخم كان للملك روجر، يقوم على تلة تشرف على مدينة بالميرمو كلها، فيما أقيمت خيام كبيرة على شاطئ البحر للجنود، وطعموا من طعام الملك وليم نفسه، الذي أراد أن يقدم أقصى ما يستطيع لريتشارد الذاهب لتحرير قبر المسيح من يد الكفار. كان الملك وليم يريد من ذلك كله أن ينفي عن نفسه أية شبهة لحقت بأبيه، أو بجده اللذين أطلق عليهما لقب "الملكين الوثنيين" لتساهلهما مع المسلمين. ولكن ذلك كله لم يجد نفعاً فقد سمع أخي ريتشارد بما حل بي من الأسر والمعاملة السيئة، فقام بزيارتي إلى قصري بموكب طويل وحافل، وصحب معه أسقف كانتربري، وجميع الأمراء والقواد في أسطوله، وتعمد أن يقوم جنوده بحراسة البوابات، واعتلاء الأبراج، ورفع الأعلام الإنكليزية عليها. ولما دخل علي، طويلاً وخشناً وشائكاً وذا رائحة هي مزيج من الثوم والنبيذ وصدأ الحديد، ارتميت على صدره العريض، وسمحت لنفسي بالبكاء. كان ذلك تصرفاً لم أعهده في نفسي، ولكن ريتشارد هذا لم أره منذ عشر سنين أو أكثر؛ كان صبياً يافعاً عندما رأيته آخر مرة، يتدرب على فنون الفروسية في دير قريب من قلعة والدنا. لم يكن بيننا ذكريات مشتركة، ولا أسرار، أمَّا الآن، وهو يدخل قصري، بطوله وعرضه، وشعره الأشقر الخشن، ووجه الأحمر العريض، وفمه الكبير، ويديه الخشنتين ذات الأظافر المتسخة، ورائحته التي بدت أليفة وغير منفرة، فقد رأيت فيه أبي، أكثر ما رأيت فيه شقيقا لي. شهرة أخي في الحرب وصلت إلى صقلية، مهارته في الصيد، وقدرته على القتال بكل الأسلحة حكي عنها، حتّى هنا في باليرمو. قبلني فاحتوتني رائحة الثوم والنبيذ. ظلت يدي بين يديه حدق فيَّ طويلا وهو يقول: آه أيها الأخت العزيزة، لقد ظلمناك.

ظلت الدموع معلقة في عيني. لم أرد. انفعل: لا تبك أيتها الشقيقة الكبيرة، لقد جئت إليك. لا تبك.

قلت وكأنني كنت في حوار طويل معه: إنها إرادة الرب.

ضحك وقال: لا أدري إذا كانت إرادة الرب أم لا، ولكن..

احتار ما يقول، ولكنه أكمل: القرب من المحمديين سيء، أليس كذلك؟!

في صقلية لا يستعملون تعبير المحمديين، ولكني قلت: لا علاقة للمحمديين بهذا!!

قال بما يشبه الغضب الصارم: ما كان للملك وليم أن يعاملك هكذا!!

الغيرة النسائية دفعتني على القول: هذا من تدبير زوجته.

قال: لا تحزني، سأزوجك من ملك.. هذا وعد. سأزوجك من ملك.

تبسمت رغما عني. ضحك وهو يقول: آه.. بسمتك هذه تذكرني بالسيدة الوالدة.

جلس بالقرب من النافذة، وحدق في الحديقة المتواضعة للقصر وقال: سآخذك معي إلى القدس، سنستعيد القدس معاً من صلاح الدين. ماذا تقولين؟!

كان ذلك آخر ما كنت أتوقعه. الذهاب إلى القدس، والخلاص من جزيرة صقلية، وما فيها من نميمة ونفاق وفسق. الذهاب إلى قبر المسيح، شملني برد وسلام، أحسست بهدوء عجيب ألم بجسدي، وأثملني بالطمأنينة.

قلت: كما تريد أيها الملك!!

ثاب وهو ما يزال يحدق بالحديقة: خذي معك ما تريدين، ومن تريدين من خدمك. لن أطيل في هذه الجزيرة. كان مجيء أخي إلى الجزيرة بمثابة معجزة بالنسبة لي، ولم أكن أتوقع مثل هذه النهاية؛ فقد وطنت نفسي قبل مجيئه أن أقضي حياتي سجينة إلى آخر لحظة من عمري. انتهب لذة مسروقة، ولا أجد غير جسدي أهتم به، أمَّا الآن، فأنا ذاهبة إلى القدس، حيث قبر المسيح الذي عذب جسده من أجلنا جميعاً. ولأول مرة أقبلت على الكتاب المقدس أقرأه بخشوع أحسسته في قلبي. وقبل الإقلاع من الجزيرة، بدا الملك وليم وكأنه يريد إثبات إخلاصه، وإيمانه المسيحي العميق أمَّا أخي ريتشارد، الذي تصرف بخشونة واضحة! وبالغ في طلب الطعام والسلاح، وتساهل في عبث الجنود في المدينة. وفي تلك الأثناء، زادت حملة مطاردة المسلمين في الجزيرة كلها، وكأن ذلك كان ضريبة لتحية شقيقي ريتشارد، الذي رفض أن يفاتح مضيفه بموضوعي، وإن أبدى غضبه وعدم رضاه، لم يشأ ريتشارد أن يتحدث مباشرة حتّى لا يجعل من الموضوع رسمياً أو مؤكداً. أراد أن يبقيه في دائرة الإشاعات التي قد تكون كاذبة، ولكن كان كل شخص في المدينة يدرك ما حدث، ويدرك مغازي ما يجري.

وعندما غادرت صقلية في اليوم الأخير من شهر آذار، شعرت أنني حرة، حرة تماماً، وأن كل ما فعلته هنا وما رأيته كان مجرد حلم ليس إلا، استسلمت للبحر وروائحه التي توقظ الروح والجسد معاً. أصغيت باستمتاع كامل لأغاني الجنود، وقرأت بخشوع الكتاب المقدس، وتابعت اجتماعات شقيقي الملك ريتشارد التي لا تنتهي مع الأمراء والقواد، وهم يتابعون دروب البحر، ورسوم المدن التي يريدون استعادتها، ومن وصل إلى الساحل قبلهم، ومن سيصل قبلهم. أخي محارب ولا يجيد سوى الحرب؛ فقد نسيني تماماً وترك لي الحرية الكاملة في قضاء وقتي، ولم أكن أعرف أنه مشغول بالانقضاض على جزيرة قبرص التي صرت أسمع الجنود يذكرون قرب الوصول إليها، ويتحدثون عن مناجم الذهب والنحاس في جبالها، وعن خيراتها من الثمار والأشجار.

كان الجنود يتبادلون أنخاب النصر قبل أن تبدأ المعركة، فالجزيرة تكاد تكون خالية ممَّن يدافع عنها، وهي على الرغم من تبعيتها لملك بيزنطة الأرثوذوكسي، إلا أنها كانت معرّضة . دوماً . للهجوم من قبل الأسطول الإسلامي، وهكذا فقد برر ريتشارد غزوها للجنود في خطبته أن جزيرة قبرص ستكون قاعدة متأخرة للمسيحيين في حربهم الطويلة مع المحمديين، كما يسمي المسلمين دائماً. ولم تأخذ المعركة وقتاً طويلاً حتّى سيطر جنود ريتشارد على كل شيء؛ جبال سيرين وترودوس، وسهول نيقوسيا الخصيبة، لم يكن هناك من يدافع عن الجزيرة سوى حامية صغيرة لم تكلف نفسها بقتال حقيقي، ولم يضطر ريتشارد أن يستخدم آلات الحرب التي يحملها في مراكبه، وهي آلات قيل لي إنها صممت خصيصاً لقتال المحمديين الذين يتحصنون في قلاع قوية، وعالية ومنيعة، تشبه في منعتها قلاع بلادنا إن لم يكن أكثر.

لم يطل المكوث في جزيرة قبرص؛ إذ سرعان ما تركها أخي ريتشارد بضمير مرتاح؛ فالجزيرة ستكون قاعدة خلفية للحرب مع الكفار. وهكذا انطلقت السفن في اتجاه سواحل الشام تحمل معها كل شيء. كان الجنود بمعنويات عالية، ويتحدثون فيما يشبه الأساطير عمَّا سيفعلونه في الأرض المقدسة. كان أغلبهم في مقتبل العمر وأواسطه. لم يشاهدوا الأرض المقدسة من قبل، وكل ما يعرفونه هو أن المحمديين، وهم من الأترك الأجلاف المتوحشين، الوثنيين الملاحدة، قوضوا المملكة اللاتينية، واستعادوا السيطرة على قبر المسيح، وأن صلاح الدين هذا، ما هو إلا رئيس أولئك القتلة الكفار. تحدثوا عن جبن المقاتلين المسلمين، وعن ضعف حكامهم وخورهم وخيانانهم، وعن فرقتهم وتفرقهم، وعن أحقية حربهم وضرورتها، وتحدثوا عن النساء الشرقيات، وعن سحرهن، وقدراتهن التي لا تشبه قدرات نساء إنكلترة. تحدثوا عن الأساطير المفضلة التي تصل إليهم حول قصور الحريم، وعن السلطان الذي يقضي وقته كله في مجالس الشراب والنساء والطرب والأكل. كان السلطان الذي يتحدثون عنه يشبه شخصية مضحكة تماماً، بإنذهاله وغيابه وتهتكه. لم أعرف المسلمين هكذا قط، ولكن الجنود المتحفزين للقتال، كانوا يرسمون عالماً آخر للمسلمين الذي لم يشاهدوهم يوماً ما.

أمَّا أنا، فقد استسلمت لعواطفي الجياشة: ذلك أن مشاهدة الأرض التي درج عليها يسوع وتعذب وصلب، كانت من الإثارة بحيث جعلتني أنسى كل خيبات الأمل، والإهانات التي تلقيتها في باليرمو، ولما كنت على معرفة وثيقة بالمسلمين، فإنني لم أحتج لإشعال الخيال حول أوهام يتناقلها الجند المتحمسون، فالمسلمون . على الأقل . يهتمون بالنظافة والأناقة، أمَّا هؤلاء، فهم أشد الناس فظاظة؛ شعورهم طويلة وقذرة، وملابسهم تفوح منها روائح كريهة، أما أظافرهم فهي طويلة ومتسخة بشكل مقرف، وعندما يتناولون طعامهم فهم يتناولونه بطريقة تدعو إلى الرثاء، وهم لا يجيدون سوى الحرب، أمَّا العاهرات، والنساء اللواتي جلبوهن معهم في السفن، فهن مدعاة للعراك اليومي، والصراخ والسباب الذي لا ينتهي. خلال ذلك سمعت بأعجب الأخبار؛ ذلك أن

جنديين تشاجرا لسبب ما، فقال الأول للثاني إن غضبه أسرع من سقوط حزام العفة عن حوض زوجته، فجن الثاني وحاول ضرب زميله، طالباً إليه التوضيح، فقال هذا إن زوجة الأول استطاعت وضع عدة مفاتيح لحزام عفتها، وأعطت المفاتيح لعدة أشخاص في البلدة، ولكن ذلك كذب، وهو يقوله لمجرد الهزل. صدّق الجندي الأول ذلك وانتهى العراك. واستفسرت عن حزام العفة هذا، فقيل لي إنه حزام حديدي يربط إلى حوض زوجة الجندي حتّى لا تتورط في الزنا، ذلك أن الجندي يقفل هذا الحزام، ويأخذ مفتاحه حتّى يعود من حربه. دهشت لذلك أشد الدهش، وتساءلت عن معنى ذلك وجدواه، ما دامت الخيانة أكثر من مجرد الانبطاح تحت رجل! شعرت بالرثاء الحقيقي لذلك، وأحسست أن ذلك إهانة عميقة لكل شيء. عندئذ كرهت كل ما حولي، فإذا كان هؤلاء محاربين من أجل القبر المقدس، فلماذا . إذاً . لا يثقون في زوجاتهم؟! وإذا كانوا في مهمة مقدسة، فلماذا لا يثقون في شيء أبداً؟! حتّى هدفهم الأرضي الملموس في احتلال قبرص برروه بخدمة هدفهم السماوي، أحسست أنني أكثر الناس صدقاً على الأرض، وأنني الوحيدة التي واجهت أعماقها بشجاعة، تلك الشجاعة التي جعلت ريتشارد نفسه يتطامن ولا يسألني سؤالاً واحداً عمَّا فعلته، ليس لأنَّه لا يملك الحق، بل لأنني أشجع منه وأكثر جرأة، وإذا كان يفتح البلاد والقلوع والمدن، فإنني أستطيع أن أفتح فخذي كلما أريد، ووقتما أريد، ولمن أريد؛ فليس هناك من حزام عفة يلف وسطي. حزام عفة!! كان ذلك مضحكاً، ويثير الرثاء والشفقة في الوقت ذاته، وشعرت لوهلة ما أن فضائحي في باليرمو لا تقارن بحزام العفة هذا !!

والحديث هنا لا يدور عن عفة أو غير عفة، المسألة منتنة من أساسها.

زوجات الأمراء القلائل اللواتي رافقنني على السفينة حاولن التقليل من شأن الحزام، وقلن إنه استعمل في الأرياف فقط، وإن ذلك تقليد فرنسي انتقل إلى إنكلترة في أوساط الفلاحين، وسكان المدن الصغيرة، ولكن بعضهن ذكرن لي طرائف عجيبة حول ذلك، منها أن سكان إحدى القرى الصغيرة قتلوا حداد القرية حتّى لا يفتح أقفال الأحزمة، وأن النساء اللواتي تحزمن بهذا الحزام سمحن لأنفسهن بأنواع جديدة من المتع الأخرى، على آخر هذا السيل من الحكايا التي لا تنتهي.

فسألتهن فيما إذا كان مثل هذا التصرف يهين المرأة، أو أنه يشكل لها دافعاً للخيانة، فتضاحكن وأخفين وجوههن. انتبهت عندئذ أن حكاياتي في باليرمو لا تسمح لي بأن أسأل عن الخيانة. عندئذ استشطت غضباً وقلت إن المرأة حرة تماما بلحمها ودمها ومشاعرها، ولا يملك أحد أن يقرر مصيرها بدلاً عنها، حتّى لو كان البابا نفسه. ردت إحداهن بأدب جم، ولكن بوضوح وثبات أنني أذكرها بوالدي الملك هنري، فهذا هو غضبه وهذا هو تهوره أيضاً. هذه الحادثة كشفت لي عمَّا كنت لا أراه أو ألاحظه؛ ذلك أنني انتبهت إلى أن الجميع هنا، أمراء وقواداً وجنوداً وبحارة عاديين كانوا ينظرون إليَّ نظرة غريبة، هي نظرة لا تخلو من احترام ولكن فيها غير الاحترام أيضاً، حتّى نبرة

الصوت، وإن كانت تتميز بالانخفاض والرغبة في إظهار التوقير إلا أن فيها ذلك الرنين المعبر عن عواطف ورغبات وتمنيات. أحسست أن الجميع يتواطأ على سري وحكاياتي في باليرمو، وانتبهت إلى أن أخي ريتشارد الذي سمح لي بقضاء وقتي كما أريد، إنَّما كان يهدف إلى أن لا أظهر معه في اجتماعاته، أو حتّى جلساته العادية. شعرت أن الجميع يدينني دون كلام، ولكن الإدانة تظهر في كل شيء من كلامهم وتصرفاتهم، ولم يكن يمنعهم من مصارحتي، أو مطاردتي سوى أخي ريتشارد؛ فقد كانت له هيبة عظيمة على الجميع. أزعجني ذلك كله، فانزويت في قمرتي بالطابق الأسفل من السفينة ولم أعد أصعد إلى ظهر السفينة إلا بعد أن تخلو من الازدحام. اكتفيت من المسير بقراءة الكتاب المقدس إلى أن قيل إننا ندخل ميناء عكا.

كان الوقت بعد الظهر بقليل، وما إن صعدت إلى ظهر السفينة حتّى فوجئت بلظى الشمس يجلد ظهري ووجهي. أرسلت بصري باتجاه عكا، فرأيت عشرات السفن، والمراكب المحيطة بها، ورأيت أسوارها البيضاء تلوح من بعيد فوق أديم ساحر من الماء الأخضر. قيل لي إن هذه السفن والمراكب تعود للأمم المسيحية المختلفة، فقد وصل إلى عكا قبلنا الجنويون والبنادقة والبيازنة والدينماركيون والفريزيون والفلميون والصقليون والألمان والفرنسيون بالإضافة إلى سفن الملك غير دي لوزجنان . ملك المملكة اللاتينية، وسفن المركيز كونراد دي مونتفرات حاكم صور. كان منظر تلك السفن الكثيرة، بأعلامها المختلفة، وألوانها الفاقعة، وأشكالها المتنوعة، تثير الفرح والقوة والفخر. كانت الأمم المسيحية المجتمعة حول عكا . كما رأيتها . تدفع إلى الإحساس بأن النصر قريب، وفي متناول اليد.

اقتربت من سفينتنا عدة مراكب صغيرة، تبادلوا الكلام مع بحارتنا، وما أن أنهوا الحديث حتّى لوح هؤلاء بأعلامهم، فلوحت جميع السفن بالأعلام، وضربت الطبول ونفخ بالأبواق، وارتفع عجيج هائل في البحر، كان الجميع يحتفل بقدومنا، ورأيت من معي على ظهر السفينة يحدقون في المشهد، ثمَّ يركعون على أرجلهم، ويبدأون صلاة طويلة وعميقة، بعضهم بكى خلالها، وقد دهشت وأنا أرى شقيقي الملك ريتشارد يركع مع الراكعين، ويبدأ الصلاة الخاشعة التي أثرت في قلبي ومشاعري.

الأرض المقدسة أخيراً، حيث درج يسوع وكرز وبشر ثمَّ صلب. هنا السماء أقرب إلى الأرض، وهنا حدثت المعجزة. هزني المشهد حتّى أعمق أعماقي. كانت أسوار عكا البيضاء تحت أشعة الشمس أسواراً متواضعة بالمقارنة بما شاهدت من أسوار في بلادي أو في صقلية؛ الأسوار هنا قليلة الأبراج بشكل ملحوظ. لم يكن ذلك يعنيني، وقد اعتقدت تماماً الاعتقاد أن هذا الجمع المسيحي سينتصر في النهاية. انهمكت في صلاة صامتة، وما أن أنهيت ذلك حتّى وقع الصوت: سفينة محمدية.. سفينة محمدية!!

تخلص الجميع من لحظات الصفاء والخشوع. هبوا إلى أسلحتهم وأماكنهم. شعرت

بخوف شديد، وتجمدت مكاني. نظرت حيث ينظر الجميع، فرأيت سفينة كبيرة ضخمة على ظهرها عشرات الرجال، وهي . وإن كانت أصغر حجماً من سفننا، وأقل إحكاماً ومتانة . إلا أنها مجهزة جيداً من خلال ما يظهر منها ومن مقاتليها؛ فهي من طابقين، وستة أشرعة مفرودة على آخرها، ولسوء حظ من فيها فقد اختفت الريح تلك اللحظة، حاول الأمراء أن يبعدوا سفينتنا عن المواجهة، ولكن أخي ريتشارد رفض ذلك، وأصر على المواجهة، واقتراب سفينة العدو، آمراً السفن الأخرى بالالتفاف ومحاصرة السفينة الإسلامية.

وقد رأيت أمام عيني ارتباك الرجال في تلك السفينة واضطرابهم، ورأيت قوة وسرعة ضرب المجاذيف في الماء للخروج من المصيدة، ولكن هيهات؛ فقد انطلقت كرات النار من سفننا باتجاههم، وسرعان ما اشتعلت النيران في أجزاء مختلفة من السفينة، ولم يستطع الرجال إطفاء ما يحترق؛ فقد أمطروا بوابل من السهام الطويلة التي لا تخطئ الهدف عادة، سقط منهم عدة قتلى، كانوا يصيحون صيحتهم المشهورة: الله أكبر... الله أكبر. ثمَّ يسقطون.

اشتعلت النيران في الأشرعة جميعاً. تراقصت النيران في كل مكان، بينما الرجال يسقطون واحداً بعد الآخر، فيما كانت المجاذيف تخبط الماء دون جدوى. لم يستطع من في السفينة الإسلامية المقاومة، ذلك أنها كانت محاطة بالسفن من كل الجهات، وترمى بكل شيء. عندئذ تقدم أحد الأمراء الذين كانوا على ظهر سفينتنا وصاح بالإنكليزية:

. نأمركم بالاستسلام وإلا فإنكم ستموتون جميعاً.

ضحك بعض المحاربين، حتّى أخي ريتشارد تبسم بوقار

قال له أحدهم بسخرية: كيف عرفت أنهم يعرفون الإنكليزية.!

دهشنا ونحن نشاهد بحاراً عجوزاً، متين البنيان، يشد إلى رأسه عمامة صغيرة، ويكشف عن ذراعين ضخمين، ينتصب تحت شراعه المحترق ويرد علينا بإنكليزية سليمة:

. أنتم يا أولاد القحبة، من أي بلاد كنتم، ومن أي أرحام فاسقة جئتم، والله لن نستسلم لكم ولو متنا جميعاً!

دهشنا حقاً. تسرع الأمير الذي تكلم أولاً بالقول:

. ولكنكم ستموتون جميعاً. انظر حولك.

انفجر البحار العجوز، وصرخ بغضب وحنق سمعه كل من حوله:

. أنت يا ابن الفاجرة، أنت لا تعرفني، أنا يعقوب، أبو الراضي، خادم مولاي السلطان الناصر صلاح الدين، حاربتكم في كل موقع، من الأندلس وحتى أنطاكية، فهل تعتقد يا ابن الفاجرة، أن أستسلم لكم الآن؟ والله هذا لن يكون، وسترى ما ستحدث به أمك الفاجرة.

عندئذ رأينا ما عجزنا عن فهمه، وقد دهش الجميع حتّى أنهم توقفوا عن قذف النار والسهام؛ ذلك أن جميع الرجال في السفينة الإسلامية، هبوا إلى أطرافها، يهدمونها جزءاً جزءاً. وقفنا نشاهد ما يجري من جنون حقيقي، كان الرجال يدمرون سفينتهم بكفاءة وسرعة، خلعوا مقدمتها وجوانبها، فككوا العوارض والحبال والمسامير الضخمة. كانوا يفعلون ذلك وهم يرددون صيحتهم المشهورة: الله أكبر... الله أكبر! تكشفت سفينتهم عمَّا تحمل من أكياس طعام وأغنام وأبقار وأسلحة، كان من الواضح أنهم كانوا بصدد إدخالها إلى عكا. تمايلت السفينة ذات الشمال وذات اليمين، تدفقت المياه إليها من هذا الجانب وذاك الجانب. غاص أحد جوانبها في الماء، ودفعة واحدة، انقلبت ثمَّ غاصت رويداً رويداً في قلب البحر، وما انفكت الصيحة المشهورة تتردد: الله أكبر الله أكبر!

شاهدت بأم عيني الرجال وهم يغرقون ويغرغرون بصيحتهم المشهورة، ورأيت بأم عيني أكياس الطعام تطفو ثمَّ تغيض، ورأيت بأم عيني البقر والغنم وهي تجاهد من أجل الحياة. كان الرجال بالعشرات، غرغروا بصرخات الله أكبر قبل أن يذهبوا بعيداً. وبعد لحظات، لم يبق من السفينة سوى لوح خشبي هنا أو هناك.

كان ما شاهدته جنوناً حقيقياً، أدهشنا جميعاً حتّى الملك ريتشارد، وقف الجميع مشدوها أمام ما حصل. كان ذلك أول ما شاهدته في هذه البلاد المقدسة، حيث الأمور لا تدرك ولا يسبر غورها. أرض مدهشة حتّى النخاع.

لا يصدق أن يقدم عشرات الرجال على الموت بهذه البساطة لتجنب الاستسلام. تبرع كاهن بالقول: إن رب المحمديين يأمرهم بقتل أنفسهم حتّى يرضى عنهم، ويدخلوا ما يسمونه "الجنة" حيث يحصل كل من قتل نفسه على سبعين بكراً.

قال آخر وهو ما يزال تحت تأثير الدهشة: سبعون بكراً سبب وجيه ليقتل المرء نفسه.

الملك ريتشارد وحده الذي انقبض قلبه. قال: ستكون الأمور صعبة علينا أيها السادة؛ إن أمثال هؤلاء لن يغلبوا بسهولة.

في الحقيقة فإن هؤلاء المسلمين لا يفهمون، ولا يمكن التنبؤ بتصرفاتهم، حتّى أولئك الذي كانوا يقومون من بين فخذي كانوا يتمتمون بما لا أفهم، فإذ سألت، قالوا لي بما يشبه القرف أنهم يستغفرون ربهم، فأسأل: وهل يغفر لكم؟! فيردون بذلك القرف الذي أشعره بنظراتهم نحوي: إنه يغفر الذنوب جميعاً.

والحقيقة . أيضاً . أن الإسلام . هذا العدو المتشعب الرؤوس والأيدي كما عرفته من خلال وصيفاتي وخدمي والرجال الذي اتصلت بهم، لا يشبه أي دين آخر؛ فهو يتدخل في أخص الخصوصيات، وينقاد له الناس من خلال نصوص لا تقبل المناقشة. كرهت الإسلام لأنَّ لا خمر فيه، ولأن الزانيات يرجمن بالحجارة، ولأن إله الإسلام يعاقب الناس بالنار. إنه أقرب ما يكون على اليهودية التي تحاسب حسب عقلية الصيارفة وتجار

الذهب، وكرهت الإسلام لأنَّ الناس في بلادي يكرهون الإسلام والمسلمين الذين يسومون المسيحيين سوء العذاب، ويهدمون كنائسهم، وأكرههم لأنهم يعتقدون أن دينهم هو الدين الأخير، وهو الدين الأفضل بين الأديان، وأنهم يحمدون الله في صلواتهم على أنهم مسلمون.

وسعدت أن ما شاهدناه أمام أعيننا أنسى الجميع وجودي، وأن الاحتفال الكبير الذي استقبلنا به من قبل السفن الكثيرة شغلهم عن النظر إلي. كانت سفينتنا ما إن تمر بالقرب من سفينة أخرى حتّى تقوم هذه بالتلويح بالأعلام، ودق الطبول، ونفخ الأبواق الطويلة النحاسية، أو الخشبية مترافقة مع صرخات مرحبة بلغات لا أفهمها. كان المسيحيون المخلصون يحتفلون ببعضهم البعض، يفرحون أنهم يتجمعون هنا لإنقاذ قبر المسيح من براثن الكفار. كانوا يشعرون بذلك الخيط الذي يجمعهم رغم اختلاف اللغة والوجوه والأوطان . كانوا يشعرون جميعاً أنهم خدم يسوع، وأنهم يقومون بأنبل المهام، وأكثرها قدسية، وها هو ملك إنكلترة أقوى ملوك المسيحيين يأتي من بلاده البعيدة، ومعه خمس وعشرون سفينة من أكبر السفن، وأكثرها قوة وعدداً وسلاحاً، يأتي من أجل يسوع وقبره.

شعرت أن هؤلاء جميعاً، الذين لا يمتلكون لغة واحدة للتفاهم بينهم، إنَّما تجمعهم رابطة أقوى من أية رابطة أخرى، شعرت بأخوتهم وفرحهم وإحساسهم بالقرب والتقارب. وشعرت أن احتفالهم بوصولنا إنَّما هو احتفال بأنفسهم وقدرتهم على التضحية من أجل هدفهم المقدس. أعجبني ذلك جداً، وشعرت بالفخر لهذا الدين الذي يستطيع أن يجمع كل المسيحيين، ويوحدهم من أجل حرب الكفار، وانتزاع القدس منهم، شعرت بالفخر رغم كل شيء، رغم مأساتي الصغيرة التافهة التي جعلوا منها حكاية تمضغ في الأفواه. استسلمت لشعور الناس المحتفلين في البحر من أجلنا، وشربت نبيذاً بالمناسبة.

وما أن وصلنا الشاطئ من الجهة الجنوبية لعكا المحاصرة، حتّى استقبلنا الملك "غي دي لوزجنان" بقامته المديدة ووجهه العريض الذي تشعر بغبائه وقسوته وصلابته. كان يشبه البغل بهذا العظم المديد والقاسي، تذلل كثيراً لأخي، وأظهر له من الخضوع والانكسار ما جعل الجميع يستنكر ذلك التصرف، ولم ينتظر لوزجنان كثيراً حتّى قال على مسمع من الجميع إن الكونت كونراد دي مونتفرات سلب منه عرش المملكة اللاتينية بعد أن تزوج من إيزابيل شقيقة زوجة لوزجنان التي توفيت قبل عدة أشهر، وكانت الوريثة الشرعية لتاج المملكة، فلما توفيت انتقل هذا الحق لأختها إيزابيل، فاختطف هذا الحق كونراد دي مونتفرات، وهو رجل طويل صموت يعطي انطباعاً شديداً بالغموض والقسوة. وكانت لا تخفى نظرات الكراهية في عينيه لأخي ريتشارد، وبدا من اللحظة الأولى أن هناك انقساماً كبيراً بين المسيحيين المجتمعين في خيمة الملك لوزجنان، فتضاءل في قلبي هذا الإحساس بالفخر والانتشاء بالقوة؛ذلك أن حضور الملك الفرنسي فيليب أغسطس لم يحسن من فرحة اللقاء، فقد بدا هذا الملك القصير صاحب العين الجامدة

يشعر بالغيرة الشخصية من أخي، لما شاهده من تأثير له على الجميع، وعلى طريقة الاحتفال بوصوله؛ فقد أشعل الجنود المنتشرون على تل المصلبين نيرانا هائلة، وأخذوا يرقصون، ويغنون، وصاروا يمرون بالقرب من خيمة أخي، وهم يحملون أعلامه وأعلامهم. كان الخلاف حول عرش المملكة اللاتينية يقسم المسيحيين بشكل سيء، الأمر الذي دفع الملك الفرنسي على القول إنه استطاع تهدئة الخلاف بمواصلة الهجوم على معسكر صلاح الدين من جهة، ومدينة عكا من جهة أخرى، إلى حين وصول أخي للبت في مسألة العرش هذه.

دخلوا في نقاشات طويلة وصعبة، وتبادلوا الاتهامات والوشايات، كانوا يتحدثون باللاتينية التي لا أفهم منها كثيراً، وبما أنني أفهم لغة صقلية المحلية، فقد كنت انتبه إلى ما يقوله كونراد دي مونتفرات إلى مساعديه بلغتهم الوطنية، حيث يطعن بنزاهة أخي، ويتهمه بالانحياز إلى جانب الملك غي دي لوزجنان، ويطلب إليهم التشدد في الحق بتاج المملكة اللاتينية، ولم أوفر ذلك، وحتى أعطي لنفسي أهمية، فقد قلت ذلك لأخي باللغة الإنكليزية، فانفجر ريتشارد غضباً، وطلب إلى كونراد أن يؤجل هذه المسألة إلى حين الاستيلاء على عكا.

قام كونراد وبقية الأمراء، وكان من الواضح أن هناك خلافاً عميقاً بين الأطراف جميعاً، وأن تسويته لن تتم في وقت قريب.

أسباب الخلاف لم تتوقف على مسألة تاج المملكة اللاتينية، بل على التفويض الذي منحه الملوك والأمراء والقواد لأخي بقيادتهم في هذه الحرب التي قاربت السنتين، فهذا الأمر لم يرض كونراد دي مونتفرات، ولا الملك الفرنسي فيليب أغسطس، ولا الأمراء المحليين الذين يخضعون بالولاء لفرنسا، ولكن الجميع رضخ في النهاية مضطرين لا مختارين؛ فالقوة هي التي تحكم في النهاية، وكان أخي الأقوى، والأكثر استعداداً، والأكثر شهرة، والأكثر حضوراً بين الملوك حتّى بالنسبة للجنود العاديين.

نمت تلك الليلة في خيمة صغيرة، على فراش محشو بالليف له رائحة منتنة. كانت تلك المرة الأولى التي أعيش فيها مثل هذه الظروف. لم أتغلب على الرائحة الفظيعة، وما زاد الأمر سوءاً أصوات نباح الكلاب، والمشاجرات والرقص والغناء الذي لم ينته احتفالا بوصولنا. كان يقف على باب الخيمة عدة جنود مدججين؛ فقد ذكر لنا أن لصوص المسلمين يسرقون الكحل من العين، وأنهم يستطيعون سرقة ثياب الملك إذا ارادوا، وحدثنا عن قصص عجيبة عن قدرة هؤلاء اللصوص في سرقة وخطف ما يريدون من معسكر المسيحيين؛ فهم يتنكرون بأزياء الجنود والرهبان والخدم ويتكلمون لغات المسيحيين كأبنائها.

لم أستطع النوم، للرائحة والصوت والحرارة الفظيعة. خرجت من الخيمة علني أجد نسمة هواء، ولكن ذلك كان عبثاً، فلم أجد سوى النيران الهائلة التي تشتعل على التل

الذي نوجد عليه، وهو تل عريض مقوس يمتد من الجنوب إلى الشمال يحيط بمدينة عكا المحاصرة، التي بدت في هذه الليلة مجرد كتلة هائلة سوداء لا يشاهد منها سوى ذبالة ضوء هنا أو هناك. أمَّا في الشرق، وعلى التل المقابل، امتدت خيام معسكر صلاح الدين حيث المشاعل الكثيرة المتحركة، حتّى ليخيل إليك أنهم لا ينامون أبداً. العتمة والحر الشديد، وهذا التوتر الذي يكاد يلمس، جعلني أتساءل عمَّا رمى بي إلى هذه الأرض! انفجرت في داخلي فضائح باليرمو، فقلت إن هذا المكان على مفاجآته لهو أرحم من هناك. عدت إلى خيمتي وفراشي المنتن. صليت وحاولت النوم، ولكن نباح الكلاب، وأصوات الجنود السكارى لم تجعلني ألامس أهداب النوم اللطيفة إلا في الساعات الأولى للفجر، عندما سمعت مؤذن معسكر صلاح الدين، ومؤذن مدينة عكا يعلنان عن ضرورة قيام المسلمين إلى صلاة يؤدونها في عتمة الفجر.

قمت صباحاً مذهولة؛ فأصوات الانفجارات والصرخات التي تخرج من القلب، أفزعتني تماماً اندفعت إلى الخارج، فرأيت أن ما يفصلنا عن عكا خندق عميق لا يستطيع الفارس أن يقطعه، لا راكباً ولا راجلاً، ورأيت منجنيقات أخي التي أحضرها معه من بلادنا قد نصبت وراء الخندق، وبدأ يضرب أسوار عكا بشدة وكثافة، كانا منجنيقين كبيرين أطلق عليهما الجنود اسم "الجار السيء" واسم "الهر"، لما يطلقانه من حجارة ضخمة لها صوت هائل عند ارتطامها بالأسوار، ورأيت أن جزءاً من السور فوق باب المدينة الرئيسي يتداعى شيئاً فشيئاً؛ كان القتال محتدماً ذا شرر ونار، وقد بدأ الجنود يردمون الخندق بكل بشيء ممكن، بالأسلحة الصدئة وخشب المنجنيقات التالفة، والخرق والتراب حتّى بجثث القتلى، فيما تنهمر عليهم السهام والحجارة وكرات النار، لكن ذلك لم يردعهم؛ فهم يلبسون زرداً يردُّ عنهم الأذى. وبعيداً عن ذلك، وعلى مشارف التل المقابل، كان الفرسان من الجانبين يلتحمون في قتال مميت، كانت الخيول وكان الفرسان تتداخل فيما بينها، تصبح كتلة واحدة تلمع تحت الشمس، فيتعالى الغبار، ويفيض الدم، وتنطلق الصرخات في ذلك الفضاء فلا يعود من شيء ذي قيمة سوى اندفاع الدم، واندفاع الدم فقط. كانت الحرب على أشدها، ذلك لم أره ولم أشاهده طيلة عمري. سألت حراسي عن أخي ريتشارد، فقالوا لي إنه على رأس الجيش الذي يقاتل صلاح الدين وجيشه. انقبض قلبي خوفاً. جثوت على ركبتي أُصلّي، أطلب إلى الله حمايته، وعدم خذلانه.

استمرت الحرب على أشدها طيلة ذلك اليوم. سقط السور فوق باب المدينة الرئيسي وانكشف داخلها، ورأيت بعيني أن جنود المسلمين حموا السور بأجسادهم، حاولوا بناء السور، رغم القذائف الحجرية، والسهام التي تسقط عليهم كالمطر،ولم ينقذهم سوى حلول الظلام.

عاد أخي إلى خيمته بوجه آخر؛عاد مغبّراً لا يكاد يُعْرَفْ، مغطى بالدم، والجروح الصغيرة. ارتمى على كرسي خشبي طويل لا ظهر له، كانت عيناه محمرتين زبد خفيف يعلو طرفي شفتيه. بدا مريضاً أو كالمريض. مكث مدة قصيرة قبل أن يدخل حمّامه.

ولما خرج دعا الملوك والأمراء إلى خيمته، وأمرهم بعدم الاصطدام بجيش صلاح الدين، وإبلاء كل الجهد في مدينة عكا حتّى تسقط، قائلاً. أن لا فائدة من استهلاك قوة الجنود في حرب مع صلاح الدين قد تطول سنتين أخريين، بالإضافة إلى أن استرداد عكا سيمكن الأساطيل المسيحية الأخرى من الوصول. وعكا بوابة القدس. وافق الجميع بسرعة لم تكن متوقعة. تناولوا العشاء في خيمة أخي، فلما رأوا ثمار قبرص الطازجة، وفاكهة صقلية المجففة، واللحم المدخن، انقضوا على الأكل كأن لم يشاهدوه منذ زمن بعيد، وقالوا إنهم محاصرون تماماً، كما يحاصرون مدينة عكا منذ سنتين تقريباً، وذكروا أن طعامهم هو دهن الخنزير المدخن، والسمك والنبيذ، ولا شيء غير ذلك إلا ما يجود به البيازنو والجنوية إذا قدمت سفن جديدة إليهم. ولما قدم لهم أخي برميل جعة إنكليزية رأوا أن ذلك يشبه الغضب إن هذا الخلاف تافه ومضحك؛ فالقدس بيد المحمديين، وحتى تسترجع، عندها يكون للحديث معنى. في هذه الأثناء، تقربت مني إيزابيل زوجة كونراد دي مونتفرات، كانت امرأة في أواخر الثلاثينات، طويلة وبيضاء وهشة، وتتكلم بشكل خفيض، وبطيء لتعطي انطباعاً أنها ملكة. كان سلوكها مصطنعاً إلى أبعد حد، وأكثرت من اقتباسات آيات الإنجيل، والإشارة إلى قربها الشديد من شقيقتها المتوفاة سيبل، فعاملتها بالمثل؛ فأنا ملكة أيضاً، ولكني لاحظت أنها تنسج حولي شبكة من الود المصطنع حتّى أؤثر في موقف أخي من زوجها، ملك المملكة اللاتينية المدعى. خلال الحوار المصطنع بيننا، شعرت أن كل شيء تافه، وغير ذي قيمة، وتساءلت عن هذا التاج الذي يتعلق بفخذي امرأة، وتساءلت بيني وبين نفسي عن ذلك الحق الذي حصل عليه كونراد لمجرد أنه اضطجع مع هذه المرأة البيضاء الهشة ذات الصوت الخفيض. هذا الخاطر الذي ألح علي جعلني أبتسم، فاستغربت محدثتي ذلك، فسألتني عن ذلك، فقلت لها إن منظر المسلم الذي أغرق نفسه وسفينته وشتمنا قبل أن يفعل ذلك جعلني أبتسم، فقالت معقبة عن المسلمين في هذه البلاد وحوش في بعض الأحيان، وألطف من الملائكة في أحيان أخرى، وحدثتني عن العلاقة الحميمة بين الكونت ريموند الثالث حاكم طرابلس وزوجته سيبل، وبين صلاح الدين. استغربت ذلك، وسألتها عن مدى العلاقة، فأنكرت معرفتها بمداها، ولكنها غمزت في حق سيبل هذه، ووصفتها بأنها امرأة لا تتبع الإنجيل في حياتها الخاصة، ولكنها استدركت كلامها بالقول إن لكل إنسان الحق في اختيار شكل حياته ونوعها. صعد الدم إلى رأسي. ها هي تعريني بحكاياتي التي سبقتني إلى هذه البلاد. قلت بوضوح وصراحة إن حياة الإنسان هي ما يخطط له الإنسان وحده وليس الله. فاجأتها صراحتي أو وقاحتي. نظرت إلى زوجها الصامت الهادئ الغامض، فنظر إليها هذا بعيني صقر، وكان ذلك إيذاناً بانفضاض المجلس.

تغيرت وجهة الحرب؛ صارت الحرب باتجاه عكا، بالمنجنيقات وبآلات الحرب الأخرى التي لم أشاهد مثلها من قبل. استطاع الجنود ردم الخندق. تقدموا إلى الأبواب الرئيسية. سقطت أجزاء أخرى من السور. وصل بعض فرساننا إلى الأجزاء المهدمة.

صرنا نشاهد المدينة من الداخل، وجرى الحديث من حاميتها بالصلح أو الاستسلام، وفي تلك الأثناء مرض أخي الملك ريتشارد، فاضطر إلى المكوث في خيمته، واضطر إلى فتح حوار مع صلاح الدين ليكف عن مهاجمته. ذهب وفد من عندنا إلى صلاح الدين يفاوضه. عاد خالي الوفاض، فأعاد أخي الكرة مرة أخرى، وإذا بوفدٍ إسلامي يدخل خيمة أخي يحمل الثلج والفاكهة ودجاجاً مشوياً له رائحة نفاذة يسيل لها اللعاب، وكان على رأس الوفد رجل طويل أسمر، له وجه مثلث، وعيناه نفاذتان تثقبان الجسد والقلب، وشارب أسود غليظ فوق شفاه أقرب إلى الغلظ تدعو إلى انحلال المفاصل؛ كانت تقطر منه رائحة الرجال، العميقة والقوية والمسيطرة، تلك الرائحة التي تنزُّ من الاعطاف تحمل معها أطايب الأسرار، واللذات العميقة المستترة، وعندما تكلم باللغة الفرنسية صعقني تماماً. عرّف نفسه بأنه الملك العادل شقيق صلاح الدين ومستشاره. تحدث إلى أخي طويلاً، أمَّا أنا فقد تابعت عروق يديه واتساع صدره، وبزته الجلدية التي تلامس جسده. تعلقت بشفاهه الأقرب إلى الغلظ، وإلى ساقيه في سروال من الكتان البني اللون، وحذائه الجلدي الطويل، وإلى سيفه الطويل المقوس، وحزامه العريض، وخنجره الطويل المعلق فيه.

ويبدو انه انتبه إلى نظراتي، فشملني بنظرة واحدة سريعة، فارتبكت ارتباكاً ظاهراً لم يخف عنه. ابتسم وهو يقول لأخي: يبدو أن الجميلة هي أختك؛ إنها تشبهك كثيراً.

قال ريتشارد: نعم، هذه هي الملكة جوانا.

نظر إلي نظرة طويلة، ومستقرة قرأتها تماماً وقال: آه... الملكة جوانا!!

تقدمت منه عندئذ، ومددت يدي إليه وكأنني أسلم له كل شيء. تردد قبل أن يمد يده الكبيرة السمراء، وعندما احتضن يدي، شعرت بحرارته، ودفق دمه، واضطراب قلبه. انفجرت كل كوامني، وتأكدت أن كل محاولاتي للتنسك أو التزهد في البحر، أو في هذه الخيمة الحقيرة كانت مجرد كذب ليس إلا.

شعر الملك العادل بما أعاني. ترك يدي بعد أن بقي من رائحته ما يكفي لأنَّ أستعيد كل ذلك وحدي.

قال باسماً: نعم، قلت ذلك.

قلت وكأنني أرمي نفسي من عل: إذاً، زوجّني الملك العادل.

تفاجأ أخي حتّى أنه رفع رأسه عن وسادته: ماذا تقولين؟! أجننت؟!

قلت وأنا أستسلم لما بي: لا. زوجّني إياه، مقابل صلح شامل.

اتسعت عينا شقيقي ريتشارد وهو يتسمع إلي.

أضفت وقد شجعني سكوته: لقد قلت إن معنى اسمه هو الملك الذي يحب العدل، وأنا أعرض حلاً فيه عدل، زواجي مقابل صلح بيننا وبينهم، وبدلاً من هذه الحرب

المسعورة، نحل المشكلة بهذه الطريقة.

استمع أخي ريتشارد بهدوء. عاد برأسه إلى الوسادة. حدق في سقف الخيمة طويلاً.

قال: هل أنت جادة فيما تقولين؟!

قلت وأنا أرتعش: نعم. أنا جادة!!

نهض مرة أخرى. هرش رأسه. ابتسم في وجهي وقال: أنت حكيمة أكثر ممَّا توقعت، ولكن ، ماذا لو رفض الملك العادل هذا العرض؟!

قلت وأنا أقامر بآخر أمل لدي: لن يرفض. أنا متأكدة من ذلك.

قال ريتشارد: لك ذلك. نحن مجانين أبناء ملك مجنون أيضاً!!.

ألف لعنة، أعرف تماماً إشارات الهزيمة، وهي قادمة لا محالة، هزيمة ساحقة وماحقة إني أشم ريح الهزيمة عادة، واسمع خطوها كخطو بغلة جرباء، وأراها على الوجوه وعلى الأكتاف واسمعها في الكلمات والتعابير التي يتبادلها الناس.

اللعنة، لم يعد العوامون حتّى هذه اللحظة من معسكر السلطان بالرد، والحمام لم يعد يصل بسبب سهام أولاد الفاجرة الذي أحاطوا عكا من كل جهة في البر والبحر.

والأنكى والأدهى، أن الميرة تكاد تنفد ولم يعد هناك سوى عدة غرارات من قمح ليس إلا.

سيف الدين علي بن أحمد المشطوب هو الأمير الكردي الذي قبل أن يدخل عكا بدلاً من الأمير حسام الدين أبو الهيجاء. رغم الحصار، ورغم الجوع، ورغم الموت المتكاثر في المدينة قال للسلطان صلاح الدين: لا أرغب في اصطحاب "أرسل، وجاولي"، وسنقر. ولكن السلطان أصر على اصطحاب هؤلاء، قبل المشطوب ذلك على مضض، وفي الليل، ركبوا بركوساً صغيراً انطلق بهم من نقطة التقاء النهر الحلو بالبحر، ومن هناك انزلقوا فوق الموج اللامع الناعم، ودخلوا شواني العدو النائمة أو الصاخبة. كان الجميع يتخفى بزي المحاربين الإفرنسيس، لم يلحظهم أحد أو لم يشك في هويتهم أحد، ولما وصلوا برج الغربان تنفسوا الصعداء، وما أن دخل المشطوب المدينة حتّى فوجئ بما يجري داخلها، كانت المدينة مدمرة، وشوارعها مسدودة بأحجار المنجنيق والدواب النافقة وحتى الجثث، أمَّا البيمارستان فقد امتلأ بالجرحى والمرضى الذين لا يجدون علاجاً، أمَّا السلاح من السهام والسيوف والنفط فقد شارف على الإنتهاء، وفاجأه الراضي مقدم النفاطين بسؤاله عن ثلج الصين، فرد المشطوب بما يشبه الغضب أن راشد الدين سنان مجرد ابن فاجرة ليس إلا؛ فقد رفض طلب السلطان إعطاءه هذا الأكسير، ذلك أن ابن الفاجرة هذا يخشى أن ينتصر صلاح الدين على الفرنجة الملاعين، وأضاف المشطوب على طريقته في الكلام السريع والبذيء أن سنان هذا . ابن الفاجرة . مستعد لأنَّ يبيع أمه في سوق النخاسين من أجل مصلحته، ومصلحته

في إبقاء صلاح الدين محاصراً وضعيفاً ولا يستطيع الحركة في كل اتجاه. اغتَّم الراضي وظهر ذلك على وجهه، فوضع المشطوب يده على كتف الرجل وقال له بصوت مسموع ولطيف للمرة الأولى: أُعزّيك بوفاة والدك الشجاع يعقوب. لقد كان مثالاً للتضحية والشهادة والشهامة. ولأول مرة، شاهد أهل عكا، دموع الراضي تنهمر بصمت على صفحة وجهه العريضة الناصعة.

المشطوب الذي لا يحب هذه المشاهد ولا يرتاح إليها. قال وهو يهم بالقيام:

.كان والدك شجاعاً طيلة عمره، رجلاً طيلة عمره. ومات كذلك.

لم يرد الراضي، بل استذكر اللحظات العصيبة التي رأى فيها والده محاصراً بشواني العدو، ويقذف بالسهام وبالنار، وكيف أغرق نفسه وعشرات البحارة معه، وكيف أن العدو المخذول التقط بعض الناجين ومثّل بهم وقذفهم بالقرب من برج الذبان ليحدثوا بما رأوا، كان ذلك أكثر ممَّا يتوقع من يعقوب، البحار الذي عاش فوق الموج أيام عمره، ومات فوق الموج إلى آخر لحظة في حياته. يعقوب لم يكن يحب صلاح الدين، فما الذي جرى تماماً. الراضي، الذي تحول إلى بطل حقيقي في عكا بعد استشهاد والده، كان ينتظر عودة والده ليتزوج من فاطمة ابنة أحد الصوفية الموجودين في دار الأسقف، التي وقفها صلاح الدين على الصوفية منذ اللحظة الأولى التي حرر فيها عكا قبل ثلاثة سنوات، ومن ثمَّ صار بيمارستاناً لبعده عن مرمى الحجارة.

استشهد الوالد واستشهد الصوفي أثناء صلاة الفجر بحجر منجنيق هائل سحقه تماماً، أمَّا فاطمة فقد اضطرت للعمل ممرضة في البيمارستان لقلة الأطباء والممرضين، وقد تعلمت بسرعة كيف تنظف الجراح وتضمدها، ومتى تقدم الأدوية المتاحة في مواعيدها إلى المرضى. ولم يبق بينها وبين الراضي سوى النظرات والإشارات والحرقة الجارفة.

وعندما التقى المشطوب بالأمير بهاء الدين قراقوش، تعانقا بقوة، رغم أن كليهما لا يحب إظهار العواطف أو الضعف، ولكنهما لم يشاهدا بعضهما البعض منذ أكثر من سبع سنوات كاملة. فقد ظل قراقوش في مصر، فيما عاد المشطوب على الشام وتولى بيروت وصيدا، وهاهما يلتقيان في مدينة محاصرة مهددة بكل الاحتمالات.

المشطوب وقراقوش، كلاهما من القوات الأسدية التي ألفها أسد الدين شيركوه، وقد عاشا شطراً كبيراً من حياتهما في ذات الخيمة، يتقاسمان ذات اللقمة ويصارعان ذات العدو، وقد ظل بينهما ذلك الود الصامت الذي لا يعبر عنه بالكلمات، ولما صار الأمر إلى صلاح الدين، لم يشعر المشطوب بأية غيرة لقرب قراقوش من السيد الجديد ولم يشعر أن قراقوش يتقدم عليه بالمناصب، ولم يغضب أيضاً للولاء الشديد الذي أظهره قراقوش من السيد الجديد ولم يشعر أن قراقوش يتقدم عليه بالمناصب، ولم يغضب أيضاً للولاء الشديد الذي أظهره قراقوش لصلاح الدين ناسياً بذلك أسد الدين وسيده الجليل نور

الدين.

الود الصامت وربما الأعجاب الخفي الذي يكنه كل واحد منهما الآخر هو الذي جعلهما يختاران ذات الاختيار. الهدوء الخارق لقراقوش مقابل الغضب الجارف للمشطوب جعل منهما قطبين يتجاذبان المودة والألفة والاتفاق.

ولهذا لما اجتمعا يتدارسان وضع المدينة، كان من الواضح أن لا شيء كثير يمكن فعله سوى الصمود والصمود فقط.

قال قراقوش بهدوئه وصوته الواثق: تتهدم الأسوار بأسرع ممَّا نبنيها، والسلاح في تناقص مستمر، أمَّا معنويات الرجال فهي في مد وجزر.

قال المشطوب: ماذا تريد إذاً؟

رد هذا: لا شيء سوى أن يتقدم السلطان ويفك الحصار عنا. أمَّا نحن فلا نملك سوى أن نصمد.

قال المشطوب وغضبه يتعالى: هل من فائدة للصمود؟

. دائماً للصمود فائدة.

قام الرجلان لتفقد الأسوار، فوق باب البلد من الناحية الشرقية متهدم تماماً في بعض أجزائه، يوشك على الانهيار في بعض أجزائه الأخرى، أمَّا برج الداوية فقد انهارت جميع الباشورات فيه، ورأى المشطوب رجالا يحاولون رفع الأحجار لسد ثغرة كبيرة في إحدى جهاته، ولكن عملهم بدا دون فائدة إطلاقاً، ذلك أن المنجنيقات السبعة التي نصبها ملك الانكتار كانت ظاهرة تماماً وراء الخندق الذي صار أضيق وأقل عمقاً، وكان يبدو للعيان بشكل جلي ما فعله الفرنجة، من فنون حرب لم تشاهد من قبل، كهذا السلم الذي يتحرك على عجلات ويصعد إلى أعلى، وهذا البرج المؤلف من حديد ونحاس وخشب وجلود ويخفي تحته الرجال والمقاتلة، وهذا القضيب الضخم المركب على دبابة من حديد ويدور على نفسه فيحفر في السور كأنه يحفر قطعة من الجبن، كان الفرنجة قد استعدوا هذه المرة استعداداً لم يشاهده المشطوب أو يسمع به من قبل، منذ أن حل الفرنجة في هذه الديار منذ ما يقرب من مئة عام كاملة، أولاد... ماذا يريدون من بلادنا؟

أولا القحبة، ما الذي يجمعهم ويوحد بينهم؟

ولد المشطوب في الموصل، أيام كان عماد الدين زنكي قدس الله روحه يحاول أن يجعل من الموصل قاعدة لدولته، يقاتل كل الناس من أجل ذلك. قاتل الخليفة المسترشد وأمراء المسلمين الخونة من الأراتقة وغيرهم. وقاتل الصليبيين حتّى استرد الرها، قاتل زنكي كل شيء بقسوة وغلظة تركية لا مثيل لها، حتّى قتله أحد خصيانه بدسيسة من أعدائه الكثر وقيل يومها أن أحد الحشاشين هو الذي قتله، المشطوب ولد في تلك الظروف، حيث الحرب، والحرب وحدها هي ثقافة الناس وطعام الناس وشراب الناس،

رأى المشطوب الأمراء يصبحون جثثاً ترمى على قارعة الطريق، ورأى المدن تحرق وتدمر وتتحول إلى خرائب ليس إلا، ورأى الأسرى تباع وتشترى بأبخس الأثمان، ورأى المبادئ تتحول إلى مطامع وهوى وأغراض، ورأى أن الإنسان لا قيمة له في نهاية الأمر ما لم يمنح هذا الإنسان نفسه هذه القيمة وهذا المعنى، يدعي المشطوب أنه رأى ما يكفي من ألم الناس ومصائر الناس، بدايات الدول ونهاياتها، ورأى كيف أن الفرنجة الملاعين، المخذولين، يتحولون إلى أبناء البلد يتم التعامل معهم وكأنهم جزء من الأهلين. رأى كيف يذهب الحاكم المسلم يطلب النصرة من الحاكم المسيحي، وكيف يقاتل الحاكم المسلم إلى جانب الحاكم المسيحي.

المشطوب الذي رأى ما رأى، آمن بأن القوة والاحتشاد لها وانتهاجها هي الطريقة المثلى للتعامل مع الفرنجة، بكل أنواعهم ومللهم وسحنهم وأصولهم. المشطوب، كان يكره الفرنجة كراهية عميقة لا قرار لها، كرههم محاربا، وكرههم لكل شيء آخر ولكل سبب آخر، كره قوادهم ومحاربيهم ونسائهم وطريقة قتالهم وقلاعهم وآلات حربهم ولهجاتهم وملابسهم، وكان لا يطيق الروائح التي تنبعث من أفواههم وملابسهم وأجسادهم، وكره فيهم صلفهم وغرورهم وادعاءهم حب المسيح، وكره فيهم هذه الوحشية التي لا تبرير لها في تدمير المدن والقرى والمزارع وتشريد الناس وقتلهم، كره فيهم جلدهم على القتال وإدارة الحرب والسياسة. ولهذا لم يكن المشطوب بقادر على تحديد مشاعره من صلاح الدين، فهذا الأخير من ناحية، يجالد الفرنجة في كل المواقع، ومن ناحية أخرى، فإنه يعاملهم معاملة لينة رخوة تغري به وتصوره أمامهم بالمتردد. لم يكن المشطوب يفهم سر ليونة صلاح الدين أمام الفرنجة، تدحرجت إشاعات هنا وهناك، قيلت كلمة هنا وهناك، ولكن . والحق يقال . فإن صلاح الدين رجل فوق كل الشائعات وكل الأقاويل. فالمشطوب الذي عرف صلاح الدين في شبابه وكهولته، حيث درجا في بلاط نور الدين، وتلقيا فنون الحرب في ذات المدرسة، وتسلما المناصب في ذات الجيش، يعرف تمام المعرفة أن صلاح الدين ما كان له ولا ينبغي أن يتراخى في حرب الفرنجة أبداً، وهو رجل سياسة وحرب، أمَّا رخاوته وتردده فهو ما يحير في شخصية الرجل.

المشطوب الذي سمى بهذا الاسم لم يظهر في وجهه من شطب عميق يجعل من وجه وجهين، حيث يشطر الشطب وجهه من أعلى الجبين وحتى أسفل الذقن، الأمر الذي باعد بين عينيه وحطم أنفه وأرخى شفتيه فيصعب عليه الكلام بوضوح، المشطوب هذا، كان يعتقد أن حصار عكا ما كان ليكون بهذا الوضع من التعقيد والإحساس العارم بالهزيمة لولا تردد صلاح الدين ورخاوته في التعامل مع مدينة صور التي التجأ إليها كل إفرنجي فرّ من بيت المقدس والقلاع والأخرى.

كان المشطوب أيامها والي بيروت، تلك المدينة الصغيرة المعلقة على الجبال، التي انحدرت إلى البحر رغماً عنها، فقد أقام التجار قياسرهم بسرعة من اللبن الأبيض والرمادي لتكون قريبة من البحر، أمَّا الفرنجة فقد وسعوا تلك القياسر وأضافوا عليها،

حتّى صارت بيروت تواجه البحر تماماً، بل وتعانقه، بعد أن وسع الفرنجة ميناءها بما يحتمل كل أنواع المراكب البحرية والتجارية، ولكنه ظل ميناءً صغيراً لا يشبه ميناء عكا الكبير أو ميناء عسقلان الذي اهتم به خلفاء دولة الفاطميين.

المشطوب الذي ولي بيروت رأى بأم عينه كيف صارت صور محجة الفرنجة وقلعتهم الأخيرة بعد فتح بيت المقدس، ورأى بأم عينه كيف استطاع هذا الفاجر الكندهري أن يجعل منها مدينة لا تطال، وهي أصلاً لا تطال، فثلاثة أرباعها في البحر وربعها الباقي على صخرة، الكندهري الذي وصلها غاضباً محتقناً بالحقد والكراهية والتصميم، طلب من أولئك الذين يقيمون في ربع المدينة الصخري أن ينتقلوا إلى قسمها المائي. ثمَّ ملأ المسافة ما بين البر والبحر بالسلاسل الحديدية والصخور الكبيرة حتّى لا يستطيع أي مركب مهما كان أن يصل إلى المدينة، ولم يكتف الفاجر بهذا، بل حفر خندقاً عميقاً بعد ذلك كله تحت الصخرة التي تقوم عليها البلد، ولما أرسل المشطوب جواسيسه إلى المدينة بهيئة تجار أقمشة وتوابل وخضار، حدث هؤلاء بأن الفاجر هدد سكان المدينة بعدم الاستسلام أو الهرب أو الهرب أو حتّى مجرد التذمر، وأقنعهم أن ملوك الغرب كلهم، عن بكرة أبيهم، سيأتون قبل صيف العام المقبل، لقتل صلاح الدين وبيعه رقيقاً في روما ومن ثمَّ استعاد القبر المقدس، وأضافوا أن الفاجر جمع لديه كل الميرة وصار يوزعها على الناس بتدبير مخصوص استعداداً لحصار طويل، طويل.

المشطوب، الرجل الطويل الجهم، ذو البطن العريضة والأكتاف العالية والوجه المخيف، الذي كان ثقيلاً إلى درجة أنه يغير حصانين أو ثلاثة في يوم الحرب، أرسل رسائل عديدة إلى صلاح الدين يدعوه فيها أن يهاجم صور قبل أن تستعصي وتستغلق وتتحول إلى عكا جديدة ولكن صلاح الدين تأخر في الرد، ولما قدم على صور كان الوقت متأخراً. فقد كان الكندهري الفاجر قد استعد أيما استعداد، ولم يستطع صلاح الدين أن يؤثر في أسوار المدينة أو المحاصرين فيها، حتّى أن صلاح الدين حاول أن يلين موقف الكندهري اللعين بمساومته بإطلاق والده الملك الأسير لدى السلطان في دمشق ولكن الكندهري اللعين أجاب بالقول أن والده عاش ما يكفي ولا يهمه إن مات أو قتل أو بقي أسيراً، وقال الكندهري اللعين أيضاً أنه لن يسلم صور أبدا فهي أمانة بيديه حتّى مجيء ملوك الغرب الذين سينقذون قبر المسيح من أيدي الكفرة المحمديين. اللعين ابن اللعين، له قلب سلحفاة منتنة، وجلد نملة سوداء وعمى صرصار الخراء.

ولما تنازل صلاح الدين عن صور، لاستغلاقها وملل الأمراء من حوله وكثرة لغطهم وخلافاتهم، أوجس المشطوب في قلبه خيفة، فقد التقط له جواسيسه في بيروت بعض التجار من بيزة ومن جنوة، حيث التقى بهم وأطمعهم بتخفيف الضرائب عنهم إن هم صدقوه القول فيما يجري وراء البحر.

كان أحدهم يدعى ماريو، تاجر الملح المعروف، صاحب السفينة الأكبر في

الأسطول الجنوي، القصير المكور، صاحب الوجه الأبيض المحمر والإلية الضخمة المضحك، أمَّا الآخر فقد كان يدعى روبيرتو، تاجر الحديد من بيزة, وهو رجل طويل أسمر له لحية قصيرة، يبدو جليلاً بذلك المعطف الطويل الذي لا أكمام له، وذلك الحزام الجلدي العريض الذي يلف خصره الضامر.

كان المشطوب واضحاً وحازماً في قوله: لكما أن اخفض ما تدفعانه من مكوس إذا ما صدقتماني القول.

أسرع ماريو إلى القول بلغة عربية ركيكة: نحن نشكر لك ذلك، ولكن ماذا تريد أن تعرف أيها الأمير؟

قال المشطوب وهو يتأمل التاجر، كارهاً هيئته ونبرة صوته: حدثاني عمَّا يجري في بلادكم، هل صحيح أنكم تستعدون للحرب؟!

تبادل التاجران النظرات، ترددا، حركا رأسيهما ذات اليمين وذات الشمال.

صاح المشطوب في سماء الحجرة الرئيسية في قصره المتواضع على رأس تلة تطل على بيروت كلها: ماذا قلتما؟!

قال ماريو بصوت متردد: وهل أنت جاد في ما ذكرته عن تخفيض المكوس؟!

قال المشطوب، بما يشبه الغضب: نحن لا نتراجع عمَّا نقول.

قال ماريو: إنهم يستعدون للحرب فعلاً!!

قال المشطوب: أفصح. قل كيف ذلك؟!

تدخل روبيرتو عندئذ وقال بعربية أفضل من لغة صاحبه، نعم، تركناهم يستعدون لحربكم، منذ اللحظة التي استولى فيها الملك صلاح الدين على القدس وحتى هذه اللحظة، وبلاد كل المسيحيين تستعد لحربكم.

أضاف ماريو بسرعة: إن كل كاهن مهما صغر شأنه في أبعد كنيسة مهما صغرت في بلاد المسيحيين يدعو إلى حربكم لإنقاذ قبر المسيح بين أيديكم.

قال روبيرتو: والناس هناك يتبرعون بكل ما يملكون ليمولوا الحرب.

تدخل ماريو: أو قل إن الملوك والأمراء فرضوا ضريبة على الناس ليمولوا الحرب.

سأل المشطوب: ضريبة!!

قال ماريو: نعم، هي ضريبة، تؤخذ غصباً من الناس الفقراء والأغنياء، ومن لا يملك يضطر إلى تقديم كمية من الدقيق أو الزيت أو الدجاج أو ما يمكن له أن يفيد الجيش الذاهب لتحرير قبر المسيح.

سأل المشطوب: وأنتم، أنتم التجار. ما رأيكم؟!

قال روبيرتو: ماذا تقصد أيها الأمير؟!

قال المشطوب: كيف ترون الحرب؟! هل تمولونها أيضاً؟!

قال ماريو: أنت تعرف أيها الأمير أننا في عكا نملك حياً كبيراً، فيه مخازننا وفنادقنا وكنائسنا، وكنا ندفع ضرائب أقل، وكنا نحصل على البضائع بسعر أقل، أمَّا الآن؛ وقد احتلها الملك صلاح الدين فقد ضاع كل ذلك.

قال روبيرتو: وكما ترى أيها الأمير فإن الحرب عليكم ستعود بالنفع على تجارنا.

قال المشطوب بما يشبه السخرية: وقبر المسيح، هل يهمكم؟!

قال روبيرتو: بما يشبه الابتسامة: إذا كان ذلك يعود بالنفع علينا أيها الأمير.

قال المشطوب فجأة فقال: ومن هو هذا الكندهري، أقصد هذا الذي يسمى كونراد دي مونتفرات بلغتكم؟!

قال ماريو: ألا تعرفه حقاً أيها الأمير؟!

انتبه المشطوب إلى قصده الخفي: أعرفه حق المعرفة، فوالده هو الملك وليم، الأسير لدينا منذ معركة حطين...

أضاف ماريو: وهو شقيق الملكة سيبيل زوجة الملك جاي لوزجنان ملك بيت المقدس..

ضحك المشطوب لأول مرة: هذا الملك الذي يشبه الحمار، نعم أعرفه، نحن نسميه الملك العتيق لأنَّ مولانا السلطان أطلقه لقاء أن لا يقاتله أبداً.

قال ماريو: ولكنه سيقاتله أيها الأمير.

قال المشطوب بلا مبالاة: كعادة الفرنجة، لا عهد لهم.. ولكن هذا ليس موضوع الكلام، حدثني عن هذا الكندهري.

قال ماريو: كل ما أعرفه أنه كان يعمل في بلاط الملك البيزنطي إسحق الثاني انجيلوس، كسفير أو ممثل لوالده في بلاد بيزنطة، فلما علم أن الملك صلاح الدين يحاصر عكا، طلب من الملك البيزنطي أن يسمح له بالتوجه إلى عكا لمساعدة المسيحيين فيها، ولكنه لم يستطع الوصول إليها فتوجه إلى صور، وهو ما يزال فيها.

المشطوب، الرجل الغاضب، المحتقن والمهيأ دائماً كان يكره الكندهري كراهية عميقة لا قرار لها ، وقد ندم وسيظل نادماً طيلة حياته أنه لم يستطع أن يظفر بهذا الكندهري اللعين يوم جاء إلى عكا من جهة البحر، يومها، كان الملك "الأفضل" ابن السلطان صلاح الدين منتشياً بالنصر بعد أن فتح عكا، ثلاثة أيام انقضت بسرعة، قيل بعدها أن سفن الكندهري تقترب من أسوار عكا، طلب المشطوب من الملك الأفضل أن يأمر السفن بملاحقة الكندهري في البحر، ولكن "الأفضل" تباطأ في الأمر، ربَّما رفض أن ينصاع لنصيحة المشطوب، وربما كانت تلك من الحالات النادرة التي يسترخي فيها المحارب ويطمئن إلى نصره، نجا الكندهري بسفنه بعد أن رأى أن عكا أصبحت بيد

المسلمين، فيما أكل المشطوب يديه ندماً، هناك فرص نادرة في الحرب لا تتكرر، وهناك لحظات في الحرب لها قيمة كقيمة الحياة تماماً.

كان المشطوب الذي ذاع صيته كفارس لا يشق له غبار، صبراً على المواجهة وشجاعة في شق الصفوف، قد سمع أن هذا الكندهري . ابن الملوك . فارس متدين، شديد التدين، شديد البنيان، له جلد عظيم على القتال، وله رأي ومكيدة في الحرب والنزال، وأنه يكره المسلمين ولهذا فهو يطلق عليهم تفاهات مثل أنهم يغسلون مؤخراتهم بالماء بأيديهم، وأنهم يرفعون مؤخراتهم في الهواء عند صلاتهم، وأن هناك علاقة بين الأمرين، وأن المسلمين لا يشربون الخمرة خوفاً من الفسق الذي يمنعهم من الصلاة، فمن يفسق عند المسلمين لا يستطيع أن يصلي . وكانت هذه من اللمع التي كانت تضحك الفرنجة عموماً . فقد رأوا ذلك عجبا وأيما عجب. فالصلاة لديهم تتم في كل الحالات وفي كل المواقع دون ارتباط ذلك الفسق أو غيره، وقد رأى الفرنجة ذلك نوعا من الرفعة الروحية التي يتميزون بها عن المسلمين. الفسق في نهاية الأمر يجب أن لا يحول بين المرء وصلاته... يقولون ذلك ويستعجبون.

ولكن المشطوب الغاضب والمتهيأ دائماً لم تكن تشغله تلك التفاهات ولم يكن معنياً بالرد على مسائل الفسق. هذه، بقدر رغبته العميقة في الاشتباك مع . ابن اللئيمة . هذا، فقد انطلقت إشاعة كالنار بين مقاتلة المسلمين أن الكندهري له سطوة عجيبة، وإن مجرد نزوله إلى ساحة المعركة يغير ميزانها، ولمس المشطوب رعب هذه الإشاعة، سمع بأذنيه ما يتناقله مقاتلة المسلمين حول ابن الملوك هذا، عن طوله وقوة ذراعه وطول سيفه ودرعه، وخوذته المربعة، وعن زهده وتدينه، حتّى عن هذا تكلموا. وتكلموا عن رعايته للحجاج المسيحيين ولفقرائهم ومرضاهم. ذهل المشطوب وهو يرى عدوه يكبر ويكبر تحت سمعه وبصره، وعجب كيف يتحول العدو إلى ما يشبه المقدس المهاب، عجب كيف يصبح من نخاف منه ونخشاه إلى شخص يتميز بشيء من القدسية والبعد والعلو. جن جنون المشطوب حقاً، فاستدعى إليه مصوراً أرمنياً حاذقاً يعمل في بيع النقد بالنقد، واتفق معه على أن يدخل مدينة صور حاملاً معه مبلغاً مغرياً من الدنانير الفاطمية يدعي رغبته في بيعها بالدنانير الافرنجية من البيزنت والفلورين أو حتّى تلك الدنانير الرخيصة التي تسمى الدنانير الصورية . وهي نقود يكرهها المشطوب ولم يتعامل بها أبدا، لأنها تحمل شعار المحاربين الفرنجة، كان طلب المشطوب على فعله هذا، ربَّما تسرع، ولكنه كان تحت ما هو أكبر من التسرع والندم، كان يريد أن يتعرف على عدوه الذي طارت شهرته بين تلك النواحي حتّى بين معسكر المسلمين.

ربَّما كان المشطوب يرغب بشهرة مثل تلك، ربَّما رغب أن يحطم تلك الشهرة ليتملكها. هناك غيرة بين المقاتلين وهناك تنافس بين المتحاربين.

المشطوب الذي عرف أن اسم المشطوب قد التصق به، وأن الناس تدعوه بهذا

الاسم في مجالسهم الخاصة، لم ينزعج، ولم يتضايق، بل ربَّما يمكن القول أنه قد انتزع هذا الاسم الشهير انتزاعاً، كان ذلك الاسم جزء من شجاعته أو ثمرة لها، ولكن هذا الاسم لا يكفي، ليس فيه تلك المسحة من الغموض والعلو الذي لهذا الفاجر ابن الفاجر، الكندهري.

المشطوب، الرجل الضخم، ذو الأكتاف العالية والبطن العريضة، واليدان الكبيرتان، عندما رأى أن الكندهري لم يستسلم أمام صلاح الدين في صور، جن جنونه، فقد اتسعت شهرة هذا الفاجر، وحدث مقاتلة المسلمين أنفسهم عن شدة الكندهري الذي رفض أن يبادل المدينة بأبيه الملك الأسير.

كم تمنى المشطوب يومها أن يتحول إلى عقاب من الحكايا ليطير إلى صور ويخطف ابن الفاجر هذا. إنه يعرفه الآن من بين كل البشر. فقد عاد المصور الأرمني ومعه رقاع كثيرة صور عليها الكندهري قاعداً، وقائماً، وراكباً، وماشياً، صامتاً ومتكلماً.

إنه الآن بين يدي المشطوب، بوجهه الصموت الغامض الحاد ولحيته المدببة القاسية وعينيه الغائرتين القويتين وفمه القاسي الذي لا تبين مع قسوته شفاهه.

كان رجلاً يشبه الحجر في قسوته وصلادته وحياديته.

الكراهية العميقة هذه دفعت بالمشطوب إلى التساؤل عن حكمة الله في الإغداق على الكافر كل هذه الصلابة والمنعة والجلد والمثابرة، ولم يكن المشطوب ممَّن يتوقف ليتساءل عن أسئلة عويصة كأولئك المتصوفة أو المتفلسفة، ولكن الكراهية العميقة لهذا الفاجر دفعت بالمشطوب حقاً إلى أن يسأل عن تلك الإرادة الإلهية العصية على الفهم التي تمنح الكفار كل هذا الجلد وكل هذا الثبات لتحمل المشاق وتجشم الصعاب مع كل هذا التدبير والكيد والثقة.

والكراهية العميقة أيضاً هي التي دفعت بالمشطوب إلى الطلب من السلطان صلاح الدين أن يعفيه من تولي بيروت للمشاركة في حصار الفرنجة حول عكا، حتّى تتسنى له الفرصة لأن يلحق بالكندهري الذي انحدر هو الآخر من صور إلى عكا عندما وصل ملوك الغرب إليها. وقد وافق السلطان على طلب المشطوب بسرعة عجب لها المشطوب نفسه.

وهناك، على تلك التلال الواطئة المعشوشبة، المطلة على ذلك المرج الفسيح الفاصل ما بين تل كيسان وتل المصلبين حيث الفرنجة وجموعهم وإعلامهم ومن ورائهم شانياتهم في البحر، شد المشطوب الهواء إلى صدره، عرف مرة أخرى أنه قريب كل القرب من الكندهري، هناك، إلى اليمين منه معسكر الملك العتيق وزوجته سيبل شقيقة الكندهري، وهناك إلى اليسار قريباً من البحر معسكر الكندهري ومن معه من الداوية والهسبتالية الملاعين وتجار المدن الإيطالية، رأى المشطوب بعينه المجردة محاولات الملك العتيق لتغيير مجرى النهر حتّى يحرم أهل عكا الماء، وكانت تلك نصيحة

الكندهري اللعين، فالملك العتيق لا يتمتع ببعد النظر والحكمة.

المشطوب المحتقن والمهيأ دائماً، استدعى إليه عمر الزين، متولي العيون والجواسيس وطلب إليه أن يوافيه بحركات وسكنات الكندهري، دافعاً إليه صور الرجل التي صنعها ذلك الأرمني. عمر الزين الذي له من العيون والجواسيس الكثير، من الرجال والنساء والأطفال والتجار والأطباء والباطنية والمتصوفة، والفرنجة، والعرب، والكرد، والترك، وعد خيراً، قائلاً بلهجته الواطئة والغامضة معاً: ستسمع ما يسرك قريباً.

وفوجئ المشطوب بوصول أخيه "الجناح" من مصر قادماً مع المعسكر المصري، قبل هجوم الشتاء من سنة الحصار الأولى. تعانق الشقيقان بقوة شوق ولهفة حقيقية، غص الجناح وهو يحدق بوجه أخيه: ما أجمل وجهك يا أخي!!

قال المشطوب بصوت عال ليتجاوز ما ألم به: هذا وسام نرجو من الله أن يحتسبه لنا.

قال ذلك وذكرى الكندهري تهب على قلبه، أمَّا أخوه الجناح الفارس المشهود له بالوقائع فقد أحس شفقة عميقة في قلبه لما حل بوجه شقيقه، فقد كان وجهاً مخيفاً حقاً، بهذا الجمود في العين، والشرم العميق في الشفتين، والتدمير الكبير الذي لحق بما يوحي به الوجه الآدمي من التعبير. كان وجه أخيه بلا تعبير أبدا، كان صفحة من الجلد الأسمر المحروق فيه ثقوب لا يرى بعدها إلا الرعب أو القسوة أو كليهما. هذا هو المشطوب، رجل قد من لهاث الغضب وشواظ النار.

لم يتحدث الشقيقان عن الأولاد أو عن الزوجات أو عن الضياع، المحاربون أمثالهما، القواد أمثالهما، الفرسان أمثالهما، الذين يحاربون مع صلاح الدين أمثالهما، تحدثا عن الفرنجة الملاعين، عن ملوك الغرب القادمين، عن دولة الفاطميين التي دالت، عن الخيانات والمؤامرات التي حصلت، عن مطامع الأمراء الأقربين من صلاح الدين، الذي لا مثيل له ولا نظير، عن شدته وتدينه وليونته، عن هذا الرجل الذي يجمع بين السيف والندى، تحركت دواخل المشطوب مرة أخرى، كم يرغب بحكاية خاصة به، وكم يرغب بمثل هذا الكلام عنه يجمعه من غبار المعارك وظهور الخيل وصفائح السيوف، لا أحد هنا يفهم الشعر، الأكراد لا يفهمون بشعر العرب، والعرب لا يقولون شعراً في الأكراد.

اللعنة على الشعر، ما أجمله، من قال أن الأكراد لا يحبون الشعر؟!

لكل عصر دولة ورجال، ولكل لغته ومفرداته وأهواؤه ومزاجه، وكان المشطوب يعيش في عصره حرب وقتال. في ذلك العصر الذي صار البحر يقذف فيه كل يوم جنساً جديداً من أجناس المسيحيين في الغرب، كل ولباسه، كل ورائحته الزنخة الزهمة، كل وشعاره. في ذلك العصر، ولد المشطوب، تعلم الحرب منذ نعومة أظفاره في قلعة عظيمة تقوم على جبل ضارب في السماء يكاد يبلغ السحاب، منذ نعومة أظفاره أطل

المشطوب على الدنيا من شقوق تلك القلعة، منذ أيامه الأولى، أشرف على الوديان العميقة والسحيقة، وقمم الجبال الأخرى الأقل ارتفاعاً من جبل قلعته، ومنذ أيامه الأولى، كان يحب القمم ويكره الوديان العميقة السحيقة، وحتى مماته، سيظل المشطوب معلقاً بين القمم والوديان، وسيظل يذكر الشمس وهي تتخلل القمم وتحيلها إلى فضة منثورة على الكون، فيما تجعل الوديان أكثر وحشة وأشد غموضاً.

في تلك القلعة البعيدة المعلقة على قمة جبل قريب من حلب، تعلم المشطوب الحرب، وتعلم الألم واكتوى بالحرقة، فقد هجمت الباطنية على تلك القلعة، حاصرتها مدة شهرين، ثمَّ اقتحمتها بالنار والحديد، ذبحت الناس وهدمت الجدران وأخذت من أخذت سبايا وأسرى، أمه التي لا يتذكر منها سوى جدائلها الطويلة، كانت إحدى السبايا التي اختفت حتّى هذه اللحظة، ضاعت أمه في لحظة من لحظات الغفلة، ضاعت إلى الأبد، وليس من شيء منها في الخاطر سوى جدائل طويلة كانت تفردها أمام نافذة ضيقة تدخل منها أشعة الشمس، فتصبح كائناً آخر. حتّى هذه اللحظة، وعندما يحدق المشطوب بالشمس فإنه يتذكر أمرين لا ثالث لهما: أمه ذات الجدائل وقمم الجبال التي تشبه نثار الفضة. وهي ذكرى تجر معها الإحساس الساحق بفجيعة تحيق بالقلب تماماً. والمشطوب يعترف بأنه لم يفرح يوماً، لم يشعر بالسعادة الحقيقية التي تأخذ مجامع القلب وتلابيب الجسد. لا فرح أيام الحرب، ولا سعادة والعدو حواليك، يسد المنافذ ويضيق الأفق. اكتشف المشطوب في شبابه أن الفرنجة يشيدون القلاع على أكتاف الطرق وعلى رؤوس الجبال ويحتلون الحواضر والمدن ويمنعون الناس من السفر والتجارة، فضلاً عن قتلهم والكيد لهم والإيقاع بهم. اكتشف المشطوب أن بقاء الفرنجة في البلاد يعني تخريبها ودمارها وضياع هيبتها، وأدرك المشطوب أن الفرنجة . ورغم ما يقولون عن تدينهم وورعهم . هم في نهاية الأمر تجار ماهرون وزراع ماهرون وصناع ماهرون أيضاً، فقد زرعوا قصب السكر على طول الساحل الشامي واستخرجوا منه السكر، وزرعوا الكرمة واستخرجوا منها النبيذ الذي يبيعونه للمسلمين أيضا، وزرعوا الرمان والسفرجل وكذلك ورد الأكاسية والقرنفل والريحان. وصنعوا الحرير الذي يشابه حرير الفسطاط وحرير بغداد. جاء الفرنجة ليستوطنوا هذه البلاد، لا ليخرجوا منها، هنا يتوالدون وهنا يدفنون موتاهم أيضاً، وهم يعتقدون أنهم الأحق بهذه البلاد وأنهم الأقدر على تعميرها. ولهم فيها إمارات وممالك، ولهم لغاتهم ونقودهم وأعلامهم وقلاعهم وجيوشهم وعلماؤهم ورهبانهم وصلبانهم، وبطول المدة فقد صار لهم أصدقاء وأعداء، وصار لهم معاهدات مع هذا الأمير المسلم أو مع ذلك.

المشطوب الذي نجا وأخوه من السبي، ساقه القدر إلى بعلبك أيام كان أيوب والد السلطان صلاح الدين والياً عليها، وهناك التقطه أيوب وألحقه في خدمته، معجباً ببنيانه الشديد وبملامح النباهة في وجهه المديد، وفي بعلبك وعلى خرائب آثار الأمم السابقة المهولة، عرف صلاح الدين الذي كان يومها يعرف باسمه المجرد يوسف. جمع بينهما

الأصل الواحد واللغة الواحدة والخدمة الواحدة. كان يوسف يومها مثل كل الذي في عمره، ربَّما تميز عن الآخرين بطول الصمت، ربَّما تميز عنهم بإتقانه المبكر لفنون القتال، وربما تميز عنهم بسرعته في إتقان اللغة العربية وأحكامها وحفظ أشعارها، وربما كان الأكثر التزاما بالدروس التي يواظب عليها في المسجد وفي قصر أبيه، وربما كان . وهذا ما لفت النظر إليه . أكثر من هم في عمره التصاقاً بأبيه والاستماع إليه وعدم الخروج عن طوعه أو مشورته.

كان أيوب الملقب بنجم الدين، أكثر حكمة من كل الأمراء والقواد الذين حوله، كان الأكثر اتزاناً وبعد نظر وعمق رؤية. يوسف، ولده الأكثر نجابة ونباهة كان يستمع إلى أبيه كثيراً.

الصداقة العميقة التي نمت وترعرعت بين صلاح الدين يستمتع وكأنه يجرب ليتعلم، وكان يعبث وكأنه يريد معرفة الفرق بين الصواب والخطأ، وعندما كان يخطئ كان يتعجب من ذلك الشعور غير المريح الذي يلم بالبدن والروح.

يتذكر المشطوب أيامها، على مدارج تلك الخرائب المهولة التي تركتها الأمم السابقة في بعلبك، كيف كان صلاح الدين يستغرب بشدة ما فعلته تلك الأمم ولماذا أهلكها الله، رغم شدة البنيان وإتقانه. ويتذكر المشطوب أنه لم يكن يملك أجوبة لأسئلة صديقه، فصلاح الدين صاحب أسئلة كثيرة صعبة ولا يمكن الإجابة عنها. فلا أحد يستطيع القول باطمئنان لماذا يهلك الله الأمم، ولماذا تنكسر الدول وتقوم دول أخرى مكانها، وما هو الفرق بين القوة والعدل. كان صلاح الدين يبدو غريباً بهذه الأسئلة بين من هم في مثل سنه من أبناء الأمراء الأكراد والأتراك. هؤلاء لا يسألون، ولهذا توقف صلاح الدين نفسه عند حدود السؤال ولم يتعداه إلى حدود البحث عن الإجابة، وما يدري المشطوب أن صلاح الدين تجاوز السؤال إلى الإجابة!!

ولكن المشطوب لم يكن يتوقف عند الأسئلة، بل قذف بنفسه في أَتوُن المعارك الكثيرة التي كان يديرها نور الدين زنكي أعظم الرجال قاطبة، قوة ومهابة وتديناً وبعد نظر.

نور الدين الذي استطاع أن يفتح دمشق وينتزعها من حاكمها الخائن مجير الدين أبق، تحول في ليلة وضحاها إلى شخص خارق بين المسلمين من ضفة بردى إلى ضفة الفرات، وتحول نور الدين من مجرد أمير عادي إلى شخص يشبه الصحابة الكرام في صفاته وشمائله وجهاده، وقد وقع المشطوب في الانبهار بشخص نور الدين، وتحركت غوامض روحه بالتشوق إلى أن يتحول هو الآخر إلى حكاية تنتقل وتتدحرج بين المسلمين من بردى إلى الفرات.

المشطوب ظل مُخلّصاً لنور الدين حتّى مات، وقد كره صلاح الدين أن نازع سيده الأمر، ولم يغفر له حتّى اللحظة، وعلى الرغم من أن صلاح الدين عمل جاهداً على أن

يجعل نفسه وريثاً لنور الدين، سيرة وعملاً وجهاداً، لكن المشطوب كان يشعر في أعماق روحه أن من الجلل تحطيم حكاية رائعة صاغها نور الدين ذات يوم. وقد مضى وقت طويل حتّى انضم المشطوب إلى صلاح الدين، وهو لم يفعل ذلك إلا بعد أن انهار البيت الزنكي أو كاد.

ولما فتح الله بيت المقدس على يد صلاح الدين طارت شهرة الرجل وطبقت الآفاق، انتبه المشطوب عندئذ إلى صلاح الدين هذا وأي نوع من الرجال هو.

حدّق به جيداً، لعله يرى ذلك الذي يميز به الرجال الذين تطير شهرتهم في أقاصي الأرض، فرآه رجلاً لا يشبهه أبداً، لأول مرة يراه مختلفاً عنه جداً، اكتشف أن غموض صلاح الدين أكثر من وضوحه، وأن صمته أكثر من كلامه، وأن ذكره الله أكثر من ذكره الناس، وأن جهاده أكثر من قعوده، وأن أكثر خلصائه من العلماء، وأن أكثر وقته يقضيه في قراءة كتب الجهاد أو في ارتياد الأراضي والمواقع الملائمة للعساكر، وأنه لا يملك من الدنيا أكثر من حصانه وسلاحه على سعة ملكه وثراء مربعه.

تضائل المشطوب في نفسه، كان شخصاً آخر، كان عنيفاً، سريعاً في الكلام، سريعاً إلى الغضب، سريعاً إلى الشهوة، سريعاً إلى كل شيء آخر، كان مستعداً لأنَّ يدخل المعركة . كل معركة . دون أن يتعب نفسه في التفكير بالعواقب، الرجل خلق للحرب ولم يخلق للحكمة. الحكماء لا يحاربون.

وديار الإسلام بحاجة إلى مقاتلة قبل كل شيء أخر. إنه لا يملك غير أن يقاتل، من أجل الإسلام، ومن أجل كراهيته لهؤلاء الملاعين الذي ملأوا البلاد بقلاعهم وقلوعهم، ومن أجل أن يخلق حكاية خاصة به، ولأن لا شيء آخر ولا مهنة أخرى تطيقه أو يطيقها غير القتال.

عاد عمر الزين، متولي العيون والجواسيس، جاء في الظلمة كما يأتي عادة، جاء متلفعاً بعباءة طويلة يلبسها البدو عادة. استقبله المشطوب بلهفة لا تخفى، جلسا إلى خوان خشبي مثمن الأضلاع مصدف الحواف، كان عجيج الجيش يصل إلى مسمعهما في الخيمة المضروبة على تلة غير بعيدة عن خيمة السلطان صلاح الدين.

قال عمر الزين دون مقدمات: صاحبك صعب المنال، ليس من السهولة الوصول إليه.

أجاب المشطوب بخشونة: ما لهذا انتدبتك!!

قال عمر، الرجل الأربعيني الذي عاش بين الفرنجة وعرف ألسنتهم وطباعهم: أنت سريع الغضب أيها الأمير!!

قال ذلك بثبات وهدوء، كان يعرف قدره وقدر مهمته.

تراجع المشطوب قليلاً: أنت من نعتمد عليه في مثل هذا، لا تُخيّب رجاءنا.

هدأ عمر الزين، تنفس بعمق، قال: صاحبك هذا، علج رومي ذو مكيدة، لا يفتتن بالمال أو النساء، لقد سلطت عليه ثلاث نساء إفرنجيات من أجمل نساء الأرض، ولكنه لم يتزحزح.

سأل المشطوب: وهل لك أعوان من نساء الإفرنج!!

تبسم هذا بابتسامة لا تكاد تبين: نساء الإفرنج يعشقن الذهب، والذهب لـه أسرار لم تدرك بعد.

قال المشطوب: وهل وصلت إلى هذا اللعين؟!

قال هذا بنبرة من الفخر لا تخفى: لا يستعصي علي أحد. فقد دسست إليه شيخاً من خواصنا ادّعى النصرانية والتبحر فيها، وأنهه فر بدينه من معسكر صلاح الدين.

. ثمَّ.. ماذا حصل؟!

. رجلنا الذي استعد لكل الإجابات، سأل هو الآخر، رصد واستفسر، وأرسل لنا يقول أنه الآن بعهدة كهنة يعلمونه أسرار الدين الجديد.

قال عمر ذلك بما يشبه السخرية.

انفجر المشطوب: وماذا بعد؟!

قال عمر الزين: صاحبك أيها الأمير، محبوب في معسكره، محبوب من قبل أمراء الإفرنج الذي نعرفهم، ولكنه ينازع الملك العتيق على ملك بيت المقدس، ويناصره الطليان والافرنسيس على اختلاف مللهم، ويجافيه الانكتار ومن والاهم من الداوية.

. كيف رأيت الحرس حوله؟!

سأل عمر الزين: بماذا تفكر أيها الأمير؟!

. كيف رأيت الحرس حوله؟!

. كثير ومتيقظ.

. وماذا رأيت أيضاً؟!

. حوله من رجال الحشيشية الكثير؟!

. وما حاجته إليهم؟!

. يتولون التجسس وصد رجالنا عن الرصد والاغتيال ودهم خيام الفرنجة ليلا.

. اللعين.. يستعين علينا بأناس من جنسنا!!

. ماذا أنت فاعل أيها الأمير؟!

. هل عندك رجال من هؤلاء الباطنية الحشيشية، أو الحشيشية الباطنية أو ما شئت من هذه الأسماء اللعينة.

قال عمر بذات الهدوء: عندي ما تريد!!

قال المشطوب وهو يحدق في العتمة المترامية أمَّا الخيمة: كن مستعداً.. قريباً جداً.

وقبل أن يخرج عمر الزين من الخيمة، أعطاه المشطوب بدرة كبيرة من الدنانير، أخذها هذا بهدوء، التف بعباءته البدوية وانطلق في قلب العتمة، في مهمة غامضة أخرى مع أناس غامضين آخرين.

الآن، في هذه اللحظة، المشطوب، سيف الدين علي بن أحمد المشطوب داخل أسوار عكا المضروبة بالفرنجة والجوع والخوف، لم يظفر بالكندهري اللعين، ولم تنقض هذه الحرب التي دامت سنتين. دامت أكثر من كل حرب أخرى، وطالت أكثر من كل حصار آخر، وأتعبت معسكر المسلمين أكثر من كل نزال آخر، وأظهرت على غير عادة المعارك الأخرى عيوب المسلمين وانخذال هممهم، حتّى الخليفة في بغداد تخاذل عن النجدة، أمَّا الأمراء المسلمين الآخرين فقتالهم موسمي.

المشطوب الذي لم يحقق شيئاً منذ سنتين، رغم كل ما أبلاه وأخوه "الجناح"، شعر أن من واجبه أن يدخل عكا، أن يكون هناك حيث كل الأشياء تبدو مختلفة ومضطرمة بالبطولة والفداء والشجاعة، وحيث يكون المرء نافعاً وحقيقياً ومميزاً.

دخل المشطوب عكا، قوبل بالفرح من قِبَلْ المحاصرين ومن قِبَلْ أفراد الحامية المنهكة المتعبة، أحس الجميع أنه يسند ظهره إلى قائد محنك وشجاع وصبور، ولكن المشطوب، ومن أعماقه السحيقة، أحس بريح الهزيمة تلفح وجهه، انقبض قلبه وهو يرى برج عين البقر متهدماً، وأن باشورات الأبراج المواجهة للفرنجة الملاعين قد سوّيت تماماً، وأن الناس لا تجد التمر ولا الماء ولا الدواء، وأن المقاتلة لا تجد النفط أو حتّى الزراقات المناسبة. قيل له أن البطسة التي أرسلها السلطان آخر مرة، قد حرقها الفرنجة قبل أن تصل برج الذبان بقليل، وقيل أن العوامين لم يعد بمقدورهم دخول عكا بعد أن أحكمت شانيات العدو الحصار حول عكا من جميع الجهات.

الناس، المحاصرون منذ سنتين، الذي صمدوا احتساباً لله، الذي قاتلوا الفرنجة من أجل الله ومدينتهم، الذين أضرَّ بهم الحصار أيما ضرر، قالوا أنهم رأوا أمراء يهربون بليل، وأن آخرين أخذوا أموالهم وانسلوا من المدينة، وأن بعضهم أدعى المرض، وبعضهم الآخر طلب الصلح مع الفرنجة دون إذن السلطان.

الناس، العاديون، الذين تجدهم في كل مدينة، كانوا على استعداد للصمود إلى الأبد، ما دام ذلك لله، وللنخوة، والشهامة، ورفض الاستسلام للأجنبي.

أبناء البلاد، من عكا، وشفرعم، وصفورية، والزيب، أولئك الذي اكتووا بحكم الأجنبي لعدة عقود من الزمن، كانوا على استعداد لأنَّ يقدموا آخر قطرة من عرقهم ومن دمهم على أن تسقط المدينة في يد الإفرنجي.

المشطوب الذي استمع بكل جارحة فيه لما قاله الناس، تجول في أسواق المدينة وشوارعها وأزقتها، لاحظ ما الذي يفعله الحصار وضرب النار.

رأى الجوع على وجوه الأطفال، والقلق على وجوه الكبار، أمَّا التوتر فكان في تضاعيف الهواء وعلى الجدران، زار بيت الأسقف الذي صار بيمارستان ورأى النساء أنهن يستعضن عن الدواء بالماء والملح على قلتهما، وزار المسجد ليشاهد بعض المشايخ يحفظون الأولاد الضامرين سورة الفاتحة، تلك السورة التي يحبها المشطوب لما فيها من هذا الخطاب بدون حواجز بين الخالق وعبيده، كان الأولاد يقرأون بصوت مسموع منغم: الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين...

الصوت المنغم الموقع في تلك الرحبة المغلقة، وقع في صدر المشطوب وقعا حسنا.

يا للمحاصرين!! المحاصر لا بد مهزوم، هكذا قال المشطوب، رائحة الهزيمة لا تفوتني. المدينة، وبعد سنتين من حصارها، لم تعد تملك الكثير لتقدمه، والشجاعة حاسمة ولكنها عند لحظة من اللحظات تفقد مغزاها وجدواها.

لماذا دخلت إذاً إلى هنا يا مشطوب؟!

لماذا قبلت أن تدخل هنا؟! أليس من أجل أن تعدل ميزان المعركة؟!

اللعنة، ألف لعنة، لم نظفر بشيء خلال سنتين من قتال لعين يبدو بلا نهاية!!

ولولا هذا السلطان المقيم على التلة لتركنا هذه المدينة التي جعلها الفرنجة ذات يوم مباءة للفسق والمال معاً.

الكندهري المجرم خارج المدينة وأنا داخلها ولم أنل منه حتّى الآن...

في المساء الثقيل والباهظ بغيومه الداكنة وشمسه البطيئة ونسمة البرد الخفيفة، اجتمع المشطوب إلى قراقوش في حجرة صغيرة على السور المقابل للبحر.

ابتدأ الكلام قراقوش بهدوئه الخارق: هل ترى يا سيف الدين....

كان المشطوب يحدق في الأفق، حيث الموج الغارق بالأشعة الصفراء، وحيث هذه غارقة بالموج، شد المشطوب روحه حيث كانت الشمس، التفت وهو يقول: ماذا أرى يا بهاء الدين...

كان المشطوب يرغب بالصمت، دائما كانت أشعة الشمس تشده وتسحره منذ أن كان طفلاً في قلعة مهولة على قمة جبل عال ضارب في السماء.

قراقوش كان في عالم آخر: هل تعرف من بنى هذا السور المواجه للبحر والقائم على البحر أيضاً؟

. لا أعرف، من هو باني هذا السور؟!

قال قراقوش الذي تعجبه وتطربه أحاديث البناء والعمران أكثر من أي شيء آخر: بنى هذا السور المعجب فوق البحر بنّاء يقال له أبو بكر البشاري، بناه بأمر من أحمد بن طولون حاكم مصر والشام قبل أكثر من ثلاث مئة عام....

قال المشطوب: اعتقدت دائماً أن الفرنجة هم من بنى مثل هذا السور...

قال قراقوش: هم لا يستطيعون مثل هذا البناء، كل ما فعلوه هو بناء الأسوار الشرقية وبعضاً من الشمالية....

قال المشطوب باقتضاب: ماذا تريد أن تقول يا بهاء الدين.

قال هذا: أريد أن أقول أن للأجداد علينا حق!!

. ماذا تقصد أيها الأمير؟!

. أقصد أن... أن نبقى حتّى النهاية.

قال المشطوب وهو يعود بوجهه إلى الأفق، حيث كل شيء يتراقص في لجة من الأصفر والبرتقالي والأحمر والذهبي: ولكن المدينة لا تحتمل.

قال قراقوش بهدوئه العجيب: ولكننا نحتمل.

. الناس مطعونون.. فر بعض الأمراء، تخاذل البعض الآخر.

. أنا وأنت هنا!!

. الفرنجة كثر، جاؤوا بآلات لم نسمع عنها ولم نر مثلها.

. إذاً، لماذا جئت يا سيف الدين.

هكذا قذف قراقوش السؤال في وجه المشطوب، لا أحد يسأل المشطوب هكذا، ولكن قراقوش رجل آخر.

الظلمة التي تكاثفت جعلت الأفق حيث غطست الشمس في البحر أكثر سحرا من ذي قبل، قال المشطوب لنفسه أن الحرب لا تدع للمرء فرصة لشيء.

تحرك بجرمه الهائل، لوح بيده ذات اليمين وذات الشمال، توتر وجهه المشطور إلى نصفين، بدا أكثر بشاعة.

قال بعنف: دخلت لأني... دخلت من غيظي.

كبح ما ثار في نفسه من خيبات أمل، لم يرغب أن يكشف سره لرجل لم يعرف عنه ولعه بالشهوات أو الدنيا.

قراقوش، الذي رأى ما رأى، الذي لم يعد قلبه ينبض إلا بذلك الحب البارد الشبيه بالطاعة والولاء، طافت على وجهه ابتسامة خفيفة لا تكاد تبين، كان يعرف أن المشطوب حصان جامع بعقل صغير.

قال قراقوش ولم يفارق هدوءه: هل لك خطة!!

لم يمض على قدوم المشطوب سوى سويعات، وهذا يطالبه بخطة. قال بسرعة: الحقيقة أيها الأمير، لا يحتاج الأمر إلى خطة.

. كيف ذلك؟!

. على السلطان أن ينقذنا!!

. سنتان مضتا ولم يستطع السلطان فعل ذلك. والفرنجة يتكاثرون والمسلمون يتناقصون.

. أو قل أن أمراء المسلمين مختلفون.

. فماذا أنت فاعل إذاً.

الحقيقة أن الحوار مع رجل محاصر منذ سنتين مختلف جداً، قراقوش الرومي الهادئ الذي لم يتزحزح عن موقعه، ولم يطلب المغادرة ولم ينبس بكلمة واحدة تدل على انكساره أو انخذلانه يجعل الكلام معه صعباً جداً.

قال المشطوب وهو يشعر بتقدير كبير لمحدثه: اقترح علي أيها الأمير.

قال قراقوش: أعني على ما يشد أزر الناس.

قال المشطوب دون تفكير: ليغنوا قليلاً، ليفرحوا!!

قال ذلك وهو يشاهد ذلك اللون البديع الذي انتشر على دائرة الأفق، فوق البحر، فجعل للحياة طعماً مستساغاً.

أشرق وجه قراقوش وهو يقول: نعم.. نعم.. ليفرحوا قليلاً.

استغرب قراقوش لنفسه وهو يقول ذلك، كان يطلب خطة للحرب، فإذا به ينساق وراء كلام عابر.

اندفع تحت تأثير هذا الشعور: سنزوج الراضي غداً.

قال المشطوب: هو جدير بذلك.. والخطة أيها الأمير.

قال قراقوش بما يشبه السخرية، بما يشبه التسليم: الأمر لا يحتاج إلى خطة.

على سور بني قبل ثلاث مائة عام، في مدينة لا يعلم إلا الله متى بنيت، وفي حصار تقوم به أقوام من بلاد لا يعلم إلا الله في أي الجهات هي، تبدو الأحاديث أقرب إلى الجنون منها إلى العقل.

المشطوب، الذي حارب أمراء المسلمين وأمراء الفرنجة على حد سواء، الذي تزوج خطفاً، وتسرى بالإماء خطفاً، وتعلم خطفاً، الذي يعيش يوماً في بيت من حجر وعشرة أيام في بيت من وبر، الذي يكره الفرنجة، ويكره لغاتهم، ويكره روائحهم، ويكره عنجهيتهم، ويكره سحنهم الذي يحب أمه دون ملامح، ويحب الشمس على ذرى الجبال، الذي يغار من صلاح الدين، الذي يحب صلاح الدين، الذي يرغب بأن يحكى عنه بين

الناس. المشطوب هذا، ذو الوجه المخيف البشع، والقلب المتقد بالغضب والشهوات والتمنيات، الذي رأى المصائر والأقدار، والدول التي تقوم وتنهار، هذا المشطوب، وهو يمشي على الأسوار المواجهة لمعسكر الملاعين الفجرة:

. ماذا يريدون منا أولاد الكلب هؤلاء!!

كان يحس بثقل ما في جسده، وكان يشعر بارتجاف قلبه لضجعة مريحة تحت معرش كعادة أهل الشام، كان يرغب بامرأة ما، بيضاء لطيفة، تؤانسه بالكلام، لا وجود للحياة الحلوة بوجود هؤلاء الملاعين. كان عجيج معسكر الفرنجة يصله بوضوح شديد، كان يتصارخون أو يتشاجرون، مشاعلهم تملأ التلال المواجهة لعكا من الشرق والشمال والجنوب، كيف الفكاك إذاً يا الله؟!

. ماذا يريدون منا أولاد الكلب هؤلاء؟!

المشطوب الذي سمع الادعاءات المضحكة منذ أن كان طفلاً حول رغبة هؤلاء بتحرير قبر السيد المسيح لم يعد يلتفت إلى تلك الأكاذيب منذ فترة طويلة. فهؤلاء . أولاً وأخيراً . أولاد كلب حقيقيون. يقتلون ويحرقون ويدمرون ويتاجرون بكفاءة عالية، المشطوب، الآن وبعد كل هذه السنين، يشعر أن عليه إخراجهم من هنا فقط، إنهم يدمرون حياته فقط، ولأول مرة في حياته يعرف ما معنى هذا الذي يسمونه: الجهاد، إنه الدفاع عن الحياة فقط. نحن نكبر أيها المشطوب. والاحتلال والحصار يزيد من حكمتنا ويزيد من غضبنا.

لا شيء كالغضب أيها المشطوب!! لا شيء كالغضب. ليس هناك أكثر حقيقية وصفاء ونقاء من ذلك الغضب المحمى على نار الحكمة المهذب بحرارة الإيمان.

صباح اليوم التالي، بدأت منجنيقات ملك الإنكتار المهولة تضرب البلد بأحجار ثقيلة وكرات نار عجيبة، وتقدم فرسان ذو شارات مختلفة على صدورهم إلى الخندق المحيط بالبلد يردمونه بالخشب والحجارة والدواب النافقة. انطلق المشطوب مع مقاتليه إلى باشورة السور فوق باب قراقوش، الهبوا العدو بالنبل والنار، ما استطاعوا. صاحوا من أعماق أعماقهم، فرحاً ويأساً ولهفة وغضباً وأملاً لا نهاية له: يا للإسلام.. ياللإسلام!!

الله، العظيم، العلي، سمع الصيحة الأبدية، على الأرض، في عكا، على السور القديم، كانت قلة من الرجال على رأسهم المشطوب ذو الوجه المخيف يضرب بساعد غليظ لم يعرف الخوف أو التردد. فوجئ المقاتلة أن من بين الفرسان البرابرة امرأة عظيمة الخلق تلبس بزة حرب خضراء على صدرها شارة الصليب تقاتل كمن يرد الموت، ثبتت أمام الحجارة والسهام بما يدعو على العجب، حدق فيها المشطوب عن قرب، حدقت فيه عن قرب، أفزعها الرجل بوجهه، انخطف بوجهها الأبيض المشرب بحمرة عميقة، وبعينيها الزرقاوين شديدتي الازرقاق. تنامي الغضب حتّى وصل مبتغاه صاح من

أعماقه: خذي أيتها الكلبة!!

رماها بدبوس بعنف شديد ليسحق رأس المرأة الإفرنجية، تهاوت من حيث كانت إلى الخندق العميق، حيث فرسان الفرنجة يدقون باب السور بمضرب لم يشاهد مثله.

استمر القتال والقتل، تهدمت أجزاء أخرى من السور، تساقطت حجارة كبيرة منه إلى الخندق حيث عملت على ردمه وتسهيل المرور منه، سقط من المقاتلة عدد من الرجال، كانت المواجهة تتضح باليأس. عرف المشطوب ذلك، ولكن لا خيارات كثيرة أمام المحارب. صاح: يا للإسلام.

صاح المقاتلة: يا للإسلام!!

قبل المساء بقليل، توقف الضرب فجأة، نظر المشطوب إلى أسفل السور ليرى ما الذي يجري، فشاهد فارساً على حصان قصير قوي لا يشبه جياد هذه البلاد، حوله فرسان آخرون يحملون شارات وأعلاماً كثيرة، توقع المشطوب أن يكون هذا أحد كبرائهم أو مقدميهم.

صاح أحد من الجمع تحت السور: يا أهالي عكا.. يا أهالي عكا.. هذا ملك الإفرنسيس يرد التحدث معكم.

كان الصائح يتحدث بلهجة تميز بها بعض أهل بيروت، تلك اللهجة التي خبرها المشطوب أيام كان والياً عليها، يعرف المشطوب أيضاً أن موارنة بيروت عملوا لدى الفرنجة أطباء ومترجمين وأدلاء.

قال البيروتي: يقول لكم الملك فيليب أغسطس، ملك الإفرنسيس وحامي الفرنجة في هذه البلاد أن تخرجوا من عكا مستسلمين له، طالبين الرحمة منه.

بآخر خيط من الحكمة، قال المشطوب: مقابل ماذا؟!

قال البيروتي بلهجة رخوة لم يستطع صياحه أن يزيلها: ليس هناك مقابل. أنتم عبيده ومماليكه.

عندئذ، عمي المشطوب غضباً وحنقاً، رأى كل خيبات أمله في الحياة مرة واحدة. رأى أن حياته لا معنى لها حقاً. انفجرت مكامن براكينه كلها. صرخ من قحفه:

. قل لهذا الكلب أيها الكلب أننا لن نسلم البلد حتّى نقتل عن آخرنا، وقل له أيضاً أنه لن يقتل واحد منا قبل أن يقتل خمسين من كبارهم.

أحدث صراخه بلبلة في الأسفل. رد البيروتي بحياد تام، كريه إلى أبعد الحدود:

. يقول لك ملك الإفرنسيس أنه سيعاقبك على سوء التصرف والكلام أمام الملوك.

اندفع المشطوب إلى كامل غضبه: قل لهذا الكلب الداعر الفاجر أنه أساء التصرف عندما جاء إلى بلادنا، قل له إنه مجرم بمحاصرتنا، وإنه كاذب بادعاءاته، قل له أنه سيموت.

رد البيروتي بحيادية شديدة: يقول الملك لكم أنه سيدخل البلد بعد يوم أو يومين وسيرى فيكم رأيه، وأن كلامك الوقح لن يقدم أو يأخر شيئاً.

ارتجت عكا بعد ما جرى، أيقن الناس بما سيأتي من رعب. في الليل البهيم، حيث لم ينتبه أحد، قام أرسل وسنقر الوشاقي وابن الجاولي الكبير، بالتسلل من البلد، أخذوا بركوساً صغيراً، انزلق بهم فوق الموج الناعم المضيئ بمشاعل بعيدة، وابتعدوا عن البلد المعذبة. هربوا تاركين وراءهم كل شيء.

في الصباح التالي، وعندما علم الناس بهروبهم، أحسوا بطعنة نجلاء تصل إلى شغاف قلوبهم. ولأول مرة منذ سنتين، تحدثت العيون أولاً عن الاستسلام، ثمَّ تحركت الألسنة، ولأول مرة منذ سنتين، صار الحديث عن خيار الاستسلام يسمع ويناقش بهدوء وثبات.

أمَّا المشطوب، فقد وصلته رسالة علقت برجل حمامة أن الرجل الذي دفعه عمر الزين إلى الكندهري قد تمَّ اكتشافه، وأنه قبل أن يقتل، ذكر بأنه مدفوع من قبل المشطوب، ليكون عيناً على الكندهري انتظاراً للأوامر.

بعد ذلك بأقل من سنة، وفي صور ذاتها، يتقدم رجل يلبس مسوح الرهبان ويطعن الكندهري طعناً محكماً يفضي به إلى الموت، ولكن الكندهري وهو يتلقى شفرة الموت في قلبه يصرخ: ماش توب.. ماش توب.

الفرنجة الذين ذهلوا بمقتل الرجل، لم يجدوا غير صلاح الدين ليلصقوا به تهمة القتل، على الرغم من كثرة أعدائه، حيث يتربص به ريتشارد ولوزجنان من جهة، وصلاح الدين من جهة أخرى، ومما أقنع عموم الفرنجة أما صلاح الدين كان القاتل، هو صراخ الرجل أثناء موته: ماش توب.. ماش توب.

والمشطوب رجل مخيف له وجهان يبدوان كأنهما ملتصقان ببعضهما البعض دون تنسيق أو انطباق تام بين الجزئين، وهو رجل ضخم الجثة يأكل الأطفال الصغار وله سيطرة على الجن والشياطين. ويقال إن أمه تزوجت شيطاناً في إحدى جبال العراق البعيدة، ولهذا أتت به أمه هكذا، بوجه شيطان وجسم إنسان.

مقتل الكندهري المفاجئ، حيث كان ينتظره مستقبل عظيم، ألحق مرارة شديدة في قلب أسقف صور، الذي صور الكندهري ورفعه إلى درجة من التقديس كبيرة، وألف حوله عدداً من الكتب والأشعار، شاعت في مدن إيطاليا وفرنسة وإنكلترة، ومع تقادم الزمن، ارتفع الكندهري ليكون قديسا من قديسي تلك الحروب التي هدفت إلى تحرير القبر المقدس، وتم ترسيم الكندهري قديساً بعد مقتله بحوالي سبعمئة سنة، وصور وهو يقتل على يدي رجل ضخم الجثة مشطور الوجه، بينما يدافع عن نفسه بالصليب. ولأن الصورة لاقت رواجاً شديداً في أعالي إيطاليا وما جاورها من تلك الأراضي بما فيها من قرى صغيرة ومنعزلة بين غابات وأنهار وجليد لم تعرف عن بلاد الشام شيئاً، فقد أطلق

على الكندهري لقب "قتيل الشيطان" وصارت حكايته متداولة ليس في الكنائس والأديرة وحسب، وإنما صارت تروى للأطفال الصغار لتنشئتهم نشأة مسيحية صالحة.

وفي العهود الحديثة، وعندما انطلقت عبادة الشيطان، كتعبير عن الرفض والتدمير والإهلاك لم يجد أولئك سوى صورة المشطوب ذي الوجه المشطور وحكايته شعاراً لهم، فأمه التي تزوجت شيطاناً لم تفعل ذلك إلا لرغبتها في الحصول على أقاصي المتعة، وأما ولدها "الماشطوب" فقد كان من القوة بحيث استطاع قتل قوة الصليب، فأعاد هؤلاء قصة المشطوب وجعلوه شعاراً لهم، فصنعوا له صوراً ورسومات وتماثيل وأوشاماً على أذرعهم وصدورهم ومؤخراتهم، وتفننوا في طقوس وسلوكيات نسبوها إليه، كالفحولة، والنهم والغضب والرغبة في القتل، وأطلقت بعض جماعاتهم على نفسها اسم: جمعية ماش توب لرغبات الروح المطلقة.

وبعد تسمعئة عام أو يزيد، صار للمشطوب حكاية على جانبي بحر الروم، تماماً كما تمنى أو يزيد، إذ أن أبناء من حاربهم صاروا يعبدونه.

أمر يفوق التصور أو الخيال أو التوقع.

عمر الزين

ينخلع قلب المرء لمرأى المرأة، المرأة البيضاء، المرأة البضة، المرأة الملزة، المرأة المكلثمة، المرأة الرجراجة، المرأة اللحيمة، المرأة التي لها عيون تأكلك، أو التي تدعوك، أو التي تعد بالملذات وتعد بالمخاطر معاً، امرأة المهالك، امرأة المسالك الوعرة، وينبوع المرات اللاذعة، ينخلع القلب لهذا الترف الممتد على طول الجسد، لهذا الكرم في التفاصيل، وهذا الامتداد والانفجار في الزوايا والحنايا، لتلك الخطوط الناعمة السهلة الرخوة المنسابة هنا وهناك، لذلك العجب المنحدر، وذلك الادهاش المكور، وتلك البياضات والسمانات التي تضمر ما تضمر. ينخلع القلب، ويرغب المرء بالصراخ، وتنبض الشرايين والأوردة معاً بدم يكاد ينعف ذاته على شيء.

المرأة الطويلة، البيضاء، التي تلبس سروالاً من حرير الفرنجة، كان مشقوقاً على طول ساقها وفخذها، أما صدرها فقد جمعته في قميص موشّى بخيوط من الذهب معلق فيها أحجار كريمة ذات ألوان مدهشة، تزداد ادهاشاً كلما تعرضت لضوء المصابيح المعلقة بكثرة في سقف القاعة.

المرأة الطويلة، البيضاء، لها عيون خطرة، تنذر بالشهوات وما بعدها، امتشقت جسدها العظيم، المهول، الباذخ، المكرم، والمعجب، فردته أمامنا، في القاعة الفسيحة، التي ترامت فيها طنافس جلدية ملونة، وأصص ورد وريحان وقرنفل، وانتشر فيها شبان في مثل عمري لا أعرفهم ولا يعرفونني، مشدوهين مثلي، ومشدودين مثلى إلى تلك المرأة التي تعرف مدى تأثيرها خيوطها وخطوطها علينا.

المرأة الطويلة البيضاء، عانقت ما حولها من الهواء والنسائم والأضواء والأرواح اللطيفة حولنا، تنشقت ما انتشر من بخور الهند وشذى الورد وعرق الرجال حولها، ثمَّ انطلقت في فضائها ترقص، تستحضر ما غاب، وتعيد ما كان يمكن له أن يكون، وتكتشف ما غمض في روحها وبهت في جسدها، عجنت روحها في جسدها، فردت

جسدها على الكون، انفجرت كوامنها الأعمق والأبعد، تصاعدت مع شهوتها، عرضتها لليل والريح، والرجال المحدقة المشدوهة، تصالحت مع بذاءتها وشراستها ونهمها، صارت سبيكة واحدة من الفضة والبخور ،وكلما كانت العازفة المساحقة تشتد في ألحانها، كان كائن الفضة والضوء يذهب بعيداً في عليائه، وكلما كانت المساحقة تحنو وترتخي، كان ذلك الجسد العظيم يلتصق بالوحل ليستمتع بكونه حلاً ليس إلا.

الموسيقى، والرقص، واللحم الذي لم يعد لحماً، والروائح الخفيفة، والكأس المشعشع، والليل الممتد خلف النوافذ، جعلني أطيش في بحر من النعومة والخفة لم أعد بعده أفكر في شيء آخر. غاصت أيامي وذكرياتي وعذابات أمي وأبي وأخوتي في قعر ذاكرتي. تعقلت بما يجري حولي من نعيم فاق كل ما توقعته.

العازفة المساحقة التي لا صدر لها وتقص شعرها كالغلمان، شدت أوتار عودها، غيرت اللحن، وانطلقت في غناء عجيب لكشاجم الرملي:

جعلت إليك الهوى شفيعاً فلم تشفعي
وناديت مستعطفاً رضاك فلم تسمعي
أتاركتي مدنفاً أخا جسد موجع
ومغرقتي بالدموع قد أقرحت مدمعي
أحين سبيت الفؤاد بالنظر المطمع
جفوت وأقصيتني فهلا وقلبي معي

انزلقت مع أمواج اللحن العجيب، صعدت إلى ذرى اللذائذ المسكرة، رغبت عندئذ في التخلص من جسدي، وكأن اللحن يدعو إلى الفناء أو الذوبان، صار الجسد عبئاً إلى هذا الحد، وصار المكان سجناً ليس إلا. دبت في أوصالي رغبة شديدة في الحركة، رغبت أن أتذاوب في ذلك الذي يتخلق داخلي ولا أطيقه، صار كل من هو أمامي شيئاً آخر، تبدل المكان وذاب في بوتقة واحدة تبعث على الالتحام بها. صار كل ما هو أمامي ممتعاً وجميلاً ومقبولاً ويمكن فهمه.

الستائر الحمراء الشفيفة التي تغطي صدر القاعة، تحركت بعنف، تراقصت الظلال وراءها، قيل لنا إن من الممكن أن يكون وراءها مولانا تقدس اسمه راشد الدين سنان، أو قد تكون زوجاته ومحظياته، أو أحد وزرائه الأكثر قرباً وأهمية الظلال التي تحركت وراء الستائر لم تنبئ عمن وراءها. ولكن اللحن الذي سيطر على كل من القاعة جعل من كل شيء تام الاكتمال.

لم أحظ حتّى اللحظة برؤية مولانا تقدس اسمه، راشد الدين، ولكن القلعة كلها تحيا

بنفسه واسمه وعبقة وسطوته. مولانا، تقدس اسمه، لا يظهر على الناس، ولا يسمح لأحد أن يراه إلا بعد أن ينال الرضى، حتّى أولئك الأكبر سناً، كمتولي القلعة، ومقدم الحرس، ومدرب الفداوية، أو العمي الصغار كما يدعون بيننا، لم يحدثوا أنهم شاهدوا مولانا تقدس اسمه، رغم أهم أمضوا سنوات كثيرة في خدمته هنا، في قلعة مصياف.

قيل لي إن مولانا يمشي في الليل على أسوار القلعة، يقرأ النجوم ويحدث أرواحا يعرفها، وأنه في بعض الأحيان يفرد جناحيه ويقفز عن السور ويغيب في الظلام ويتحول إلى نقطة ضوء تتوغل في العتمة، وأنه عندما يعود قبيل الفجر، يكون هناك ذروراً من تبر له بريق عجيب على كتفيه.

وقيل لي إنه عاد ذات مرة من طيرانه على شكل باشق عظيم الخلقة، وإنه عاد مرة أخرى حمامة تشبه حمام مصر.

وقد رأيت بعيني هاتين رماناً وتيناً في قلعتنا في غير وقته، وقيل يومها إن هذا ما جاء به مولانا تقدس اسمه من أرض بعيدة ذات حرارة وينابيع، وصل إليها خلال رحلات طيرانه.

وقيل لنا جميعاً أن مولانا تقدس اسمه، يستطيع أن يتحول إلى كل صورة يريد، ولهذا طلبوا منا أن لا نقتل برغوثاً أو صرصاراً أو حمامة أو أن نزعج حماراً أو بغلاً أو حصاناً، فقد يكون ذلك مولانا في إحدى مهماته التي لا تنتهي. وقالوا لنا أيضاً إن مولانا تقدس اسمه، يعجبه في بعض الأحيان أن يتحول إلى جارية تجامع الرجال، أو إلى غلام أمرد، ولهذا أمرنا أن نعامل نساء القلعة بكل لطف وأن لا نمتنع عن كل أمر أو حاجة مهما كانت مستغربة من الصدوع بها، وقد ظننت لوهلة ما أن حجارة القلعة قد تكون مولانا، تقدس اسمه.

إذ إن أحد لم يره، ولا يستطيع أحد أن يجرؤ على وصفه، أو الحديث عن هيئته، بل يتحدثون عن أثره وعطره، ونوره الذي ينوس في الردهات أو الأقبية البعيدة عن صحن القلعة.

وقد التقيت عدداً من رهبان الفرنجة الذي يحلقون رؤوسهم من الوسط، وغيرهم ممَّن يحملون عصّياً يعلق في آخرها ما يشبه القرعة، وقد جاؤوا ليأخذوا عن مولانا بركاته وأعاجيبه لينقلوها بدورهم إلى شيعتهم، وقد سمعتهم يتراطنون ذات يوم أن مولانا قد نقل إليهم . عن طريق وسيط . القدرة على إشفاء المرضى باللمس.

أمَّا أنا، عمر الزين، من قرية بيت فوريك شرقي نابلس العامرة، المحتلة من الإفرنجي منذ ما يزيد على ثمانين عاماً، فقد ولدت لأبوين أجلاهما الإفرنجي من قريتهما كفر مالك القريبة من قلعة الإفرنجي ريمون السنجيلي، التي يسميها فلاحو تلك النواحي

سنجل، استسهالا واستساغة للاسم الغريب.

وقد أجلي أهل كفر مالك بناءً على أمر الرهبان من كنيسة القيامة في بيت المقدس، إذ رفض هؤلاء الرهبان أن يتسلموا أرض القرية بسكانها، بل رغبوا بها خالية حتّى يزرعوها كما يحلوا لهم، هذا ما ذكره لي والدي كان قاضياً للأنكحة في تلك النواحي.

وقال لي والدي أن فرسان الفرنجة أخرجوا الأهلين من بيوتهم صبيحة يوم عيد الفطر حتّى أنهم منعوهم من الصلاة، ومنعوهم كذلك من أخذ متاعهم أو أحذيتهم، بل ساقوهم عنوة إلى قرية بيت فوريك، وهناك وجدوا أهل بيسان الذي أخرجوهم أيضاً من مدينتهم بذات الطريقة.

قال لي والدي أن ذلك كان أول عهد الفرنجة بهذه البلاد، كانوا يقتلون الناس، أو يحرقون مدنهم وقراهم أو يطردونهم من حيث هم. وفي بيت فوريك، وعلى تلك الهضاب الناعمة المعتدلة، ولدت، لأرى أول ما أرى محتسب الفرنجة يأتي كل عام يحيط به فرسانه ليحصّل من الأهلين غلّة الحقول من الثمار والحب والزيت والأعسال. كان أهلي يعملون أُجَرَاءْ في أراضيهم، وكانوا مجبرين على تقديم الحصص الأفضل لمحتسب الفرنجة الذي يدعى بلغتهم فيسكونت، أو شيئاً من هذا القبيل.

أراد لي والدي أن أمتهن مهنة، ولكن الحياة كانت أقوى مني ومنه، كانت الفرنجة في كل مكان، وكانت بيت فوريك بعيدة عن بغداد أو عن القاهرة أو دمشق، أمي رحمها الله، أقنعت والدي أن بغداد يتنازعها الأتراك، وأن القاهرة يتنازعها الأرمن والسودان، وأن دمشق يحكمها الغريب، وأن من غير المأمون إرسال بكرها إلى إحدى هذه الحواضر، وأن العلم الذي علمنيه الوالد يكفي لهذه الحياة، وأن من الأنسب أن أبقى إلى جوارهما، قبل الوالد ذلك على مضض، ولم يكن للعلم وجاهة في تلك الأيام، فقد استطاع الإفرنجي أن يحولنا جميعاً إلى عبيد عنده، تحولنا جميعاً إلى مزارعين وبنائين وفعلة في مزارع الإفرنجي وقلاعه ومصانعه التي تعددت، فبعضها للسكر وبعضها للصابون، وبعضها للعطور، وبعضها للخمور.

أمَّا أنا فلم أعمل في المزارع أو المصانع، ذلك أن والدي كان لاجئاً من كفر مالك، ولا أرض له في بيت فوريك، ولهذا عملت أجيراً لدى نجار لاجئ من بيسان، كان يبكي طيلة الوقت حسرة على الأرض التي أجبر على تركها، وقد بلغ بهذا النجار الشوق إلى بلده مبلغاً كنت أخاف عليه من الموت، هذا النجار البكاء العاشق، لم يعلمني صنعته فقط وإنما قصَّ عليَّ حكايا بيسان وعائلاتها وعشائرها وأسماء أراضيها ووصف طيب مناخها، وكثرة أمطارها، وأنواع النخيل، وعدد أسماء عيونها العذبة الوافرة، وكان على

استعداد لأنَّ يحدثني عن كل حجر أو عن كل تلة في بيسان، هذا النجار، كان يرفض أن ينادى باسمه، بل كان يفرح أيما فرح إذا نودي بالبيساني. هذا الشوق الذي لم أفهمه كان يشدني إلى سؤاله عن الفرنجة، عندئذ ينطلق النجار اللبيساني بتعداد فظائع هؤلاء الأغراب بطريقة لا مثيل لها، إذ عندما يتحدث عن الحرائق التي أشعلها هؤلاء في القرى أو الحواضر، كان يشتعل مثل النار، يهب بجسده إلى أعلى، يرفع يديه عالياً ويرقصهما، وتحمر عيناه، وعندما يتحدث عن قلع الزرع وإتلاف الثمار، كان يتمرغ ويتمزق، وعندما كان يصف قتل الناس كان يطيح برأسه كأنه يطير، طريقته الغريبة هذه جعلت بعض أصحاب النيّات الخبيثة يطلب منه دائماً أن يروي فظائع الفرنجة، فيندفع هذا دون أن يلاحظ خبث الطلب.

كان هذا أستاذي بعد والدي. أمَّا أستاذي الثالث فقد كان... زوجة فيسكونت نابلس نفسه، ذلك أن الفرنجة الذين كانوا في العادة لا يتقنون الزراعة أو البناء أو الأعمال المشابهة، لأنهم منشغلون بالحرب أولاً، ولأن أعدادهم قليلة ثانياً، ولأنهم لا يدفعون لنا إلا كما يريدون ثالثاً، فقد التقطني الفيسكونت ذات صيف، عندما جاء مع فرسانه لاقتسام الغلة، على البيدر الشمالي المشرف على السهول والتلال الممتدة على مدى الأفق، تجمع أهالي بيت فوريك، الرجال والنساء والأطفال والدواب يشهدون سرقة ثمارهم التي اجهدوا أنفسهم طيلة العام لجمعها، أخرج الفيسكونت سجلاته الضخمة السوداء، دفعها لراهب عجوز يشد إلى بطنه حبلاً مجدولاً خشناً، صار الراهب يقرأ اسم الفلاح مقروناً بما تحت يده من أرض، فيتقدم الفلاح المقصود دافعاً أمامه غرارات الحب أو جرار الزيت أو العسل.

عادة ما تكون هذه المناسبة من أسوأ لحظات القرية عموماً، وعادة ما ينتهي هذا اليوم بحديث الأهالي عن النصر وتحرير بين المقدس ونهاية الدنيا ونزول عيسى عليه السلام ومن ثمَّ المهدي، لينهي الله الدنيا لفجورها وجورها وفسقها وانقلاب موازينها.

في ذلك الصيف، أعرب الفيسكونت عن رغبته باستئجار عدد من الصناع المهرة، فأسرع ناظر القرية وهو من أقوى عشائرها وله علاقات مشبوهة مع الفرنجة إلى القول أن في بيت فوريك أفضل صناع تلك النواحي، وليس لناظر القرية أي نفوذ سوى أنه يقدم الطعام للفيسكونت وضيوفه ويقال أنه يقدم له كل ما يريده هذا من معلومات حول سرقات الغلة التي يقدم عليها بعض الفلاحين، أو ما قد يقوم به بعض شبان القرية أو وجهاؤها أو علماؤها من نشر دعوات لرفض الأجنبي وعدم التعامل معه.

عندما طلب الفيسكونت من النجار البيساني البكاء الذهاب معه، رفض هذا بعناد عجيب مدعياً المرض الشديد، فيما كان يتحدث دون أن ينظر إلى وجه الفيسكونت، فقد قال مراراً أن النظر إلى وجه الإفرنجي يسبب البثور وربما الجذام المستعصي. فاضطر الفيسكونت عندئذ إلى سؤالي بالذهاب معه رغم صغر سني وقلة خبرتي، وما أن سمعت

أمي الخبر حتى هبت من جلستها المعتادة في فناء الدار المتواضعة، خرجت كالعاصفة دون أن تستأذن أبي ودون اعتبار لمكانة زوجها أو مكانتها، وصارت تصرخ بوجه الأفرنجي الذي كان يركب فرسا قصيرة غليظة الكفل والقوائم، ولكنه لم يفهم حرفاً ممَّا قالت، فلما نقل إليه الوكيل ما تقول الوالدة، رطن في وجه الناظر شيئاً ما ترجمه هذا لأمي بالقول أنني لن أغيب طويلاً، وأنني سأعمل في نابلس القريبة من القرية. في تلك اللحظة كان والدي قد جاء يرفع أذيال عباءته وقد أنهكه الجري من المسجد، وما أن شاهد أمي حتّى امتقع لونه، فجذبها من يدها جذبة شديدة لا تليق بقاض، وقبل أن يغيب نظر إليَّ بعنف وصاح بغضب لم يستطع كتمانه: كن رجلاً دائماً. حافظ على دينك دائما.

أخذ أمي من كمّها إلى بيتها المتواضع، ثمَّ لم تخرج منه بعد ذلك إلا إلى قبرها.

أمَّا أنا فقد شعرت بالطرب بالطرب إلى حد كبير، ذلك أن هذه هي المرة الأولى التي أغادر فيها بيت فوريك، الفقيرة، المتواضعة، التي لا شيء فيها سوى الشقاء الدائم في الحقل أو في دكان النجارة. سرت على قدمي وراء الفرسان والعربات المحملة بالغرارت والجرار،

وقد تبخر شعور الطرب والإثارة ذلك أن الفرسان المدججين بالحديد استنفروا لسبب ما، فسألت فقال لي الصناع الأكبر مني سناً أن قطاع الطرق من البدو والفلاحين الذين فقدوا أراضيهم وبيوتهم تحولوا إلى عصابات كبيرة تقطع الطريق وتسلب الإفرنج أكان محارباً أو حاجاً. حاذرت في السير، وأخذت أحدق في تلك الطرق الوعرة بين الجبال العالية المغطاة بأشجار الزيتون والعبهر والخروب والسنديان. كانت جبال مهولة تستطيع أن تكون متسعاً لكل احتمال.

وصلنا نابلس فيما كانت الشمس تغيب، لم أستطع أن أميز شيئاً، فقد شعرت أن جسمي قد تفتت، حشرت في قبو مضاء بمشعل عالٍ وحيد، رأيت من خلاله كومة قش ناعمة، ارتميت عليها حتى الصباح، حيث دخل علينا راهب صغير الحجم أصلع الرأس، تحدث معنا بعربية مضحكة قائلاً إنه من جمعية فرسان الهيكل وإنه في خدمة الله وإن علينا إطاعته إذا رغبنا في الاحتفاظ برؤوسنا، وتحدث معنا بما يخيفنا، فضحك بعض زملائي من الصناع الأشداء وقالوا إن المسألة مسألة وقت حتى الظفر بمؤخرة هذا الراهب، وكانت تلك المرة الأولى التي أسمع فيها مثل هذا الكلام، ثم قدم لنا هذا الراهب قطعاً من خبز غليظ لم أشاهد مثله حيث خبزنا أرق وأكثر طراوة حتى وإن كان من الشعير أو الذرة. بعد ذلك، تفرقنا، ذهب كل صناع إلى مهنته، إلا أنا، فقد استصغرني الراهب صغير الحجم أصلاً، قلت له إنني نجار فعلاً وإنني خير من عمل بالرابوخ، ولكنه لم يصدقني وقال لي إنني أصلح سائس خيل في اسطبل الفيسكونت نفسه، فلم أعترض.

خرجت من القبو، لأشاهد نابلس لأول مرة في حياتي، فدهشت لما فيها من أبنية فخمة، وشوارع عريضة لامعة ونظيفة، كانت المدينة تصعد من الوادي باتجاه الجبلين الذين يحفان به من الشرق إلى الغرب، وهما جبلان عاليان، جهمان، جليلان، يبتعدان عن بعضهما ويقتربان كأنهما يهمان بالعناق ثم يعدلان عن ذلك، ورأيت دور الفرنجة، تلك التي ورثوها عن المسلمين وتلك التي ابتنوها حديثاً، فرأيتها من الحجارة البيضاء وقد تفننوا فيها وذهبوا بها مذهباً عجيباً من النحت الغائر والبارز ومن التماثيل العارية للبشر والحيوانات والرهبان، ومن كثرة الأفاريز والشرفات والمقرنصات والأعمدة والأقواس، أما كنيسة المدينة فقد كانت عجباً، إذ أقيمت عند نبع ماء حار عرفت فيما بعد أنهم يقدسونه، رأيت المدينة تنضح بالماء والنسيم الطيب، دوراً وقصوراً وبساتين. وفيما نحن نسير في الشوارع المرصوفة بالحجارة تحت تلك الدواميس الرطبة التي تدعو إلى الراحة والإلفة، كنت أرى الفلاحين والفلاحات من القرى المجاورة يفترشن الأرض يعرضن مالديهن من ورق العنب وطيور الحجل والأرانب والبيض والألبان، وكنت أسمعهن وهن يجادلن نساء الفرنجة مرة بالإشارة ومرة بكلمة من هنا أو هناك، بالعربية مرة وبالأعجمية مرة أخرى.

وصلنا دار الفيسكونت في قعر الوادي، بين بساتين ومياه، حيث إلى الجهة الجنوبية من الدار بيمارستان كبير رأيت في باحته الواسعة عدداً من الرهبان ومثلهم من المرضى يعرضون أنفسهم للشمس في هذا الصباح الباكر.

دار الفيسكونت كانت ضخمة بطابقيها وفنائها الواسع وسورها المربع، وعندما ولجنا الدار من بوابتها الحديدية الضخمة حيث يحرسها عدد من الفرسان والكلاب القبيحة، رأيت أن الفناء يضم مخازن للغلال والسلاح والطيور الداجنة فضلاً عن الإسطبل الكبير ذي الباب الخشبي الكالح.

دفعني الراهب صغير الحجم إلى الإسطبل قائلاً لي بعربيته المضحكة أن مهمتي هي تنظيف الإسطبل وخدمة الخيل وترييضها وترويضها، وإن منامي ومأكلي ومشربي في الإسطبل أيضاً. تركني ومضى، كنت لا أتجاوز الخامسة عشرة من عمري، ولم أخدم الخيل يوماً، ولم أقترب من إفرنجي إلى هذا الحد ولم أشم رائحته إلى هذا الحد، وهأنذا في مدينة تعج بكل أنواع الفرنجة، أصابني ما يشبه الخبال، اعتراني بعض الخوف. وفيما أنا في حيرتي هذه، وإذا بامرأة إفرنجية في أواسط عمرها تلبس ثوباً مفرداً واسعاً من الأسفل ومكشوفاً عند صدرها وتفرد شعرها الأشقر على عنقها تطل علي، لم تكن جميلة، كانت ذات تقاطيع عادية رغم بياض جلدها، لم يكن وجهها ودوداً كذلك لم تكن نظراتها. ويبدو أنها تفاجأت بي، رطنت في وجهي، فلم أفهم، رطنت بشدة أكثر، حيث شعرت أنها غاضبة لسبب ما، لم أفهم بل شعرت بالخبال يستبد بي، رطنت مرة أخرى بصوت أقل حدة وغضباً، فأخذت أشير إلى الخيل لعلها تفهم، تغيرت نظرتها وهي تفح بوجهي بما لا

أعـرف، اقتربـت منـي، فشـعرت بـالخوف حقـاً، ولكنهـا دفعتنـي مـن صـدري داخـل الإسطبل،حيث الخيل تحمحم هي الأخرى، كانت الرائحة في الداخل فظيعة، والخوف يستبد بي، ولكنها، وبأصابع مدربة، فكت حزامي ورفعت ثوبي وأنزلت سراويلي بسرعة فائقة لم أستطع ملاحقتها لشدة ما أنا فيه من الخوف والاستغراب، عقدت الدهشة لساني وأنا أراها منبهرة بما ترى، أحسست أن قلبها انصدع وهي تشهق شهقة عميقة مفاجئة تكاد تشبه الصرخة المكتومة. ومن خلال خوفي واندهاشي والرائحة الفظيعة المسيطرة على المكان، أدركت أن المرأة كان لها مأرب ما من كل ما فعلته بي. وكان ذلك يومي الأول في بيت الفيسكونت الذي يسرق غلة أهلي في بيت فوريك.

زوجة الفيسكونت التي عرفت فيما بعد أن اسمها فاليريا، علمتني لغتها حتى أكون على علم بما تفعل وبما تقول من فحش، ولغتها هي لغة عوام الإفرنسيس ودهمائهم، وعرفت فيما بعد أنها تتشاجر مع زوجها كثيراً، إذ كان على علم بما تفعل ويغض النظر عنه بسبب مشاغله الكثيرة كقاضٍ بين الفلاحين، وبين الفلاحين أنفسهم ومالكي أراضيهم من الفرنجة الآخرين. وقد سمعته ذات مرة يصيح بوجهها:

. أنت مريضة، أنت تحبين مجرد رائحة الإسطبل، عليك أن تضعي روث الخيل تحت سريرك.

وقد صدقت أنها مريضة، ذلك أنها كانت تخيفني، وكانت تداعب الخيول بطريقة يقشعر لها جسدي، بالإضافة إلى أنها كانت تمتلك عدداً من الكلاب ذات الرؤوس الضخمة المربعة، تتعلق بها بشكل لم أشاهد مثله من قبل، فقد كانت تقبل الكلب من فمه.

هذه المرأة المخيفة، التي لم أكن أعرف متى ترضى ومتى تغضب، وبعد سنتين من العمل في الإسطبل بما فيه من عجائب، دفعتني إلى إحدى الراهبات العاملات في البيمارستان المجاور قائلةً لها إنني نافع جداً، فرفضت هذه، ذلك أنني لست مسيحياً، فقالت فاليريا ببساطة: سيتحول إلى المسيحية أيتها الأخت الصالحة.

فظهر الفرح على وجه الراهبة الصافي والمريح، بالفم الهادئ ذي الشفتين الورديتين الناعمتين، والعينين الواسعتين التي يشع منهما بريق يجمع بين الفهم والتفهم والطيبة.

قالت: سيكون ذلك من أجل الخدمات التي تقدمينها للكنيسة.

قالت تلك: لك ذلك!!...

فاليريا، المرأة المريضة المخيفة، حشرتني في زاويتها المفضلة من الإسطبل، بين الخيول الغليظة الكفل والكلاب المربعة الرؤوس، أمرتني أن أتحول إلى المسيحية، ولأول مرة في حياتي أشعر أنني على وشك التخلي عن شيء ثمين لا يقدر، لأول مرة في حياتي أشعر أنني شخص مختلف وأن لي ما أعرف نفسي به، وإنني لست كما تريد هذه

المرأة لي أن أكون، شعرت أنني مختلف عنها تماماً، لا أشبهها ولا تشبهني، وإنني أكرهها من أعماقي، وأنها تحتقرني، وتستغلني كمتاع تافه، في تلك اللحظة، بين الروائح الفظيعة ووجه المرأة القاسي وكذلك الكلاب ودبيب الخيول، تراءى لي وجه والدي بغضبه وحنقه يصيح بي: حافظ على دينك دائماً.

سطع في صدري القرار؛ أن أظهر ما لا أبطن، وأن أختلف عن الأجنبي المحتل السارق الفاسق، أن أحتفظ في صدري بشيء لا يستطيع هذا الأجنبي أن يصل إليه أو أن يدمره أو أن يمتلكه، للغالب سطوة، ولكن سطوته ليست قدراً.

سنتان من العمر في الإسطبل، لم أصل فيهما أو أصوم، بل انغمست في جحيم من الخطايا القاتلة، ولكني لن أتخلى عما يميزني عن هذه المرأة التي تدلل الكلاب أكثر ما تدلل زوجها.

فحت في وجهي: ماذا قلت؟!..

قلت: ولماذا تصرفيني من الخدمة!!..

قالت بفجاجة: سيأتي شاب تركي حقيقي، أصغر وأطول منك.

قلت: وكيف أتحول إلى المسيحية.

ابتسمت وهي تقول: كنت أعرف أنك ولد طيع.

صباح اليوم التالي، دفعتني إلى راهب عجوز أصلع الرأس تماماً، أحمر الجلد تماماً، ترتجف يداه ويسيل اللعاب على طرفي فمه الواسع، كان فرحاً بي جداً، وقال وهو يعانقني إن ما حدث دليل على معجزات الرب التي لا تنتهي، وقال إنه سيجعل من تحولي إلى المسيحية حدثاً هاماً في مدينة نابلس وإنه سيعمدني في حفلة كبيرة يحضرها ممثل الملك أمالرك شخصياً، ذلك أنني أول مسلم يعلن مسيحيته في هذه المدينة منذ عشرة أعوام.

كان ذلك في أيام الربيع، حيث تتحول نابلس على مافيها إلى قطعة من الجنة، بالماء والخضرة والنسيم واللطف العجيب، وفي البستان الملحق بالبيمارستان، أخذ هذا الراهب يعلمني أسرار دينه، فكان مما قال إن لسيدنا عيسى طبيعتان؛ ناسوتية ولاهوتية، وأنه ضحى بنفسه من أجل أن يخلص بني الإنسان من خطاياهم، وأن هذا أساسه الحب لكل بني البشر، ولهذا فإن المسيحي الطيب يحب كل الناس، ثم قال لي إن الثالوث يتكامل في واحد، وأن الواحد له ثلاثة وجوه، فلا تعارض أو تجزئة. ولأن الحب يفترض التسامح، فإن التسامح يفترض الاعتراف بالخطيئة، وهكذا فإن على المسيحي الطيب أيضاً أن يعترف بخطاياه. كان ذلك جديداً ومفاجئاً ومدهشاً، فكيف أعترف لهذا الراهب

بما أفعل في الإسطبل؟!... ولكني وبصعوبة بالغة استطعت التقاط ما قال لي، وحاولت أن أرتب ذلك في ذهني، ما وسعني الأمر. فأظهرت السرور والفهم، ففرح الراهب بذلك أيما فرح، ووعدني أن يعلمني الكتابة والقراءة إذا ماكان تقدمي سريعاً، ولم أخيب ظنه، فقد حفظت كل ماقاله لي، حتى تلك الصلاة "أبانا الذي في السموات...". وقد قرأتها بلسان غير لسان العوام وإنما بلغة عويصة لها مخارج ثقيلة قال لي الراهب عنها أنها لسان الكتاب المقدس الذي كتب بحروف لاتينية.

وفي الأسبوع التالي، ألبستني فاليريا لباساً فاخراً لأول مرة في حياتي، سروالاً إفرنجياً ضيقاً خجلت منه لأنه أظهر أعضائي بكاملها وحزاماً جلدياً مزيناً بزرد حديدي لامع، وصدرية خضراء من الحرير الخالص، وفوق ذلك معطف طويل يربط إلى العنق بلا أكمام، ثم سرحت شعري ورمته على أكتافي وحلقت ذقني وشاربي، وما إن انتهت من ذلك حتى حدقت بي، شعرت بها تقول بحسرة كاملة: لم أكن أعرف أنك بكل هذا الجمال!! كانت تريد أن تحتفل بي، أو أن تنتصر بي أمام هذا الجمع الكبير، حيث ازدحمت الكنيسة به، ولأول مرة منذ سنتين، رأيت الفيسكونت سعيداً بزوجته، حيث قدمت للكنيسة مسيحياً جديداً، إذ وضع الرجل يده على كتف زوجته ودفعها أمامه لتتقدمه إلى الصف الأول في القاعة الضخمة المزينة برسوم لسيدنا عيسى وأمه مريم في أوضاع تدعو إلى الاندهاش والتأمل، وقد فتنت بما أرى حولي من الصور والتماثيل ومن فخامة المكان وروعته ومن ذلك الحضور الكبير بالملابس والألوان والوجوه الجميلة، اعترفت لنفسي أن ما أراه لم يمر بخلدي في يوم من الأيام، وأحسست بما يشبه الخفة والطرب وأنا أرى هذا الاحتفال بي، تذكرت بيت فوريك وفلاحيها ووالدي وبيتنا الفقير المتواضع، بحثت عن تميزي وسري الكبير في صدري. قلت: ماذا أريد إذاً!!

سألت نفسي: لمن أخفي سري، وكيف أستفيد منه؟!!!

انبثقت الإجابة من داخلي: الله، أنت تخفي سرك من أجل الله.

كان ذلك عجباً، لم أدر له سبباً، ولم أعرف كيف أصفه. بهت الافتتان في داخلي، صرت أستمتع به كمن يستمتع بخطيئته.

بدأت صلاة طويلة بتلك اللغة العويصة، حيث قررت أن أتعلمها، بعد ذلك، دفعني راهب آخر إلى الراهب الذي قاد الصلاة، ركعت أمامه، فرسم علامة الصليب فوقي، أطعمني وأسقاني شيئاً ما، ثم قمت مسيحياً بعد ذلك، ثم تقدم مني ممثل الملك أمالرك وباركني ثم تبعه بعد ذلك كبراء القوم الذين لا أعرف منهم أحد.

وفي ساحة الكنيسة، تباهت بي فاليريا أمام الجميع، وقالت إنها تمنحني للخدمة في البيمارستان، وأنها بسبب من سلوكها المسيحي الصالح فقد جعلتني أترك ديني، سلم علي كثيرون منهم الراهب الذي رأيته في بيت فوريك ينادي على الفلاحين ليحصل منهم

ثمارهم، وقد لاحظت أن كثيراً ممن سلم علي فعل ذلك دون كبير احتفال أو اهتمام، ويمكن لي أن أقول إن الاحتفال كله ماكان ليكون لولا مركز الفيسكونت وزوجته، أو ربما ماكان ليكون لولا رغبة فاليريا بترتيب حدث مختلف، وقد صدق ظني إذ أن زوجها حصل بعد أيام على رتبة جديدة منحها له الملك أمالرك، وأن الاحتفال بي لم يكن إلا ذريعة.

ولم أعرف أن اسمي تغير إلا بعد أن ذكرت لي فاليريا أن الراهب الذي قاد الصلاة في الكنيسة قد أعلن للحشد أن اسمي قد أصبح ريمون وأنني على دين البابا نفسه، ولأن الإنسان اسمه، فقد خامرني شعور بأن ريمون يختلف تماماً عن عمر، وأن لي حقوق ريمون وحريته وانطلاقه، وعجبت لنفسي أشد العجب وأنا أحاول أن أبدو ريمون الذي يدين بدين البابا نفسه.

قدمتني فاليريا لبعض النسوة اللواتي يبدو عليهن الأهمية والخطورة، نظرن إلي بعين الخبير المدقق، سلمن ببرود ظاهر رددت بمثله، فمن حق ريمون أن يكون بارداً إذا شاء.

وفي البيمارستان المجاور، التقيت الأخت فيرونيكا، القوية والنشيطة والهادئة، استقبلتني بترحاب كبير، ودعتني بالأخ، وهو ما أطربني أشد الطرب، وأحسست حقاً أنني ريمون وليست عمر الزين من بيت فوريك. أجلستني أمامها في حجرة ضيقة ليس فيها سوى مائدة صغيرة عليها شموع وكتاب سميك وتماثيل صغيرة من الخشب لسيدنا عيسى. شرحت لي الأخت فيرونيكا عملي داخل البيمارستان حيث توجب علي الاهتمام بالحديقة المحيطة والاهتمام بالمرضى في حالة عدم وجود ما يشغلني فيها، هذا مع ضرورة حضور جميع الصلوات والدروس التي سيلقيها علي الأب كلود عصر كل يوم حتى أصبح مسيحياً يضرب بي المثل كما قالت الأخت فيرونيكا.

ثم أضافت قائلة: هذه ستكون حجرتك منذ اليوم، للنوم فقط، أما قاعة الأكل والدرس ففي الجناح الآخر المقابل.

هززت رأسي علامة الفهم، فتناولت صرة من تحت المائدة، قدمتها لي وهي تقول: وهذه هي ملابسك منذ اليوم.

ابتسمت في وجهي وخرجت، عندما لبست الثوب الذي قدمته لي وشددت خصري بالحبل الخشن، سألت نفسي: أين عمر من ريمون، وأين ريمون من عمر؟!...

كان الثوب من الكتان الخشن، بلا سراويل فقيراً من كل شيء، خلا من الجيوب أو الثنايا، وبلا لون تقريباً، شيء يدعو إلى التواضع والإحساس بالضآلة، ما الذي يلم بجسدي وروحي؟!... ملابسنا جزء منا!!... أحسست بأني تقدمت بالعمر فجأة، وأنني أقف على مسافة بعيدة من قريتي الفقيرة وبيت والدي المتواضع. أحسست أنني أمشي

على حبل مشدود فوق هاوية سحيقة. استجرت بالله لأحتفظ بدماغي وقلبي ومقصدي، كنت كالسلاح الذي يبحث عمن يستعمله، أو كالمصباح الذي لا يعرف لمن يضيء، لم أجد غير الله لألوذ به من هذا الجنون الجديد الذي يلم بي.

الأب كلود، الراهب الذي له سحنة محارب وجسده، بدأ دروسه بصرامة شديدة، وعندما علم بأن والدي يعمل قاضياً وأنه علمني القراءة والكتابة والحساب وبعض الحديث والفقه، غرق في لجة تفكير عميق، ثم رفع رأسه وقال لي إنه يطلب مني أن أفرغ رأسي من أية علوم سابقة، لأن ما سيعلمني إياه لا يحتمل المقارنة، فبدأ بقصة سيدنا عيسى وميلاده حتى صلبه، ومن ثم عودته بعد ثلاثة أيام حياً يرزق، وانطلاق الرسل إلى الأمم يكرزون بالبشارة، وما رافق ذلك من عهود ظلم وجور تعرض لها المسيحيون الأوائل، أمور لم أسمع بها يوماً من الأيام ولم تخطر ببالي، ولكن . ورغم هذا كله . فقد قارنت بين ما أسمع وبين ما عرفت من سيرة سيدنا محمد وصحبه فوجدت أن الفكرة العظيمة تحتاج عادة إلى أناس عظماء لا يشبهوننا ولا نطيق ما يطيقون.

واستغربت أن الأب كلود لا يشاركني إيماني وإنه لا يستطيع أن ينظر إلى دين الناس الذين يحاربهم، وإنه إذا كان يؤمن بالله الخالق المبدع، فلماذا ينكر هذا الإيمان على غيره من الناس، وإذا كان يؤمن بالخوارق والمعجزات التي جرت على يدي الرسل فلماذا لا يؤمن بمعجزات الديانات الأخرى، وقد وصلت إلى أن التعصب لما نحن فيه ولما نحن عليه هو ما يجعلنا نحن، وإنه دون هذا التعصب القائم على ما لا نعرف أيضاً، فإننا لن نعود نحن، بل إننا لن نستطيع أن نحدد الاختلاف عن الآخرين، وقد أقنعني الأب كلود بتصرفه لا بكلامه إننا بحاجة إلى تعصب ما حتى نميز أنفسنا عن الآخرين، ولا حاجة إلى البحث عن براهين لتأكيد أو تبرير هذا التعصب.

التعصب لا يحتاج إلى براهين، بل يحتاج إلى كثير من الأنانية والغضب، وهذا ما وجدته لدى كلود بطريقة كرهته فيها إلى أبعد حدود، فقد تعرض لسيدنا محمد بكلام لا يليق واتهمه بكل شائنة، وكان يدعوه "ماهوند" أثناء الحديث عنه، واتهم أصحابه بالشذوذ والدموية، ذلك أنهم أقلعوا عن شرب الخمر الذي يرقق الحاشية ويرهف الوجدان، وقال إن القرآن الكريم مأخوذ عن التوراة في كلامه عن الحقوق ومأخوذ عن الإنجيل في كلامه عن التسامح والحب، ولكنه تقاصر عن الكتابين المقدسين.

وقد تحملت ذلك كله وأعانني الله عليه رغم ما كنت أشعر به من تأنيب وذنب، كنت في داخلي أرغب في تمزيق الراهب ووجهه. الفظ الذي لايليق بوجه راهب، ولتراكم الغضب والشعور بالذنب، صرت أغلق على نفسي الحجرة وأصلي صلاة نافلة طويلة وممتعة، عندها، وفي تلك اللحظة، أستعيد اسمي ووجه والدي ورائحة أمي وبيادر بيت فوريك اللامعة تحت الشمس، وقد دفعني ذلك إلى أن أجعل من سري ذي قيمة، ودفعني أيضاً إلى الإحساس بالأهمية والخطورة، وأنني أمارس ما لا يعرفون وأخفي عنهم ما لا

يتوقعون، وهذا علمني هذا الهدوء والثبات والكتمان ودقة الملاحظة والاهتمام بالتفاصيل إلى درجة فائقة، فقد اكتشفت أن لدي ذاكرة عجيبة، استطعت معها أن أتعلم لغة الكتاب المقدس بسرعة أدهشت الأب كلود والأخت فيرونيكا.

هذا ما كان من أمر الأب كلود ودروسه، أما ماكان من أمر العمل في الحديقة فقد كان ذلك الجزء الأكثر إثارة في يومي الحافل في ذلك البيمارستان الذي يسير على نظام الأديرة كما قيل لي، إذ عملت بادئ الأمر مساعداً للأب ميشيل، وهو راهب هرم يتعب بسرعة، سرعان ما يغرق في عرقه ولهاثه فيتهالك ثم لا يعود ينهض طيلة اليوم، ويكتفي من ذلك بإعطائي الأوامر أنفذها كيفما اتفق، وكان هذا معنياً بزراعة الأعشاب الطبية كالبابونج والقزحة، والثوم والبصل والفجل،والشومر واليانسون والنعناع والزعتر، بالإضافة إلى الليمون والرمان والكرمة واللوز والجوز والصبار والخشخاش، والورود أيضاً كالقرنفل والأكاسية والريحان والنرجس، والخضروات كالكرات والقثاء والقرع، ولما كانت الحديقة صغيرة الحجم لا تتجاوز مساحتها كاريوكاً واحداً . والكاريوكا بلغتهم تلك الأرض التي يحرثها ثور واحد في يوم واحد . فقد كان عملي سهلاً إلى حدٍ ما، ومثيراً إلى أبعد الحدود، ففي الصباح أقدم للأخت اليزابيث . العجوز المتجهمة دائماً . سلة كبيرة من الثمار والخضروات تدخلها إلى المطبخ المجاور الذي تتصاعد منه روائح ونكهات غريبة لا أستسيغها، ثم أتفقد جوانب الحديقة بالكامل، أرعاها كما ينبغي، سقاية وتشذيباً ونكشاً وإزالة للضرر، ثم أقعد أترصد مجيء الراهبات صغيرات السن، اللواتي يأتين للقراءة أو التريض أو مرافقة المرضى والجرحى من المحاربين الذين يصلون من أرض المعارك الكثيرة التي تدور في بلاد الشام.

ولأنني ريمون، حديث المسيحية، الذي همست فاليريا حولي ما همست، فقد كنت محط اهتمام الراهبات اللواتي ينشرن حولهن هالة تفتنني حقاً، فهذا الجمال الهادئ والوقار الأنثوي وتلك الرقة الشبيهة برقة الفراش في أيام الربيع، تصيبني في أعماق قلبي، ولكن، ورغم كل ذلك، تعلمت أن أخفي ما يضطرم به قلبي فلا يظهر على وجهي.

الراهبات صغيرات السن، اللواتي تجنبن الحديث معي في البداية، بدأن ذلك على ما يشبه الاستحياء، ثم صار ذلك عادة محببة، واكتشفت أن هناك راهبات من جنس الإفرنسيس وأن هناك راهبات من جنس الطليان، وهن أجمل وأكثر لطفاً، ومن بين أولئك استوقفتني الأخت فرانشيسكا، وهي امرأة لم تتجاوز العشرينيات من عمرها، لها وجه يقطر جمالاً وابتهاجاً وفيه ما يدعو إلى الحياة والطرب، فعيناها الواسعتان الخضراوتان يتراقص فيهما شوق عارم لما سيأتي، أما شفتاها الغليظتان النافرتان إلى الأمام قليلاً،

فهما دعوة مباشرة وواضحة لكل ما يثور في الصدر، وعندما حدثتني بلسانها الذي يختلف عن لسان الإفرنسيس، دق قلبي بقوة ناقوس الكنيسة القريبة، لسان الطليان، ناعم ورخو وفيه غنج لا يطاق وموسيقى ذات وقع مثير.

قلت لها وأنا أكظم ما في صدري وأخفي ارتعاش يدي: حدثيني بما أفهم.

شفتاها النافرتان الغليظتان قالتا: لماذا لا تتعلم لغتي؟...

قلت وأنا أستعيد ذكرى فاليريا: أتمنى ذلك!

الشفتان النافرتان الغليظتان قالتا: اطلب ذلك من الأخت فيرونيكا.

الأخت فرانشيسكا مدت يدها البيضاء، الناعمة، الرقيقة، وكأنها الوردة في كمها، لمست جبيني وقالت: إنك تنزف عرقاً!!...

أغرقت عينيها بعيني، عندئذٍ انهرت، ولم أستطع المقاومة. جلست على مقعد حجري قريب، قلت: لا أستطيع... مستحيل. كانت تلك المرة الأولى التي انكشف فيها على هذا النحو، ولكني فوجئت بالمرأة تقول: انتظرني عصراً في حجرة الأب ميشيل، قالت ذلك بصوت المؤامرة ثم انطلقت، كان ذلك أكثر ما توقعت وأسرع مما توقعت.

حل العصر بغمضة عين، نام الأب ميشيل في حجرته التي يستعملها للنوم وتحضير الأدوية والمراهم، هو عادة ينام عصراً كعادة أهل الشام ومصر، أما حجرته فكانت واسعة يستعملها لنومه ولتحضير الأدوية والمراهم، فهناك على حامل خشبي طويل عشرات الأوعية الزجاجية المملوءة بأوراق الشجر أو جذور الأعشاب، معظمها بالعربية وبعضها باللاتينية.

وعندما ينام الأب ميشيل فهو عادة لا يصحو إلا على دقات الكنيسة تعلن صلاة المساء، لبدت بالقرب من باب الحجرة الذي يفضي إلى الحديقة، فالباب الآخر الذي يفضي إلى باحة البيمارستان لا يستعمله إلا الأب ميشيل.

كنت أترقب فيما كان قلبي يضرب جدران صدري بشكل مؤلم، توتري بلغ مداه وأنا أعرف خطورة ما أنا مقدم عليه,ولكني لم أتوقع تدبير الراهبة، فقد جاءت وهي تساند عجوزاً محطماً يتفاهم معها بالإشارة. وما أن وصلا إلى باب الحجرة حتى أجلسته على مقعد حجري قريب، ثم انسلت إلي تسبقها راحة صابون زكي اشتهرت به مدينة نابلس، أسكرني ذلك بلا حدود،شعرت بدوار في رأسي.

اندفعت إليَّ بلغة الإفرنسيس التي نتفاهم بها عادة: جئت بهذا الحاج من بلاد الدنمرقة حتى أجد ما أبرر به الخروج في هذه الساعة. لم أدر ما أقول، أخذتني المفاجأة وهذا الحضور الكثيف الصاعق، وتلك الشفاه الغليظة النافرة، وهذه الجرأة العالية.

قالت بلهجة مختلفة عن تلك التي تتحدث بها الراهبات عادة: أراك صامتاً.

قالت: أنت... أنت.

قالت وهي تشمل المكان بنظرة واحدة: شخير الأب ميشيل مضحك.

وجدت ما أقول: إنه لن يصحو.

قالت ببساطة: أعرف.

تفاجأت حقاً: هل تعرفين؟!...

قالت: أعرف ذلك قبلك.

الراهبة فرانشيسكا كانت من جمعية الإسبتارية فيما كان البيمارستان يخص جماعة الداوية وهم من الإفرنسيس، وعرفت فيما بعد أن فرانشيسكا كانت على خلاف مع الأخت فيرونيكا، ولكن هذه لم تستطع أن تشكم تهور الراهبة صغيرة السن، وقد حدثتني فرانشيسكا بكلام شائن عن الأخت فيرونيكا إذ اتهمتها بأنها كانت امرأة سيئة السمعة في حاضرة كبيرة ببلاد الإفرنسيس تدعى مرسيلية، ولكنها ادعت قدرتها على شفاء المرضى بالصلاة أو باللمس، فصدق الناس ذلك، حتى قيل إنها استطاعت إشفاء ملك الإفرنسيس نفسه بمجرد أنها لمست ذراعه، وأنها رغبة منها في إظهار تقواها وورعها وصدقها، فقد قصدت البلاد المقدسة حيث قبر المسيح لتخدم المسيحيين المحاربين، والحجاج وكل طالب حاجة.

الراهبة فرانشيسكا كانت تقص علي ذلك بسخرية، وتزيد من سخريتها عندما تقول أن أكثر الأكاذيب شيوعاً وتصديقاً هي الأكاذيب التي ينشرها بعض الرهبان عن قدراتهم ومعجزاتهم، فلما سألتها عن سبب اختيارها الرهبنة، قالت: إنها أجبرت على ذلك، فهي ابنة غير شرعية لأحد فرسان جمعية الاسبتارية الذي رفض الاعتراف بها، فاضطرت أن تحيا هكذا من دير إلى دير، فهي راهبة رغماً عنها، لا تعرف أماً ولا أباً، وفي حديث آخر ذكرت لي أنها ليست راهبة بل خادمة ولكنها تضطر أن تلبس لباس الراهبات حتى لا تثير النظر، وفي حديث ثالث قالت لي أن الأخت فيرونيكا تفكر بطردها من البيمارستان، هكذا كانت فرانشيسكا، لا يعرف صدقها من كذبها، أو جدها من هزلها، ولكنها كانت مثل عسل النحل أول موسمه، حلواً لاذعاً، تتكشف حلاوته قطرة بعد قطرة، وتزداد حلاوته قطرة بعد قطرة.

ولما قلت للأخت فيرونيكا أن هذه الراهبة ستعلمني لغتها، فكرت هذه قليلاً، ثم رفعت حاجبيها، وقالت: أعرف أنك موهوب باللغات، فقد ذكر لي ذلك الأب كلود، ولكن.... ألا تعتقد أن الأب ميشيل قد يكون أكثر ملائمة لك؟...

قلت، وأنا أخفي عيني: الأب ميشيل عجوز يقضي وقته في النوم.

رمقتني الراهبة القوية بعينيها المتفهمتين، طال صمتها قبل أن تقول: لك ذلك ولكن

بشرط أن لا يؤثر هذا على عملك في الحديقة أو على دروسك مع الأب كلود.

قلت ولا زلت أخفي عيني: لك ذلك أيتها الأخت المباركة.

هل فهمت الأخت فيرونيكا ما وراء طلبي؟!... هل عرفت سر ما يجري في حجرة الأب ميشيل؟!... لا أدري

عندما نقلت ذلك لفرانشيسكا ضحكت هذه بصوت عال بدا غريباً في المكان، وقالت: كان يجب أن توافق. فأنا أعرف أسرارها.

–وهل لهذه أسرار؟!..

أكملت ضحكتها: هذه هي التي تملك كل الأسرار.

وفيما كان الأب كلود مطمئناً إلى تقدمي في دروسه بأسرار الدين المسيحي وتاريخ قديسيه، كان الأب ميشيل مطمئناً هو الآخر إلى تقدمي في دروسه حول الأعشاب والنبات في الحديقة والمعمل، حيث صرت قادراً على استخلاص الأدوية من الأوراق والأعشاب والزهور والبذور، والجذور واللحاءات، وصرت قادراً على صنع الصبغات والزيوت والمراهم، ذلك أن الأب ميشيل كان يستعين بي في بعض الأحيان بترجمة فقرأت من كتب الطب والأعشاب التي لديه بالعربية، حيث كان يملك كتاب ابن البصال في الأعشاب، وكتاب ابن زهر في الطب، وكتاب علي بن عباس المجوسي الذي وسمه بالكامل في الطب وكذلك جزء واحداً من كتاب القانون للشيخ الرئيس ابن سينا، هو ذلك الجزء الذي وصف فيه المؤلف سبعمئة وستين دواءً مختلفاً لكل مايمكن للإنسان أن يصاب به. فيما كان ذلك كذلك، كنت أتعلم من فرانشيسكا كل شيء، اللسان والجسد والحياة الصعبة على الفهم، كانت أكبر من عمرها بكثير، ذلك أنها عاشت في أديرة كثيرة ورأت كثيراً من الناس. قالت لي أن جماعة الهسبتالية أو الإسبتارية هم المدافعون عن تجار بيزة وجنوة والبندقية، ففي الوقت الذي يبني فيه هؤلاء القلاع والأديرة ويحصلون على الإقطاعيات، فإن أولئك التجار يحصلون على أحياء جديدة وموانئ رخيصة وأرض خصبة في بلاد الشام. وفيما هؤلاء يخدمون المسيح فإن أولئك يخدمون البيزنت والفلورين، وأين أنت من كل هذا يا فرانشيسكا؟!

قالت هذه: أنا مجرد امرأة لم يعترف بها والدها الفارس المحارب المؤمن الصالح؟!...

–ولماذا لم يعترف بك؟؟

–لأنه أنجبني من امرأة عاهرة جاءت مع من جاء من المحاربين إلى الأرض المقدسة؟!..

–بماذا تؤمنين يا فرانشيسكا ؟!..

–أؤمن بنفسي، بحريتي، ولا أصدق الكهنة.

–ولكنك تعيشين معهم؟!...

–إلى حين، سأعود يوماً إلى بلادي.

–وهذه، أليست بلادك؟..

–نابلس... هذه ليست بلادي... هنا يعيش المحاربون وليس الناس... إننا نعيش هنا في توجس كبير وحذر أكبر... كل شيء حولي يذكرني بالموت...

قلت لها بحذر شديد: ولكنك تعيشين حياتك كما تريدين... لقد عرفت أناساً قبلي.

ضحكت بصوت عالٍ، ضحكت بحرية لا يعرفها أحد في هذا المكان: وهل تحسب أنك الشاب الأجمل في الدنيا. وهل تعتقد أن الأب ميشيل ينام حقاً عندما أدخل حجرته.

صعقتني المفاجأة، لم تحملني ركبتاي، أحسست بالعري والخجل وقلة الحيلة، إذاً كان كل ما جرى، تم بتدبير محكم، حتى الأخت فيرونيكا كانت على علم بما يجري.

تضاءلت حتى رغبت بالتحول إلى هوام الأرض. هالني أن كل شيء يتم بهذا الرضى وهذا الاكتمال وهذا التكتم.

وقعت مريضاً بالحمى، واضطر الأب ميشيل إلى معالجتي بمنقوع الحبة السوداء وخل التفاح، وما أن تماثلت للشفاء حتى قال لي الأب ميشيل أنني كنت أهذي باللغة العربية، حدقت فيه لأرى سري على وجهه، كان بسحنة جامدة لا تظهر شيئاً، كان عجوزاً جداً ينتظر الموت، ولوهلة ما، شعرت أن لا سعادة له في هذه الحياة سوى أن يسترق النظر.

جاءتني الأخت فيرونيكا، جلست بالقرب من الحشية الليفية التي كنت أنام عليها. جاءت بهدوئها وعينيها المتفهمتين وشذى الحنو والطيبة. لم يخدعني المظهر إطلاقاً.

قالت بصوت خفيض: يجب عليك أن تشكر الرب كثيراً.

لم أرد، تدخل الأب ميشيل: وعليك أن تشكر الأخت فيرونيكا التي لم تفارقك.

نظرت إليها أستطلع ما تخفي هاتان العينان المتفهمتان، لا شيء فيهما.

ابتسمت برقة بالغة. قالت: أريدك أن تترك الفراش، بعد غد سيزورنا أمير عربي شهير، وأرغب أن تترجم له ولنا.

لاشيء عن الفضيحة، ولما قمت من فراشي ولمست قدماي الأرض أحسست بطعم آخر لكل ما جرى، لم أندم إلا على شيء واحد فقط، هو أني كنت مكشوفاً وضعيفاً ومخدوعاً. ولا أعرف ما الذي يجري تحت أنفي، فوطنت نفسي على أن لا أكون كذلك

أبداً. الآن، وأنا أتولى العيون والجواسيس لسيدي ومولاي صلاح الدين، أعرف تماماً مامعنى اكتشاف السر والاحتفاظ به والبحث من أجله، يجب أن لا يكشف المرء للآخرين ومن ينكشف فهو مجرد أخرق وغبي ولا يستحق الشفقة. عندما قمت من مرضي، أتمشى في الحديقة شعرت حقاً أنني بدون ملابس، كانت الخديعة تدفعني إلى الضحك، وذلك أنها بدت وكأنها لعبة كنت الأغبى فيها أو الغبي الوحيد.

جاءتني فرانشيسكا عصراً تجر وراءها محارباً بالكاد يسير، خاطبتني بلغة الفرنجة والإفرنسيس لأن المحارب يفهم لسانها الأصلي كما قالت، سألت بسخرية: هل استطاعت الدجالة فيرونيكا إشفاءك بلمستها المباركة.

قلت بجفاف: إنها لا تدعي القداسة كما تدعين، بل هي تدير المكان ليس إلا.

ضحكت بخفوت: أنت جميل فقط.

غضبت حقاً، رأت ذلك على وجهي، تراجعت وقالت: نحن لا نستطيع الحياة دون بضعة أكاذيب.

قلت: وخداع.

–وهذا صحيح أيضاً.

–لماذا؟!...

–أنالا أعرف.

قلت وأنا أرغب في إذلالها: ادخلي!!...

نظرت بعينين متآمرتين، زمت شفتيها النافرتين اللتين لا تقاومان: أنت مريض!!...

قلت: لا عليك..

الحياة لا تدرك، وتحتاج بضعة أكاذيب لتصبح أسهل وأمتع، والحياة –هذه المباركة– لا تفترض منا حسن النية ولا سلامة السريرة، للشر حكمة، وللخطيئة حكمة، ونحن ناقصون، ناقصون بالشوق والتشوق والأمل، إن الأحلام والآمال هي مجرد ما يشعرنا بعدم امتلاكنا ناصية أي شيء.

فرانشيسكا كانت تسعد الكل بما تستطيع وكيف تستطيع.[1]

---

(1) *إن كاتب هذه السطور وبينما هو يحقق في مصائر الناس في تلك الحقبة البعيدة، اكتشف أن طائفة حلولية انحلالية ظهرت في القرن الرابع عشر الميلادي ثم اضمحلت أو كادت في القرن الثامن عشر، اعتبرت فرانشيسكا قديسة لما أظهرته من تفان في العطاء وقدرة على استبصار الحقيقة من خلال تحطيم القواعد والقوانين باعتبار هذه تحد من التشوف الإنساني للحرية المطلقة، التي تشبه حرية الإله، فرانشيسكا وحسب هذه الطائفة المضمحلة استطاعت أن تثبت من خلاله سلوكها الفذ افتقار كل شيء للمعنى، وذلك من خلال تفكيك*

استيقظت صباحاً على جلبة، دخل الأب ميشيل وهو يلهث، قال لي أن الأخت فيرونيكا تطلبني حالاً، فالأمير العربي في طريقه إلى البيمارستان. لبست رداء الكتان الخشن، سرحت شعري الذي يصل إلى أكتافي، شاعراً ببعض الإثارة ذلك أن هذا هو العربي الوحيد الذي سأتحدث معه منذ سنوات، هنا، بين الإفرنج، لا يطلقون على من حولهم كلمة العرب، بل المسلمين أو الأتراك أما الأب كلود فهو الوحيد الذي يستطيع وصف الناس بدقة ولكنه يتكلم عنهم باحتقار شديد، الآخرون ممن أراهم من الرهبان والأطباء والمحاربين أو الحجاج فإنهم يتحدثون بكراهية واضحة عن المسلمين وعن قطاع الطرق واللصوص ويعتبرون المسلم مجرد حيوان كريه الرائحة يحب الدم ويكره سيدنا المسيح.

قالت لي الأخت فيرونيكا وهي منفعلة بحيث احمرت وجنتاها فبدت أكثر جمالاً وبهاءً: أهلاً بك أيها الأخ ريمون. نحن بحاجة إليك هذا اليوم.

قلت ومشاعر الإثارة تتزايد: أنا رهن إشارتك.

قالت بانفعالها الذي لم أشاهده على وجهها منذ أن التقيتها: يزورنا اليوم عربي طبيب، أمير قلعة، وصاحب معجزات، أريدك مترجماً له وللمرضى.

قلت: ومن هذا العربي الطيب؟!...

قالت: شيخ الجبل... أمير قلعة مصياف وصاحب قلاع أخرى.

كانت تلك المرة الأولى التي أسمع بها بهذا الاسم، كان للاسم وقع مثير في أذني وفي قلبي.... شيخ الجبل!!.. أنا الذي لم أعرف الجبال وما الذي يوجد فيها، شعرت باستفزاز عجيب دب في جسدي.

وعندما دخل الأمير من البوابة الكبيرة للبيمارستان تحيط به حاشيته، وكذلك زوج فاليريا الذي أصبح مركيساً أو مركيز بلغة الافرنسيس، فقد سحرت به، سحرت بالأناقة الشديدة والطول الغامض والعينين النافذتين الآسرتين، كان متوسط الطول، يضع عمامة بيضاء تتوسطها ياقوتة حمراء كبيرة، مزنرة بسلسلة من الذهب شد إليها عدد من المفاتيح الصغيرة والنجوم السداسية تهتز كلما حرك رأسه الضخم الجميل، أما ملابسه فكانت أعجوبة حقاً، بذلك الثوب الحريري الأحمر الموشى بخيوط الذهب من أطرافه وأكمامه، وحزامه الأسود الغليظ، وعباءته القرمزية التي وشمت بتصاوير وخطوط متشابكة باللونين الأسود والأصفر. تقدم تسبقه رائحة عميقة وآسرة، تقدم بوقار كبير،

المعنى نفسه ونقضه من أساسه، إلى ذلك، فإن كاتب هذه السطور فوجئ أيضاً عندما قرأ أن شركة إعلامية كبيرة تنتج أفلاماً إباحية قد أطلقت على نفسها اسم فرانشيسكا واتخذت شعارها التجاري من صورة راهبة تكشف عن مؤخرتها الفسيحة.

اصطف الرهبان والأطباء من الفرنجة والسريان والأرمن والموارنة، سلم عليهم شيخ الجبل بكامل الأبهة والوقار، في آخر الجمع كانت الأخت فيرونيكا، وعندما وصل إليها شيخ الجبل، انحنت هذه بعينيها المتفهمتين وهدوئها وطيبتها وحمرة خديها، وقبلت اليد التي مدت إليها، ولدهشتي فقد رفعها شيخ الجبل إليه، بأن مد يده تحت ذقنها وشدها إليه، طاوعته كالمسحورة، قال لها شيئاً برطانة لم أسمع مثلها، فانهمرت دموعها ببطء وهدوء، دهش الجميع، علت همهمة مكتومة، صاح راهب أو اثنان: ليتبارك اسم الرب!!...

مشت الأخت فيرونيكا وراءه وهي مطأطأة الرأس، ساكنة الحواس وكأنها سحرت. ولما دخل شيخ الجبل قاعة المرضى التي تغمرها الشمس وتعبق برائحة الليمون والصنوبر، تهللت وجوه المرضى من المحاربين والحجاج الذين أتوا من بلاد وراء البحار.

عندئذٍ تقدمت بين يدي شيخ الجبل وقلت له بالعربية: أنا سعيد بقدومك أيها الأمير، وأتشرف بأن أكون الترجمان بين يديك. رفع إلي عينيه النافذتين، اللتين يصدر منهما خيوطاً تفكك العظام وتبهر الإنسان. قال ببطء لذيذ يدخل اللحم: هل أنت بولاني؟!كان يقصد أولئك الذين ولدوا من إفرنجي وامرأة من أهل البلاد.

قلت: لا يا سيدي، والدي ووالدتي من أهل البلاد، والدي قاض من بيت فوريك، لاحظت اهتمامه: وماذا تعرف من اللغات.

قلت وأنا أشعر بالإثارة: لسان الإفرنسيس والطليان واللسان اللاتيني.

ارتفعت درجة اهتمامه: كل هذا وأنت شاب؟!..

قلت متحذلقاً: اللسان الجديد عقل جديد... وعمر جديد...

سأل وهو يغرز عينيه في عيني، فأشعر بجسدي ينحل: هل تعرف لسان اليهود؟!...

قلت بضعف: لا.

قال وهو يتقدم في القاعة: لك عندي أمر بعد أن ننتهي من هذا.

صرت أترجم له ما يقوله المرضى، وأترجم عنه ما يقول، أعجبتني سطوته على الجميع، أعجبني أنه محط اهتمامهم واحترامهم وخشوعهم.

كان بلمسة واحدة من يده الضخمة المعروقة المشعرة، يضخ قوة عجيبة في الضعيف والمتهالك والميؤوس منه. عجبت لما يملك الرجل في يديه وعينيه، عجبت لما يجري حقاً، أما الرهبان الآخرون فقد كانوا يتصايحون في كل مرة: ليتبارك اسم الرب.

أما الأخت فيرونيكا فقد ظلت متعلقة بأذيال شيخ الجبل لا تفارقه، وللحظة ما رغبت أن أقول للرجل عن سري الذي أحافظ عليه، رغبت أن أقول له أنني ما زلت

مسلماً وأنني أصلي في السر ما وسعني ذلك، ولكن، وفي اللحظة الأخيرة، امتنعت عن ذلك تماماً. إذ قلت لنفسي أن امتلاك سر خير من إذاعته، وأن إذاعة سرك يعني أنك بلا ثمن ولا قيمة، الأسرار ثروة حقيقية والانكشاف مجرد خزي لا يطاق.

وعلى مأدبة الغذاء التي أقامتها الأخت فيرونيكا، التقيت هناك بأسقف صور الذي وصل متأخراً، وهو رجل قصير القامة ضخم الكرش أصلع الرأس، له أسنان عريضة كأسنان الخيل، ويتحدث العربية جيداً، وقد انخرط في حديث هامس طويل مع شيخ الجبل لم أسمع منه شيئاً ولكنهما استدعياني في نهاية حديثهما، فنظر إلى الأسقف وليم وسألني عما إذا كنت أتقن اللسان الإيطالي والإفرنسيسي جيداً، فأكدت ذلك تماماً، وسألني عن عملي في البيمارستان، فذكرت له كل شيء بالتفصيل، فعاد بالكلام معي بلسان الإفرنسيس، فجاوبته خير إجابة، عندئذ قال لشيخ الجبل بالعربية: أعتقد أننا وجدنا ما نريد.

لم أفهم شيئاً، ولكن المائدة كانت قد اكتملت، ولأول مرة آكل ما أحب أن آكل، إذ قدم لحم الضان بالبصل والحمص والدارصيني، وكذلك الدجاج المعرق بزيت السمسم، والفول النابت المقلي بزيت الزيتون، أما الحلوى فكانت ناطفاً من الخرنوب، وقد أكلت حتى لم أعد أميز بين الألوان أو الأشخاص، وفقد شيخ الجبل سحره علي، فذهبت إلى غرفتي لأنام، ولم أصحو إلا بدقات جرس الكنيسة يدعو إلى صلاة المساء. وقد اختلت بي الأخت فيرونيكا بعدها لتقول لي إن شيخ الجبل طلب أن أذهب معه إلى قلعته البعيدة لأعمل ترجماناً لديه. فوافقت بسرعة ندمت معها إذ لم أظهر أدنى تعاطف مع المكان الذي عشت فيه مدة طويلة من الزمن. في تلك الليلة جاءتني فرانشيسكا إلى غرفتي، وهذا ما لا يحصل عادة، وهو خرق لما اعتاد عليه الناس هنا، ودعتني كما طاب لها أن تفعل، أعطتني خصلة من شعرها وطوقاً جلدياً كانت تعلقه في رقبتها لفتة على رسغي الأيسر، طلبت مني أن أتذكرها دائماً، ثم انطلقت في الليل باتجاه مهجع الراهبات الصامت.

في الصباح، كنت مستعداً للرحيل، وإذا بالأب ميشيل يأتي بلهاثه وعرقه رغم الساعة المبكرة، دفع لي بكتاب علي بن عباس المجوسي وقال لي أن أحافظ عليه مثل حياتي لأن شيخ الجبل طلب منه ذلك، وبينما هو يودعني بكلمات طيبة، فوجئت به يقول: لقد كنت كريماً يا ريمون، معي ومع فرانشيسكا، إنها لم تحب شخصاً مثلك.

قال ذلك وخرج من الغرفة باتجاه الحديقة.

في الباحة الرئيسة للبيمارستان، رأيت شيخ الجبل وحاشيته وبعض الأطباء الفرنجة والرهبان مستعدين للرحيل، أعطيت بغلاً قصيراً لأركبه.

قال لي شيخ الجبل على مسمع: هل تريد شيئاً من هذا المكان يا ريمون غير ما

تحمل؟!!

قلت برجاء: أرغب في زيارة والدي ووالدتي في بيت فوريك يا مولاي.

قال: لك ذلك.

غادرنا نابلس صباحاً، نابلس التي لا تنسى، جئتها عمر الزين وخرجت منها ريمون، أحسست بأنني كبرت مئة عام مرة واحدة، كنت قد تغيرت تماماً. أنا الآن في حاشية أمير خطير يدعى شيخ الجبل، تتقدمه كوكبة من فرسان الفرنجة تحميه من مخاطر الطريق.

وما إن شارفنا على بيادر بيت فوريك حتى فوجئت بالحقول المهجورة والأشجار المهملة، دخلنا على حذر وتوجس، وعجبت لحال القرية، ومن بقي فيها، بالكاد عرفني واحد أو اثنين، تحدثا بخوف ظاهر، سألت عن والدي ووالدتي، قالت لي عجوز لا أسنان لها أنها ماتا في زمن متقارب لما علما بأنني تنصرت. شعرت بدوار في رأسي وألم في صدري، بالكاد ركبت على البغل، لقد فات الوقت لأقول لوالدي أنني حافظت دائماً على ديني، انطلقنا في الطريق شمالاً وأنا أعاني غاية الكمد.

ينخلع قلب المرء لمرأى المرأة، وقد انخلع قلبي كما ينبغي له، فما أن وصلنا مصياف مع دخول الشتاء، حتى تركني شيخ الجبل أنعم بكل طيبات الحصن الحصين إذ يقوم هذا على جبل عال وقاس يصعب تسلقه، والناظر إلى الجبل لا يمكنه توقع بناء حصن مثل هذا على قمة تكاد تلمس الغيوم، فلا طريق لاحبة ولا ظاهرة ولا يوجد ما يشير إليها أبداً، فإذا تجاوزت القريتين أو الثلاثة التي تلتجئ إلى أقدام الجبل، تجد طريقاً ملتوية رفيعة كأفعى تبدأ من تحت صخور هائلة تقودك إلى أنفاق نصف معتمة في مغارات تسيل على جوانبها مياه مغطاة بالطحالب وأعشاب الماء، وستنتبه إلى مواقع قدميك، فالطريق زلقة وخطرة، ولا يمكن التنبؤ بها، وينتابك إحساس بالخوف والرهبة، فيما تستمع إلى أصوات مبهمة وغامضة آتية من الشقوق الكثيرة، وتفقد الإحساس بالاتجاه فلا تعرف فيما إذا كنت صاعداً أو نازلاً. وما أن تجاوزت طريق المغارة، حتى واجهتني طريق أخرى مختلفة، طريق مبلطة ببلاط أبيض مصقول، تحف بها أشجار قصيرة شديدة الاخضرار لا ثمر لها، وتنتهي ببوابة حديدية ضخمة ذات أربعة مصاريع ومسامير ضخمة غليظة، يقف على باشوراتها حراس لا تبين وجوههم أمامهم أوعية نفط كبيرة، والبوابة هذه ليست جزء من سور مبني بل تقوم بين صخرتين ضخمتين كتب على أحدهما: الداخل في سعد والخارج في نكد.

وفتحت البوابة دون أن نرى من فتحها، وأغلقت كذلك دون أن نرى من أغلقها، وما أن أصبحنا في الداخل حتى واجهتنا القلعة المهولة، واكتشفت أننا كنا على جسر خشبي يصل مابين البوابة وباب القلعة، نظرت تحتي، فرأيت وادياً عميقاً ينادي إلى الفناء، واد سحيق بعيد الغور يبعث القشعريرة في الصدر والانحلال في الركب. مشيت محاذراً شاعراً بأنني مخدر، أما القلعة التي أمامنا، فكانت أقرب إلى التربيع منها إلى التدوير، وفي كل زاوية من زواياها الأربع، يقف برج عال بنوافذ ضيقة وباشورة عالية، ومابين كل برج وبرج، كنت أرى بوضوح الحراس وأكف المنجنيقات وآلات الضرب المختلفة، وكذلك

سارية العلم الأسود والأصفر تتوسطها دائرة زرقاء كتب عليها الحروف: ح،س،ن. وفيما بعد عرفت أن الحاء من الحسن الصباح، والسين من سنان والنون من نزار بن المنتصر بالله الخليفة الفاطمي.

بدا الحصن وكأنه معزول عن الدنيا، لا علاقة له بما وراءه، أقرب إلى السماء منه إلى الأرض، بهذه الرفعة التي تلمس النجوم، وبهذا الشموخ الذي يتعالى على كل ما حوله من تلك الجبال المتصلة والتي تركض باتجاه البحر.

الحصن يفوق الأحلام حقاً، ولا يمكن تصور مكان مثل هذا على الأرض، فما إن دخلنا الباحة الرئيسية حتى رأينا حديقة غناء، بأشجار مثمرة وأخرى مزهرة وأخرى بلا هذا ولا ذاك، رأينا ماء جارياً وآخر ساكناً وآخر صاعداً وآخر نازلاً، وطيوراً من كل نوع ولون ونغم، وحيوانات مفترسة وأخرى داجنة، ورأينا نساء، النساء في كل زاوية، عاريات، وشبه عاريات وكاسيات وشبه كاسيات، لهن شعور عجيبة مفرودة ومضمومة، وروائح زاكية، تفعم الروح قبل الجسد، وألواناً وأضواء، ومن عجب، فإن اجتماع الماء بالضوء بالنغم يدفع المرء إلى كثير من الخفة والطرب والانتشاء.

وقد انخلع قلبي لمرأى ذلك كله، كان لا يمكن تصديق أو تصور مكان كهذا بين هذه القمم التي تبدو بلا نهاية. الحصن الذي عرفت فيما بعد أن له باحة رئيسية وباحتان ثانويتان أحدهما شرقية والأخرى غربية، كان مؤلفاً من عدة طوابق، اثنان منها تحت الأرض، وثلاثة فوقها، ولكنها ليست متراكبة، فالطابق الأخير يتكئ على قمة الجبل، ولهذا فإن الطابقين الذين فوق الأرض يعلوان كثيراً ليكونا على مستوى الطابق الأخير المتكئ على قمة الجبل، ولهذا أيضاً كان من الصعب وصف الحصن بالتربيع الكامل، ولوهلة ما تشعر أن الحصن يقوم داخل الجبل وليس فوقه، ولوهلة أخرى تعتقد أن نصف الحصن من الجبل والنصف الآخر من الحجارة، خاصة وأن هناك نهر ماء يجري في الطابق السفلي ويذهب إلى حيث لا يدري أحد، ولكن، وللحقيقة فإن هذا الوصف لا يكفي، إذ أن للحصن أسراراً وأسراراً لم تنكشف لي رغم إقامتي الطويلة فيه، فقد قيل لي إن تحت الحصن أنفاق تؤدي إلى حماة مروراً بسلمة، وأخرى تؤدي إلى حلب، استكثرت ذلك فالمسافة بعيدة، ولكنهم أكدوا لي الأمر، قائلين أن مولانا راشد الدين سنان استعان بخاتم سليمان في تسخير الجن والمردة لبناء هذا الحصن العجيب، وأضاف هؤلاء أن مولانا راشد الدين بنى قلعة تفوق قلعة الموت التي أقام فيها مولانا الحسن الصباح دولة العظمية في بلاد فارس.

لم يظهر مولانا راشد الدين خلال مرورنا بالأبواب أو بالحراس على أحد، كان على ناقته السوداء تغطيه ستائر من الديباج الأسود والأحمر معرقة بخيوط من الحرير الأصفر، و كلما مررنا بباب أو بجماعة، ينحني الجميع بما هو بين الركوع والسجود، حتى وصلنا الباحة الرئيسية، فانسربت الناقة في ممر واسع يفضي إلى ما لا أعرف. أما

أنا فقد قادني شاب في مثل عمري إلى باب صغير يفضي إلى سلم حجري نازل مضاء بشموع غليظة معلقة على الجوانب، هبطنا أكثر من عشرين درجة حتى وصلنا إلى ممر طويل على جانبيه حجرات كثيرة مغلقة الأبواب، تقدمني الشاب إلى غرفة في نهاية الممر، دفع بابها، فدخلت، فوجدت نفسي في حجرة صغيرة أنيقة، فيها سرير خشبي حسن الصنع وخوان مصدف، وصندوق كبير وقراطيس فيها أوراق، أما النافذة الوحيدة التي يرى منها الشمس فقد أطلت على أفق واسع ممتد يزدحم بالقمم والقيعان البعيدة، كان ذلك ساحراً وفاتناً ولمس قلبي حتى رغبت بالرقص.

قال لي الشاب أن الحمامات في الطابق السفلي مباشرة، أما الطعام والشراب فسيأتيني ثلاث مرات في اليوم إلى حجرتي. تبسم في وجهي وانطلق.

قربت الخوان إلى النافذة وجلست أحدق في ذلك المشهد الفاتن، حيث امتدت أمامي قمم الجبال وجذوعها المتداخلة المتشابكة، فكأنها أصابع كف عظيمة تفترق وتتلاقى لتوتر فيها أو لعشق، وكل هذا غارق في غلالة من رذاذ فضي جعلت منه أشعة الشمس أشبه بالندى وماهو بالندى. شملني برد عجيب في روحي وفي بدني، لحقني ما يلحق بالمنتشي طرباً أو عشقاً، اندفعت أسبّح اسم الله في قلبي، كان لا يمكن إلا ذكر الله أمام كل هذا الإبداع.

وفي ذلك المساء جاءني نفس الشاب ليقودني إلى قاعة رحبة فيها نوافذ عديدة تروح فيها النسائم اللطيفة وتجيء، على جوانبها أصص الورد والريحان والقرنفل، وتتضوع من زواياها روائح الند والبخور، وقد طرحت طنافس جلدية ونمارق من الحرير، وفي أعلاها مصطبة غطيت بستائر فاتحة اللون لم أميزها للضوء الذي يغرق المكان.

وجدت أمامي كثيراً من الشبان في مثل عمري، لهم أزياء لا تشبه زيي، ولهم ملامح مختلفة وبعضهم يرطن بلغة لا أفهمها.

وقف شخص متقدم في السن أمام الجميع، تحدث بلهجة بين الجد والهزل، فقال: إن هذا الاحتفال لأولئك الذين يدخلون جنة مولانا راشد الدين لأول مرة، قال ذلك بعدة لغات كما يبدو، لأنه انتهى من كلامه بقول ذات القول بلسان الإفرنسيس الذي أتقنه.

طاف علينا ولدان يلبسون سراويل قصيرة وقمصان بلا أكمام وشعور مسرحة تلمع بالزيت، بقوارير فيها منقوع الحشيش، تذوقته بطرف لساني فإذا به ممزوج بمعقود السكر، لم تمض فترة طويلة حتى شعرت بالضباب يملأ رأسي، وخفة عجيبة أشعرها على جلدي، بدت الدنيا مضحكة حتى في حجومها وطعومها، ولما انسابت الموسيقى وملأت المكان وفاضت، رميت بنفسي في تلك البؤرة التي تشدني إليها الألحان، ولما تداخل جسد الراقصة واستحم بشلال الأنغام، فقدت آخر خيط بالمرئيات حولي. كنت أعرف أن هذا هو مصدر ضعفي، كنت أحب الله وأحب الموسيقى وأحب النساء ولكني كنت أرغب

أن أغطي كل ذلك بامتلاك القوة، ولا يأتي ذلك إلا بالصبر والاحتمال والمعرفة العميقة. ثم طاف الولدان علينا بمشموم ومأكول آخر، فطاش الدماغ، وضاعت كل الموجودات، وأحسست أني عدة أشخاص في أمكنة مختلفة، وشعرت بأني باشق أحلق في أجواز السماء، وشعرت بدفق الماء في جذوري، كان ذلك فوق الاحتمال، استمر عدة ليال، وحتى أستعيد توازني، اعتدت أن أفتح النافذة وأحدق في ذلك الليل الممتد على القمم وفي القيعان، أفكر بالأشجار العارية على تلك الجبال وتلك الحيوانات الليلية الهائمة وكل تلك المخلوقات التي تخرج في الليل تبحث أو تستكشف أو تتأمل. كان الكون فسيحاً وممتداً وعميقاً ولا يمكن الإحاطة به.

ثم عرفت مهمتي التي جئت من أجلها، فقد كان يجاورني عدد من الرهبان والأطباء القادمين من أنطاكية وبيزة وصور وبيت المقدس وعكا، جاؤوا بأمر من أمرائهم أو ملوكهم أو حتى رؤساء أديرتهم بهدف ترجمة كتب الطب والجراحة والأعشاب ومن ثم العودة إلى بلادهم التي أتوا منها.

كان هناك أيضاً أطباء ومترجمون من اليهود والسريان والأرمن والموارنة، وقد تعرفت إليهم جميعاً، وتحدثت معهم. فقد كان العمل يبدأ في ساعة مبكرة بعد الإفطار مباشرة، حيث تأتي خادمة سوداء بالخبز الرقيق الأبيض والعسل المنزوع الرغوة والجبن الصلب وشراب من عصير الرمان الممزوج بالدار صيني، مما يجعل له طعماً لا ينسى.

كان الرهبان والأطباء الفرنجة مهتمين كثيراً بطب العيون وطب الكسور والجروح، وكذلك بما يتعلق بالباه وتقويته، وقد عجبت لهم حقاً إذ كانوا يختارون من كتب الطب الكثيرة تلك الأجزاء المتعلقة بما يريدون فقط، فلا يهمهم من كتاب ضخم سوى ذلك الجزء الذي يصف كيفية العلاج فقط، وكأنهم كانوا على عجلة من أمرهم.

كانت مهمتي أن أساعد هؤلاء في ترجماتهم السريعة والمرتبكة، فهم في غالبيتهم يدعون معرفتهم للعربية، ولكني وبعد التمحيص وجدتهم لا يعرفونها بما يكفي، بل هم يتحدثونها بكثير من التهويش والتشويش، ولهذا كان علي في كثير من الأحيان أن أنقل النصوص من العربية إلى اللسان الإفرنسيسي أو الطلياني أو اللاتيني كاملة دون تدخلهم.

أما الأطباء السريان والأرمن والموارنة وهم مهرة في صناعاتهم فقد كانوا يشرحون لأولئك أسرار الجراحة الخفية، حيث يأتون بالأرنب أو الخنازير الصغيرة ويشقون بطونها أو عيونها ويبدؤون بشروح طويلة تستمر حتى موعد الغذاء، وكانوا في العادة يستعملون آلات لها أشكال عجيبة ولها أسماء أعجب مثل مكاوي الطحال وزراقان الكولنج وقناطير التبويل وملزم البواسير ومجرفة الأذن ومخرط المناخير ومخالب التشمير ومحك الجرب

ومفتاح الرحم ودرج المكاتل وغير ذلك ما لا يطاق رؤيته أو حتى سماعه.

وقد انخرطت مع راهب إيطالي نشيط في أواسط عمره يدعى قسطنطين في ترجمة كتاب الكامل في صناعة الطب لعلي بن عباس المجوسي، وكان ذلك سهلاً علي، إذ أنني عملت مع الأب ميشيل طويلاً في هذا الكتاب، وكان قسطنطين لا يتوانى عن سؤالي عن كل كلمة يقرؤها، وعندما تكون الكلمة من الصعوبة بمكان يذهب إلى طبيب أرمني أو ماروني ليصفها له من وجهة نظر الطبيب. وقد عجبت أنه بعد أن انتهى قسطنطين من ترجمة بعض الكتاب وضع اسمه عليه ولم يضع اسم المؤلف، فلم أجرؤ على المراجعة، ذلك أنني ريمون ويجب أن أتصرف مثل ريمون في مثل هذه الحالة، ولكن قسطنطين لم يكن الوحيد في هذا، فأغلبية المترجمين هنا يجتزؤون الكتب التي أمامهم وينسبوها لأنفسهم.

كنا نعمل في قاعة تقابل الجناح الذي نقيم فيه، فيما كانت هناك قاعة أخرى على يمين قاعتنا، وقد مضى وقت طويل قبل أن أدخلها، فقد ادعيت رغبة بالتعرف على المذهب الذي يدين الحصن به، فدخلتها، فوجدت آلاف الكتب في خزائن ضخمة تصل السقف، ووجدت عشرات النساخين وواضعي الكتب منكبين على القراءة والنسخ والمحاورات التي لا تنتهي.

كانوا مشغولين بكتب أبي يعقوب السجزي وأبي عبد الله النسفي وهما من كبار علماء الإسماعيلية، فهذا الأخير هو من وضع الكتب في أصول دعوتهم مثل كتاب "المحصول" و"عنوان الدين" و"أصول الشرع" و"الدعوة المنجية". وكذلك كتب أبي حنيفة النعماني المغربي وخاصة كتابه "الهمة وفضل الأئمة"، الذي فصل فيه واجبات الاتباع والمريدين أمام الدعاة والأئمة، وكتاب جعفر بن منصور اليمن وكتابه "أسرار النطقاء"، حيث يتحدث عن غيبة الإمام والإمام الصامت أو الإمام الأساس الذي يشرح أقوال النبي وينطق عنه وهؤلاء ستة بالتوالي. وكذلك كتاب هبة الله الشيرازي "المجالس المؤيدية" في التأويل الإسماعيلي.

وقد انهمكت بالقراءة وانشغلت بها، فكان ما علق في ذهني وأذهلني أن لابد من وجود إمام معصوم، إلهي، يعرف علم الباطن ولا أحد يعرفه غيره، وأنه إذا كان مستوراً، فإن حجته يجب أن يكون ظاهراً، وإذا كان ظاهراً فإن حجته يجب أن يكون مستوراً، وأن الله فوق متناول العقل، فهو لا موجود ولا غير موجود، ولا عالم ولا جاهل، ولا قادر ولا عاجز، وهم لا يثبتون وجود الله ولا ينفوه، فهو إله المتقابلين وخالق المتخاصمين والحاكم بين المتضادين. أما الحج فظاهره إلى الكعبة أما حقيقته فهو إلى إمام الزمان ظاهراً أو مستوراً، وفي المحاورات التي كنت أسمعها بين المشتغلين بهذه الكتب، سمعت أن مولانا راشد الدين قال بالتناسخ وهو ما يعني أن روح الإنسان تنتقل من جسد إلى جسد لتنال ثوابها وعقابها، وكان هؤلاء يسوقون أمثلة وحكايا تدلل على صدق انتقال الأرواح إلى

أجساد الكلاب أو الحمير أو النساء الجميلات أو الغلمان المرد، وقال بعضهم إنه يتذكر حياته السابقة حيث كان في جسد جعل وحكى عن طعم التراب، أما ثالث فقد ذكر أنه يتذكر كيف كان طعم العشب عندما كان في جسد بقرة، وتحدثوا عن تعرفهم على أماكن لم يألفوها من قبل وعلى وجوه لم يروها أبداً، وكانت تلك قصص مسلية وغريبة ومدهشة حقاً، فقد تحدث أحد علمائهم عن ذكرياته في جسد بغي عاشت في عكا كانت تسكن بين حيا البيازنة وحي الجنوية، وأضاف أنه ارتقى في العمل الصالح حتى استطاع الحصول على جسد عالم يعيش في جنة مولانا راشد الدين.

فلما سألتهم عن الأجساد والأرواح الشريفة وتلك الرديئة، قيل لي أن الشرف والرفعة هي معرفة إمام الزمان، فالجعل والبقرة والبغي لا يعرفون إمام زمانهم.

وقد استغرقني ذلك وأشغلني حقاً، فقد كان ما تعلمته من والدي لا يشبه ما أتعرف عليه الآن، وما لا يشبه ما علمنيه إياه الأب كلود، تحركت غرائزي كلها، تفتح ذهني لمعرفة الأعمق والأبعد، رغبت حقاً أن أعرف أين أنا، وما هذا المكان، وما الذي يجري في الطوابق المختلفة والحجرات المغلقة.

فادعيت بتبحري في تلك العلوم، وطلبت الاستماع إلى أولئك المتبحرين في المسائل العويصة، ولوحت بإمكانية تحولي عن النصرانية إلى مذهب مولانا راشد الدين، فاهتم متولي القلعة بذلك ووعدني خيراً، وبينما أنا في قاعة الرهبان والأطباء أعمل معهم، حتى استدعاني خادم وقادني إلى الطوابق السفلية من القلعة، إذ نزل بي سلماً حجرياً طويلاً إلى أعماق لولبية بالكاد مضيئة، وأخيراً وصلنا ما يشبه المصطبة الدائرية حولها أبواب ثلاثة مغلقة، طرق إحداها فانفتح الباب من تلقاء نفسه، دخلت متوجساً، فلم أر شيئاً سوى ستائر تصطفق بفعل ريح لم أعرف مصدره، وشمعة تهتز فترمي ظلالاً عشوائية، لم أشاهد أحداً، زاد توجسي، بحثت بعيني خلف الستائر علي أجد أحداً، فلم أعثر على شيء، مضى وقت على هذا، صارت الريح أكثر برودة وسرعة، زاد اصطفاق الستائر وانطفأت الشمعة وساد ظلام كريه، عندئذٍ شعرت بالخوف حقاً، بحثت عن الباب لأخرج، وجدته مغلقاً، وإذا بصوت عميق وقوي وجارف وكأنه بعشرات الحناجر، يقول:

–هل خفت يا ريمون؟!...

في الحقيقة فقد كنت مرتعباً، قلت بصوت حاولت أن أخفي فيه خوفي: لا يخاف من هو في ضيافة مولانا راشد الدين.

قال الصوت الذي لم أحدد مصدره: ماذا تريد أن تعرف يا ريمون؟!

قلت وأنا أستعيد سيطرتي على نفسي: كل شيء... بي فضول شديد للمعرفة.

قال الصوت: ولكن لا حقيقة هناك؟!...

قلت: وما الحياة، وما الموت؟!...

قال الصوت العميق: هي دورات نخلع فيها هذا اللحم الوسخ لنلبس غيره.

قلت: ثم ماذا؟!...

قال الصوت: لا شيء غير اللذائذ!!

قلت: لاشيء غير اللذائذ؟!...

قال الصوت: تقديس الإمام، الظاهر والمستور.

قلت: فالجنة والنار؟!

قال الصوت: عرفت الإسلام وعرفت النصرانية يا ريمون، وكل هذا باطل.

قلت: فما هو الحق إذن؟!...

قال الصوت: الإمام صاحب العلم وصاحب الأمر.

قلت: وماذا بعد الإمام؟!...

قال الصوت العميق القوي الجارف: بعد الإمام، كل شيء مباح.

قلت: فماذا أفعل؟!...

قال الصوت: تعتقد بقلبك وجوارحك أن مولانا راشد الدين، من نسل تقدس اسمه مولانا نزار بن المستنصر.

قلت: وما العلامة؟!...

قال الصوت: مولانا راشد الدين يعلم الغيوب، ويتحول، ويغيب، ويعاقب ويثيب؟؟!...

سطع في ذهني وجه أبي الغاضب المحتقن بالدم والقهر: حافظ على دينك دائماً.

قلت: فكيف تحده الجهات والثياب ويأكل الطعام؟!...

قال الصوت العميق: هذا ظاهر الأمر أما باطنه فلا، إن مولانا مثل هذه القلعة، يظنها الناس من ثلاثة طوابق، وما علموا أن طوابقها في باطن الأرض أكبر وأعظم وأجمل. لكل أمر ظاهر وباطن، أما الظاهر فللعامة والجهلة أما الباطن فهو لأولي العلم والمعرفة.

قلت بثبات عجبت له: أنا أؤمن بمولانا راشد الدين، تقدس اسمه.

هدأت الريح وأضيئت الحجرة من حيث لا أعرف، وفتح الباب من تلقاء نفسه، فإذا بالخادم ينتظرني، قادني إلى طابق سفلي آخر، وما أن ولجنا بوابة خشبية تحفها المشاعل من جميع أطرافها، حتى دخلت حديقة عجباً، فنورها بين البياض والزرقة، وأشجارها كأنها مطلية بنثار الذهب، وطيورها ثابتة لا تريم ولا تتوقف عن السقسقة بصوت كأنه الهمس، أما أرضها فكانت أشبه بالحناء ملمساً ورائحة، وانعقد لساني تماماً

عندما شاهدت شخصاً يشبهني طولاً وعرضاً وزياً وملامحاً. لم أستطع الحركة، كان هذا أكثر مما أطيق. تقدم مني مد يده مصافحاً بصوت هو صوتي: أهلاً بك في عالم الحقيقة!!..

لم أستطع الكلام، أضاف بصوتي: لا تندهش، ولا تخف، أنا شبيهك في عالم الحقيقة. أنا صورتك في المرآة، أنا هو من تعتقد أنك هو ولا تظهره على الناس، أنا حقيقتك.

استطعت أن أحرك لساني: ولكن... أنت... أنت تشبهني تماماً!...

قال بصوتي: ليس هذا فقط، بل أنا غرائزك وهواجسك وأحلامك أيضاً، في عالم الحقيقة لا نخفي شيئاً.

يمكنك القول أنني تأويلك.

قلت: فما حقيقتي.

قال وهو ينظر إلي بالطريقة التي أنظر بها إلى الناس عندما أدقق:أنت تحب أن تؤمن وتحب الموسيقى وتحب النساء، وأنت تريد أن تبدو على غير ما أنت عليه.

قال ذلك بهدوء وثقة وبطريقة لا يبدو معها أنه معرض للخطأ. اهتززت حقاً. وتزعزع كياني. هل يمكن لراشد الدين أن يكون إلهاً كما يقول؟!...

أخذ يدي، قال: تعال معي.

سرت معه كالمسحور، تجاوزني نهر ماء يهدر بين الجدران والصخور والأشجار المطلية بالذهب. كانت في الجو رائحة عجيبة تتضوع فتحيل الجسد إلى ما يشبه الريشة. هبطنا من الحديقة إلى رحبة واسعة تتوسطها بركة صغيرة يفور الماء فيها فيظهر على سطحها زبد خفيف سرعان ما يتطاير، صفق شبيهي بكفيه، فاندفعت إلى الرحبة مجموعة من النساء الشابات محلولات الشعور يلبسن غلالات بيضاء وحمراء تبين معها ما تحتها، رمين أنفسهن في البركة الفوارة وبدأن بالتعابث اللطيف الذي يأخذ بمجامع العقل. قال شبيهي: –أمامك نساء روميات، الأظهر أرحاماً، الراغبات دوماً، الدسمات، والعريضات والمحتملات. حدقت بما أمامي، تطاير دمي في كل الجهات.

صفق شبيهي بكفيه، فخرجت هؤلاء من الماء يقطر من أطرافهن، وما أن اختفين وراء باب ما حتى اندفعت مجموعة أخرى من النساء في مقتبل العمر، ورمين بأنفسهن في البركة الفوارة وكأنها تقوم على تنور. قال شبيهي:

–أمامك نساء أندلسيات، الأجمل، والأطيب رائحة والأملح وجوهاً والأوسع عيوناً.

ثم غبن وجاءت مجموعة أخرى ففعلت ما فعلت الأخريات.

–أمامك نساء هنديات وسنديات وفيهن يجتمع الشبق بالقذارة ومحبة الرجال بسخف

العقل.

توارين وظهرت مجموعة أخرى، وقال شبيهي:

–أمامك نساء حبشيات الأطيب نكهة والأشد طاعة، والأكثر تذللاً للرجل.

توارين وجاء غيرهن، وقال شبيهي:

–أمامك نساء بغداديات، الأجلب للشهوة.

ثم قال:

–أمامك نساء شاميات، الأكثر وداً والأكثر جرأة.

ثم قال:

–أمامك نساء فارسيات الأحسن أحوالاً ولطفاً والأحفظ عشرة.

ثم قال:

–أمامك نساء نجديات، الأنجب أولاداً والأكثر صيانة.

ثم قال:

–أمامك نساء نوبيات، الأسخن والأنعم.

ثم قال:

–أمامك نساء تركيات، الأبرد جسداً والأكثر مشاكسة.

ثم قال:

–أمامك نساء مغربيات، الأشد محبة.

ثم قال:

–أمامك نساء مصريات، الألطف كلاماً والأرق طبعاً والأكثر تخلعاً.

ثم قال شبيهي وهو يحرك يده كما أفعل تماماً:

–هذه هي نساء الأرض –وليس بعدهن من نساء– لك منها ماتشاء!!...

لم أستطع الرد، سحبني من يدي بلطف، تجاوز الرحبة إلى نفق نصف معتم، ثم دفع بوابة من قضبان حديدية فإذا نحن في مغارة ضيقة، ينحدر في عمقها خليط ماء يلمع، أخذ من ثيابه خاتماً له فصوص غليظة من أحجار كريمة لم أميزها جيداً. دفعه إلي قائلاً:

–أفرك هذا الخاتم وسترى العجب.

أخذته بتوجس شديد، ولكن باستسلام. فركت الخاتم، وإذا بالمغارة تنفلق كالرمانة، وإذا بي أقف على حافة هاوية عميقة يتصاعد إلي منها هتاف مشروخ كاحتكاك الأوعية

النحاسية: لبيك لبيك.

تلبسني خوف شديد، قلت من هذا؟!...

قال شبيهي: هذا جني يخدم هذا الخاتم، هو لك إن شئت!!.. أؤمره بما تريد.

قلت في العمة: أريد زيتاً من بيت فوريك.

هكذا قلت دون تفكير سابق. كان بيت فوريك في قلبي دائماً. بين مصياف حيث أنا وبين بيت فوريك مسيرة خمسة عشر يوماً على الأقل. فجأة كانت جرة زيت صغيرة تحت قدمي. رفعتها كالمسحور، رفعت غطائها ودسست أنفي في فوهتها، فدهمتني نكهة الزيت الدسمة العميقة.

قال شبيهي: ماذا تريد أكثر؟!...

لم أستطع الرد. كانت الهاوية تحتي عميقة يتصاعد منها همهمات تشبه همهمات الدواب الحبيسة.

قال شبيهي: تريد أن تطمئن إلى ربوبية مولانا راشد الدين.

لم أرد. كنت كمن يستمع إلى نفسه، كان شبيهي يتحدث بلساني وعقلي، سحبني من يدي، خرجنا من المغارة، عدنا إلى النفق نصف المعتم، مشى بي قليلاً قبل أن يتوقف عند نافذة صغيرة تطل على القمم والقيعان الممتدة ما امتد البصر، قال لي شبيهي: ادع مولانا ينزل المطر!!

قلت أو لم أقل: أدعوك يا مولانا سنان أن تنزل المطر.

وما أن أنهيت جملتي، حتى اكفهرت السماء، تجمعت الغيوم السوداء الكثيفة والغليظة من أركان السماء الأربعة، اندغمت فيما بينها، أبرقت فأرعدت فانهمر المطر بكثافة عجيبة، كان للمطر رائحة وصوت وسرعة، مددت يدي من النافذة لألمس المطر، فشعرت أن حبات المطر كبيرة ودافئة.

قال شبيهي: نحن في عالم الحقيقة... ألم أقل لك!!...

قلت أو لم أقل: وما عالم الحقيقة؟!...

قال شبيهي: المستحيل في دار الدنيا، جائز وواقع في عالم الحقيقة. كل ما جعله العقل محالاً، هو في عالم الحقيقة ممكناً، العقل قاصر، والظاهر لا يكفي، وفي عالم الحقيقة فإن الأضداد تجتمع، وإن كل حديث وآية مما صرفها العقل عن ظاهرها تجدها هنا على حقيقتها.

قلت أو لم أقل: وهل العقل قاصر إلى هذا الحد؟!..

قال شبيهي: وما العقل، إنه الأداة الأكثر ضعفاً وعجزاً في الإنسان، ما أسهل أن يفقد المرء عقله فلا يعود يميز بين أمه وزوجته.

قلت أو لم أقل: فماذا تريدون مني؟!..

قال شبيهي: أريدك أن تصدق بما ترى.

بعد ذلك، لم أعلم من أمري شيئاً، فقد صحوت في حجرتي عارياً، ووجدت بالقرب مني وعاء فيه منقوع الحشيش ومشموماً من حشائش أخرى قيل لي أنها من بلاد قندهار أو بلاد الملتان. استرجعت ما حصل لي، فلم أعلم أكان ذلك حلماً أو حقيقة، ولأول مرة منذ دخولي هذه القلعة شعرت أن المكان مليء بالأسرار التي تدعو إلى الخوف والريبة والحذر، ذلك أن أصحاب الأمر هنا يستطيعون التلاعب بكل شيء حتى بالأحلام.

تراءى لي وجه والدي المحتقن:حافظ على دينك دائماً.

حاولت أن أرد الأمر كله إلى أساسه الأول، فتحت النافذة، تنسمت النسيم البارد العليل، حدقت بقرص الشمس الرائع، قلت لنفسي، يا الله... أنقذني في ما أنا فيه. يا الله... إن دماغي أصغر من كل هذا، وأنت أكبر من كل شيء، أنقذني أيها الكبير. وقد جاء الفرج وإن متأخراً، فقد انتدبني متولي القلعة لأعلم العمي الصغار، أو الفداوية، اللسان الإفرنسيسي واللسان الطلياني. فهم بالإضافة إلى تدربهم على استعمال الخنجر ووضع السموم في المأكل والمشرب والملبس وفنون المصارعة والقفز والاختباء والتنكر، فهم يتعلمون أيضاً ألسنة أعدائهم حتى يسهل الاقتراب منهم من دون إثارة للشبهة، وقد علمت أن الفداوية يعملون لحساب من يدفع أكثر، فمولانا راشد الدين يدفعهم إلى قتل الإفرنجي والمسلم سواء بسواء، فضلاً عن دفعهم لقتل أعدائه شخصياً. والفداوية لا يعرفون بعضهم البعض، فهم يتخذون أسماء مختلفة، ولهم سحن مختلفة، فترى السحنة العربية بوضوحها وحدتها، والسحنة التركية بغلظتها والكردية بخشونتها والفرنجية بحمرتها وبياضها، والفارسية بنعومتها، والسودانية بامتدادها، هناك فداوية من كل نوع وجنس، وكلهم في مقتبل العمر، صامتون لا يتكلمون إلا إذا سئلوا، قساة وحازمون، ولوهلة ما حسبت أنهم يتعاطون طيلة الوقت ما قد تعاطيته، أو قد رأوا ما قد رأيته، وهم –ومن أجل سرعة الحفظ– يأخذون حب البلاذر الذي يفيد في حدة العقل وسرعة الحفظ، وهو حب له قدرة عجيبة في الدماغ ومن يكثر منه يصاب بالجنون أو بالعته، وربما كان هذا هو سر جحوظ أعينهم.

وقد انتقلت إلى تعليمهم في الطابق العلوي الأخير من القلعة في الوقت الذي غادرنا فيه معظم الأطباء والرهبان بعد أن انتهى الجميع تقريباً من ترجمة ما يريدون، خاصة وأن الشتاء كان دخل بقسوة غير معهودة، في تلك الأثناء كنت قد استطعت أن أجمع وأقطر ما نمى إلى علمي من حكايا وإشاعات وأكاذيب وحقائق حول مولانا راشد الدين، وحاولت أن أرتب الحكاية ما وسعني ذلك، وقد توصلت إلى أن مولانا هذا قد نشأ في البصرة، وتشيع مبكراً، إذ كانت الخلافة العباسية في لحظات ضعفها المزمن كما هي

الآن تماماً، ولكن مولانا راشد الدين الذي سحرته الدولة العبيدية في مصر لم يجد غير قلعة الموت في بلاد فارس ليزداد علماً ومعرفة، إذ أن دعاة الدولة العبيدية انطلقوا إلى فارس حيث الناس هناك أكثر قابلية لدعوتها، وفي قلعة الموت التقى مولانا بالإمام حسن بن محمد وكان شاباً في مثل عمره، فارتبطا بعلاقة وطيدة قيل فيها ما قيل، والإمام حسن بن محمد هو ابن الإمام محمد بن كيابزرك جميد، ولكنه أنكر هذه الأبوة عندما صار إماماً ورئيساً للدعوة الباطنية، فادعى أنه إمام العصر وأنه ابن الإمام من نسل نزار بن المستنصر، ولتبرير ذلك فلقد لجأ إلى مسألة الظاهر والباطن هذه، فقد قال إنه ابن محمد بن كيابزرك جميد في الظاهر ولكنه ينحدر من نسل الإمام الأكبر نزار بن المستنصر الفاطمي في الباطن.

حسن هذا، وبعد أن صار أمر الدعوة إليه أعلن في شهر رمضان قيام القيامة وأنهى الشريعة وأسقط التكاليف وأباح الإفطار، ثم أمر مولانا راشد الدين سنان بمغادرة قلعة الموت إلى بلاد الشام لبث الدعوة في تلك الأنحاء.

مولانا راشد الدين واسمه الكامل سنان بن محمود لا يعرف أحد عنه شيئاً، لا أمه، ولا أبوه، ولا أصدقاؤه ولا معارفه ولا علمه ولا حتى ملامحه، استطاع أن يجمع حوله الناس وأن يبسط نفوذه من أعالي فلسطين وحتى أطراف حماة، على طول قمم تلك الجبال العالية، من خلال قلاع وحصون منيعة وأتباع يمشون وراءه كالمنومين، ولما صار الأمر إليه، قطع العلائق مع ولي نعمته الإمام الحسن بن محمد، وقيل في ذلك أنه أراد الانتقام من صديقه اللدود، إذ أن علاقتهما أيام الشباب علاقة غير سوية، وقيل إن الإمام الحسن ماكان ليطلب من صديقه مغادرة قلعة الموت إلا لأن الغيرة والحسد والرغبة في التملك كانت هي الأسباب الحقيقية وراء ذلك. ولهذا أيضاً، أسقط مولانا راشد الدين حرفي النون والحاء من علمه وبقي حرف السين.

وقد ذهب مولانا بعيداً باستغلال الظاهر والباطن ليقول بتجدد الأرواح وتناسخها الأمر الذي سهل عليه فيما يبدو ادعاء الألوهية، وماكان لي أن أعرف كل ذلك لولا فرج الله الذي أضاء لي الطريق في ذلك الشتاء القاسي، فقد قاربت على الجنون أيامها، ذلك أن شبيهي كان يأخذني كل مساء إلى طوابق القلعة السفلية قائلاً لي:

–تعال نسخر من عقولنا.

أو كان يقول: هيا بنا ننتهك نواميس العقل الذي منحنا.

كنت أنا وشبيهي نمارس ذات الأفعال وكأنني أنظر إلى نفسي في مرآة، وكنا نأمر الجني أن يأخذنا إلى بلاد بعيدة، وراء البحر، وفوق الصحراء، وأن يطير بنا فوق القمم وقريباً من القيعان. وكنت أنقسم إلى أشخاص عديدين، وأصير كما أريد، شجرة أو عصفوراً أو فراشة، أحس بما تحس هذه المخلوقات، أكاد أصير دودة بلا إحساس، وأكاد

أتحول إلى هباء من شدة التوهج.

كان شبيهي يقول عادة: هل اكتشفت قصور العقل، أليس هناك من حاجة ماسة للذهاب إلى ما وراء العقل.

كان يسحبني إلى ما لا أطيق، وصرت على شفا هاوية من الجنون لولا فرج الله، وتمثل فرج الله بقدوم أهالي جبل السماق القريب من مصياف إلى مولانا لتقديم الولاء والتعظيم له. جاؤوا تتقدمهم أحمال الزيت والنبيذ والقمح والسكر والدهن والصابون والبقر والغنم والنوق السود التي يحبها مولانا ويعتز بها.

وكان أهالي جبل السماق هم أول من جهر بربوبية مولانا راشد الدين، فعبدوه، وأقاموا له معبداً سموه هيكل سنان، وجعلوا له تمثالاً من خشب الأرز طلوه بالذهب والنحاس، ولهم في ذلك عيد تلبس فيه النساء ملابس الرجال، وفيه لا يمتنع الرجل عن أمه أو أخته أو ابنته، وأنهم لهذا التحلل، فقد أسموا أنفسهم المتطهرين، أي من خطايا الأمم الأخرى التي تضع نصب أعينها الحلال والحرام أو العيب أو الخجل، أو الحياء، وهم بهذا اعتبروا أنفسهم أكثر الناس حكمة وجرأة وحقيقة وتطهراً.

كانت السماء تمطر لحظة دخولهم القلعة، فاستدعاني متولي القلعة على عجل، وكان مضطرباً جداً وهو يقول لي: أنت تفهم بالأعشاب، أليس كذلك؟!...

قلت: قليلاً...

قال: اتبعني إذاً.

دخلت معه عدة أبواب، ثم وقفنا أمام باب محكم من الخشب والرصاص، طلب مني أن يضع عصابة على عيني قائلاً أنني الآن في مكان لا تنفع معه العيون ولا يجوز فتحها أيضاً. قبلت على مضض، وضع العصابة على يدي، ثم دخل بي أبواباً وممرات لا أعرف منها شيئاً، كنت في بعض الأحيان أشعر بالحرارة وأخرى بالبرودة، وكنت أشعر أني أمشي على أرض غارقة بالزيت وفي مرات أخرى كأني أمشي على رمل، وهكذا، حتى وصلنا حجرة واسعة جداً، تعبق برائحة لم ألتقطتها من قبل، لم تكن رائحة منفرة، كانت رائحة محايدة بشكل يدعو إلى الريبة، كانت الحجرة مزينة برسومات لحكماء هنود وإغريق وفرس، ورقاع من الجلد مكتوب عليها بالفارسية التي لا أتقنها رغم أن أهل القلعة يتحدثون بها عادة، التفت إلى متولي القلعة بقلق بالغ.

–اسمع يا ريمون، الأمر كله يتعلق بمهارتك، نحن منتبهون إلى عقلك وحسن تصرفك.

قلت وتوتري يزداد: أنا رهن إشارتك!!

قال: مولانا راشد الدين، تقدس اسمه لحقه ريح شديد في بطنه يمنعه من لقاء أهالي

جبل السماق.

قلت: وماذا تطلب مني؟!...

قال: أمامك في هذه الخزانة كل ما تحتاج إليه من أعشاب وأدوية، وأريدك أن تنقذ مولانا فس ما هو فيه؟!...

في تلك اللحظة، سمعت ومتولي القلعة صوت ضرطة منكرة طويلة دفعتني دفعاً إلى الضحك واريتها بتحريك رأسي إلى هذا الجانب وذاك.

قال متولي القلعة وكأنه لم يسمع: مولانا في ضائقة شديدة.

توالى الضراط الطويل المنكر، ولم يعد الأمر مثيراً للضحك بل للسخرية العميقة.

قلت لأنقذ نفسي من كل شيء: سأفعل ما بوسعي!!

فتحت الخزانة المزدحمة بالقوارير والأوعية، تناولت شيئاً من حب القزحة وشيئاً من سكر النبات، سحقت ما تجمع لدي بهاون كبير حتى صار المزيج الأسود كثيفاً يتطاير الزيت منه، وضعت ذلك في كأس من الزجاج، قلت لمتولي القلعة: ليأخذ مولانا منه شيئاً.

سألني بقلق شديد: هل سيمنع هذا ماهو فيه؟!...

قلت: ليس سريعاً على الأقل.

قال: نريد ذلك سريعاً يا ريمون، افعل شيئاً.

قلت: لا يذهب الريح سريعاً.

قال وهو يدخل بين الستائر: نحن في كرب إذاً!!...

غاب، فيما تواصل الضراط مثيراً وراءه ما يثيره. عاد متولي القلعة متجهم الوجه، حدق بي وهو يقول: نحن نعتمد عليك يا ريمون، أنت تملك عقلاً راجحاً وتدبيرك جيد.

قلت: وماذا تعني يا سيدي؟!.

قال: رأينا أن تنتحل صفة مولانا راشد الدين، وهذه منزلة لا ينالها إلا القلة.

قلت: ماذا تقول؟!!...

قال: هذا هو الرأي، ستنتحل صفة مولانا أمام أهالي جبل السماق، لا تدبير أمامنا غير هذا التدبير. لا يمكننا أن نرد هؤلاء دون أن يسمعوا ربهم أو يلمسوه. إنهم أول من آمن بمولانا.

قلت: السمع والطاعة.

جلست خلف ستارة زرقاء غامقة في صدر قاعة فسيحة يلعب فيها النسيم والرائحة الزكية، وتفيض بالأنوار الصفراء والبيضاء، وما أن جلست حتى لاحظت وجود عدد

كبير من الرجال والنساء الجالسين على الجانبين، وما أن أعطوا الإشارة بوجودي، حتى وقفوا جميعاً وصاحوا بصوت منغم واحد:

مـــا صـــار صـــار ماكـــــان كـــــان

ســـــنان ربنـــــا ربنـــــا ســـــنان

ثم بدأوا يتمايلون، ركبهم اللحن وهزتهم الحركة، حلت النساء شعورهن، فقام الرجال بتمزيق ثيابهم، وما زال اللحن والكلمات تتعالى:

مـــا صـــار صـــار ماكـــــان كـــــان

ســـــنان ربنـــــا ربنـــــا ســـــنان

ثم أعطوا الإشارة بالهدوء، فصمتوا، مددت يدي من خلف الستارة كما قيل لي من قبل. بدأوا بتقبيل يدي التي أغرقتها بالطيب، شعرت بالشفاه تأكلني وتدغدغني، شفاه جافة ومبلولة وغليظة ورفيعة، نهمة وجائعة ومحبة.

لم يعرف ما جرى إلاي ومتولي القلعة، ولما وضعت رأسي على فراشي في تلك الليلة، زارني والدي وجلس إلى جانبي، رميت رأسي في حضنه، وقلت له: لقد منَّ الله عليَّ بالفرج. كان ما مر بي مجرد كذبة سمجة.

لم يعد شبيهي يزورني واختفى الجني، وانفجر خبر في القلعة يقول أن أميراً يدعى صلاح الدين قد أخذ دمشق حرباً وأنه قد يهاجم مصياف في كل لحظة.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها بهذا الاسم، ومن هو صلاح الدين هذا؟.. فقيل له إنه أمير كردي سني انقلب على سيده نور الدين واستأثر بملك مصر وأنه لا يشبه الأمراء الآخرين، فمسالكه مغلقة وشهواته معدومة سوى شهوة الملك، وقيل إنه يكره مولانا راشد الدين كراهية عميقة لأن مولانا صاحب علم ومعرفة بينما صلاح الدين لا يعرف القراءة والكتابة، ولأن مولانا باطني وصلاح الدين ظاهري ما يزال يتوضأ ليصلي. ولكن فداوياً رومياً كان يتعشقني أسر لي أن فداوياً كردياً صديقاً له انتدب لقتل صلاح الدين وأنه لم يعد بعد من مهمته، وقال لي إنه يفتقده كثيراً، ولهذا فهو يريد أن يتعزى بي، صددته بلطف مدعياً المرض المعدي، وقد سعدت بهذه الأخبار، فقد شعرت أن هناك من يستطيع أن يتحدى جبروت مولانا، وأن يخيفه أيضاً، ذلك أن صوت الانفجارات صارت تسمع في القلعة، بعد أن أخذت فرق النفاطين والحراقين يتدربون على أكسير جديد يدعونه ثلج الصين، وهو إذا خلط بالكتان والفحم والرماد واحترق أخرج صوتاً ذا أرعاد شديد ونار عجيبة، وقد انضم إلى التدريب شاب مصري يدعى الراضي وهو ابن لأسطولي طرده صلاح الدين من بلاده بعد أن اتهمه بالتآمر عليه، وكان هذا الأسطولي يدعى يعقوب وقد مكث قليلاً في القلعة قبل أن يغادر إلى الأندلس تاركاً ابنه

في عهدة مولانا راشد الدين. كان الراضي ابن ستة عشر أو سبعة عشر ولكنه لفت الأنظار إليه عندما اقترح استعمال أسلوب البحارة في قذف النار على الأعداء، وسرعان ماتصادقنا عندما شاهدني ذات مساء أحدق في غروب الشمس، فوقفت إلى جانبي فإذا به يبكي، وقال إنه يتذكر أهله وأحبته في مصر، فآذن ذلك بعلاقة دافئة بيننا، استطعت خلالها أن آخذ منه العهود والمواثيق أن يكتم ما سأعلمه إياه، فأسررت له ما أعرف، فلم يعد بعد ذلك يفارقني، لاسيما أنني من الأشخاص القلائل الذين يتحدثون بالعربية إليه، فقد كان لا يعرف الفارسية الأكثر استعمالاً أو أياً من اللهجات والألسنة التي كان أهل القلعة يتعارفون بها. تواردت الأخبار المربكة عن صلاح الدين، فقد ذكر في القلعة أنه هاجم حلب، ولكنه لم يدخلها بعد أن صالحه أهلها، وقيل أيضاً أن صاحب الموصل سيف الدين غازي حالف ريموند الإفرنجي صاحب طرابلس ليكون معه على صلاح الدين، وأن سيف الدين هذا لم يكتف بذلك، بل جمع إليه أمراء الجزيرة وديار بكر، وتحرك بالجيوش الموصلية والحلبية ومن والاهم لحرب صلاح الدين في دمشق، وتحولت متابعة أخبار الحرب إلى خبر يومي في القلعة، خاصة بعد أن وصل الخبر بمقتل الفداوي الكردي الذي بعث لاغتيال صلاح الدين، وما أن سمع الفداوي الرومي الخبر حتى قتل نفسه أمام الجميع بخنجر معقوف ومسموم، فوضعوا جثته فوق أعلى باشورة في السور لتأكله طيور السماء الجارحة حسب دين عجيب يدين به.

الأخبار التي كانت تصلنا إلى قلعتنا ذكرت أن صلاح الدين جاء إلى بلاد الشام ليهدم البيت الزنكي ويرثه، ولم يأت لمواجهة الفرنجة، فهو يعقد معهم المعاهدة تلو المعاهدة، ولهذا فإن ورثة نور الدين يدافعون عن ملك أبيهم، وأن على المسلمين كلهم أن يقفوا معهم في وجه هذا الطامع.

دعاة القلعة والمتبحرون فيها كانوا عادة ما يجمعوننا في الطابق العلوي حيث أغلبية مجالس الدرس والمحاضرة ويبدؤون بشرح الأحداث المتسارعة والخطيرة والتي تهدد القلعة ذاتها، فقال هؤلاء إن صلاح الدين هو عدو كبير ويستحق الموت ذلك أنه هدم خلافة الأئمة من نسل فاطمة الزهراء في مصر، وأنه ألغى دعوتهم وحرق كتبهم وسجن ذكورهم في ناحية وإناثهم في ناحية حتى لا يتناسلوا من بعد، وأنه سمح لحاشيته أن تنهب دار الحكمة التي تضم مئات آلاف من كتب الدعوة الباطنية وأن تحرقها أيضاً، ولهذا فإن صلاح الدين عدو خطير، أخطر من كل عدو آخر، بل ذكر أحد الدعاة أن صلاح الدين يعمل لصالح الفرنجة لأنه هدم خلافة الفاطميين، وقال آخر إن صلاح الدين وإن كان يتستر بالسنية إلا أنه لم ينضو تحت لواء الدول السنية كالعباسية أو السلجوقية، فإذا أضيف هذا إلى معاهدته مع الفرنجة وقتاله ورثة سيده نور الدين، فإن هذا الرجل إما أن يكون خادماً ومنفذاً لسياسة الفرنجة أو إنه مغامر لا يدرك ماذا يفعل، فهو لا يستطيع أن يتحدى الجميع مرة واحدة، فلا يمكن له أن يقاتل الفرنجة والحلبية والمواصلة وخليفة

بغداد وآل سلجوق في آن واحد.

وعندما سئل أحد الدعاة أين يقف مولانا راشد الدين، قال هذا أن مولانا لا يقف مع أحد بل يقف إلى جانب دعوته وأمره، فالفرنجة أصدقاء ماداموا بعيدين، وكذلك أمراء حلب والموصل، وأضاف أن مولانا يعلم ما تقدم وما تأخر من الأمر، ولهذا فإنه يعرف تماماً ماالذي يجب عمله في الوقت المناسب والمكان المناسب. ولم تمضِ فترة طويلة، حتى وقع الخبر في القلعة، صلاح الدين هذا الأمير الذي طلع علينا فجأة، انتصر على الحلبية وعلى المواصلة وعلى أمراء ديار بكر والجزيرة وعلى كمشتكين أيضاً، وما أدراك ما كمشتكين هذا؟!... وحدثت الأخبار أن صلاح الدين التقى كل هذه الجيوش بينما كان في دمشق، وأنه انتصر عليهم مجتمعين، وأنه قتل منهم الكثير وغنم منهم الكثير.

الدعاة الذين أكثروا من محاضراتهم ولقاءاتهم بنا، تحدثوا عن صلاح الدين كأمير كردي مختلف، هو لا يذكرهم بنور الدين، ولا بعماد الدين الذين يتفاخرون بأنهم كانوا وراء اغتياله، هو لا يذكرهم بأي أمير آخر يعرفونه، كان محيراً بالنسبة لهم، فقد كان محيراً في مصر، وهو يبدو محيراً أكثر في الشام، ولكنهم كانوا بالتأكيد يألبوننا عليه ويكرهوننا فيه إلى أبعد الحدود، فهو مغتصب الملك وهو هادم خلافة الأئمة وهو سني ظاهري ما زال بحاجة إلى الماء للالتقاء بربه إلى آخر هذه الادعاءات.

في تلك الأثناء كان الراضي قد تعرف إلى امرأة في الستين من عمرها تعمل درزية تخيط ثياب الجواري والفداوية وتتفنن في اختراع أزياء تثير الشهوة والخيال وتناسب المقامات المختلفة، كانت امرأة بيضاء لها جلد مشدود وشعر بجدائل طويلة ترميه وراء ظهرها، كان هدوءها يثير الراحة والثقة والأمل، ما أن رآها الراضي حتى تذكر أمه، وما أن رأته حتى رأت فيه أياماً لها مضت، فقد تحدثت عن ابن لها ضاع منها في قلعة بعيدة قريبة من حلب كان اسمه علي، سمعت أنه في جند صلاح الدين، وكانت العلاقة بينهما تثير التساؤل في قلعة بنيت على علاقات تتميز باختراق الجسد وانتهاك العقل واستلاب الإرادة، كانت مثل هذه العلاقة التي ليس فيها مثل ذلك، علاقات بائسة وتثير الشفقة، وفجأة ظهر صلاح الدين أمام قلعتنا، هكذا دفعة واحدة، ذات يوم جمعة، كان صلاح الدين وجنده وخيله وآلات حربه تملأ القيعان والأودية والتلال التي تحيط بقلعة مصياف.

استيقظت صباحاً، فتحت نافذتي، فإذا بي أرى جيشاً كثيفاً له ضجيج هائل يملأ الأفق. رأيت الأعلام الصفراء والحمراء وذلك النسر الممتلئ بالقوة والفخر يملأ صفحة العلم، كان الجند في شغل كثير، فهم يبحثون عن مواقع للخيام، وللقدور، ولآلات الحرب، جلست أراقبهم من نافذتي دون ملل، وما أن حل الظهر، حتى انطلق صوت المؤذن بذلك النداء الظاهر: الله أكبر.. الله أكبر.

ذكرني الصوت بصوت والدي، كان فيه ذلك الأمل بالدنيا وذلك الرضا بما لا نعرف، فيه ذلك الاستسلام للأكبر وذلك الفرح بما أعطى. سال الصوت من على التلة على التلال الأخرى، تصاعد وتطاير إلى الأعالي، مسح على كل شيء، وسمعه كل شيء، الطيور والأشجار، الهوام، والكائنات السائرة والتي في جحورها، وسمعته أنا كذلك، وقع ذلك في قلبي موقعاً اهتز معه كياني كله، لم أمنع نفسي من البكاء، لقد عرفت خياري أخيراً.

اصطف الجنود صفوفاً متراصة ومستقيمة، استقبلوا القبلة على تلك التلة المشرفة، كانوا كالأشجار الصلبة العملاقة، تستطيع أن تلمس جوهر القوة والمنعة من زردهم الخفيف وحمائل سيوفهم الدائمة الاهتزاز، تقدمهم شيخ لم أتبين ملامحه أو سمته، تابعت صلاتهم الصامتة على تلك التلة، كنت أرغب أن أكون معهم، كنت أرغب أن أطير وأنضم إلى آخر صف من صفوفهم. ولكني استيقظت من خواطري بدق قوي على باب حجرتي. كان الخادم يأمرني بالصعود إلى متولي القلعة في الطابق الذي يعلو حجرتي مباشرة، وهو الطابق المواجه للبوابة الرئيسية للقلعة، نفضت عني خواطري، وصعدت إلى حيث أمرت، فإذا بمتولي القلعة في أقصى حالات قلقه وغضبه، كان هذا يستطيع أن يتحدث معي بحرية بعد أن انتحلت شخصية مولانا أمام أهالي جبل السماق، وقد صرت بعدها أيضاً أدعى في القلعة بالموقر ريمون بالعربية والفارسية والتركية، تلك اللغتين اللتين صرت ألم بهما إلماماً جيداً.

قال لي: يطلب منك مولانا أن تحمل رسالة إلى هذا الكردي المغرور.

كان ذلك فوق توقعي: أنا.. ومن أنا حتى أحمل رسالة مولانا إليه.

قال هذا بسرعة وغضب: أنت تعرف أشياء كثيرة، ولا نريد لأحد من القلعة أن يشك في مولانا أو أن يتسرب إليه الشك فيه، أنت تفهم البقية.

منعت نفسي من الابتسام، قلت بجدية مبالغ فيها: ولكن الحرب لم تبدأ بعد لتبرر الرسالة.

صاح متولي القلعة وكأنه يتحدث مع نفسه: وهل جاء هذا للعب هنا في هذه الجبال، لقد انتصر على الدماشقة والمواصلة والحلبية، فماذا تراه يفعل بنا وقد أردنا قتله؟!...

قال : خذ.

دفع إلي رقعة من ورق سمرقند الفاخر، فتحتها وقرأت:

"من راشد الدين سنان صاحب الأمر، المهيمن بسيفه واسمه، المتحكم في مصياف وبانياس وقدموس والكهف والخوابي، الآمر لما تعرف و لما لا تعرف، إلى السلطان العظيم والاسفهسلار الكريم صلاح الدين بن نجم الدين أيوب، مالك مصر، وهازم ابن

مودود ومن تبعه من الأمراء الخرعين، أنهي إليك رجوعنا عما بدر من بعض صبياننا، وأن ذلك لم يكن بأمرنا ولا بعلمنا، وأنه لك ما شئت من أموال أو متاع، وأنه لك أن ترحل عن بلادنا بسلام، وإن حامل رسالتنا إليك هو الموقر ريمون بن الزين مفوض بأمر الكلام والسلام".

ما أن انتهيت حتى قال متولي القلعة: خذها إليه صباحاً.

قلت له: السمع والطاعة!!...

بحلول المساء، أضاءت التلال المحيطة بالقلعة بآلاف المشاعل، ضجت تلك البراري، بصوت المؤذن يدعو لصلاة المغرب، كنت أسمع صوت الإمام يقرأ أمام ذلك الفضاء الفسيح: (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً.....).

كان ذلك يترعني بالرضى، وقد اختمرت الفكرة في رأسي وعقدت النية على تنفيذها، كان لا يمكن تأخير ما قد وقر في القلب وانتهى إليه العقل. ولكني لم أتوقع أن يطرق بابي الراضي ساحباً وراءه تلك العجوز الهادئة التي تخيط الثياب لتشعل أخيلة الناس. كان الراضي متجهماً، أجلستهما على السرير متسائلاً في سري عن سبب الزيارة.

قال الراضي: قد تستغرب هذه الزيارة، لكن كل من في القلعة يعرف قدرك عند متولي القلعة!!

هززت رأسي موافقاً، أضاف: جئتك طامعاً في أن تمنع عني الطامعين بي.

نظرت إلى العجوز ذات الجلد المشدود الأبيض والجدائل الطويلة، أحنت رأسها علامة الموافقة دون أن تنبس ببنت شفة.

قلت: ماذا يعني هذا!!...

قال: أنت تفهم ماذا أعني، أنا لم أسمع أبداً عن أناس فاسقين كهؤلاء!!

كان الراضي شاباً وسيماً له جسد عبل، قلت: هم أصدقاء والدك؟!...

قال: رغب والدي أن يبعدني عن جند صلاح الدين فجاء بي إلى هنا، فيما ذهب إلى الأندلس ليجد عملاً هناك، لن أخون ثقة والدي بي، كما يخونها هؤلاء.

ولأول مرة أسمع صوت المرأة العجوز، كان هامساً. متردداً كمن فقد القدرة على الكلام: أهل هذه القلعة أخبث خلق الله... ليتنا نخرج من هنا.

قلت: أنت تقولين هذا الكلام.

قالت: لم أكره في حياتي أناساً بقدر هؤلاء، هؤلاء الذين أبعدوني عن ولدي.. علي ومحمود...

سأل الراضي: كيف السبيل إلى الهرب؟!...

أطرقت برأسي أزن الأمور، كنت قد قررت الهرب قبلهما، ضجة الجيش تحت النوافذ كانت تترامى إلينا.. كان قلبي يرقص طرباً لهذه الضجة، قلت لهما دون تفكير:

-هل تذهبان معي غداً إلى معسكر صلاح الدين؟!...

قال الراضي مستنكراً: هل أهرب من الرمضاء إلى النار.. سيقتلني صلاح الدين إن عرف أنني ابن يعقوب الأسطولي.

قلت:ولماذا تقول إنك ابن يعقوب.

-فماذا أقول؟!..

-قل أنك فداوي هارب مستنكر لأفعال مولانا.

قالت العجوز: نعم الرأي. ولكن كيف نذهب؟!...

قلت وأنا تحت تأثير عجيب لنخوة مفاجئة: اتركا ذلك لي!!

ولم يستغرقني الأمر كذلك لأقنع متولي القلعة أنني بحاجة إلى الراضي وتلك العجوز لتدبير في رأسي يعينني في إيصال رسالة مولانا راشد الدين، ولزيادة التعمية، فقد طلبت من العجوز أن تلبس ثياب أهل فلسطين، بذلك الثوب الأسود من الكتان المتواضع المرشوم بتصاوير من الزهور وعناقيد العنب وسنابل القمح، وطلبت من الراضي أن يلبس لبس الفقراء المتصوفة الذين يدعون الكشف والجذب، وذلك لما يقال عن ضعف صلاح الدين أمام هؤلاء، وقد أعجب ذلك متولي القلعة وأعتقد أنني صاحب حيلة محكمة. وعندما أنهيت كل هذا التدبير كان الليل قد انتصف، نمت وأنا أستمع إلى ضجة جند صلاح الدين تحت نافذتي، كانوا لم يناموا بعد، ويبدو أنهم لا ينامون في الليل.

مضت سويعات حتى صحوت على صوت هو جوهر الفضة يهز جذوع الليل قائلاً: حي على الفلاح... حي على الفلاح...

كم سعدت وكم طربت لذلك، منذ زمن بعيد، لم أسمع هذا الصوت العذب، منذ أيام بيت فوريك التي صارت الآن بعيدة جداً عني، أسرعت إلى النافذة لأرى حركة دائمة وأضواء ومشاعل وعجيج الرجال والخيل والسلاح.

بعد قليل، تعالى صوت الإمام يقرأ: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم، لا تقنطوا من رحمة الله...).

وقع ذلك على قلبي كالندى، انتظرت شروق الشمس لأول مرة في حياتي، راقبت صفرتها المحمرة تتقدم ببطء من وراء القمم، ثم شاهدتها تتصاعد رويداً رويداً، فتعطي للكائنات طعماً جديداً مقبولاً ومستساغاً، جاءتني الخادمة بقليل من الجبن والعسل ورقائق

الخبز وبعض شرائح الشمام، أكلت قليلاً ثم صعدت إلى الطابق العلوي، وجدت الراضي والعجوز في هيئة مناسبة بل ومقنعة، انتظرنا قليلاً قبل أن يأتي متولي القلعة ليسلمني الرسالة دون أن ينتبه أحد، قال لي بهمس: يهديك مولانا السلام ويقول لك إن كل شيء بيدك.

هززت رأسي، فأمر حارس قريب أن يقودنا إلى الخارج، ولدهشتي، فقد انسرب بنا من باب جانبي صغير غير مرئي، ومشى بنا في نفق مظلم قصير، قبل أن نجد أنفسنا خارج القلعة، تضربنا شمس الصباح التي صارت حارة جافة، عجبت لذلك، فقد دخلت القلعة من طريق مختلف تماماً، كانت تلك المرة الأولى التي أخرج فيها من القلعة منذ دخلتها قبل سنة ونصف تقريباً. تنفست بعمق، شعرت بأن عظامي تستعيد عافيتها وأن جلدي يتفتح. كنا على سفح الجبل المليء بالأسرار ،وراءنا ترتفع القلعة. وعلى التلة المقابلة ينتشر جيش لا ينام، انحدرنا ببطء شديد، كنت قد اتفقت مع الراضي وتلك العجوز على ما نقول تماماً.

وما أن شارفنا ذلك الوادي الذي يفصل بين القلعة والجيش حتى تسلمتنا جماعة من الفرسان شاكي السلاح. وما أن سألوني حتى أسرعت بالقول: خذوني إلى السلطان صلاح الدين.

طاروا بنا إلى خيمته المضروبة بالقرب من شجرة بلوط وارفة، انتظرنا على الباب قبل أن ندخل، كان في قلبي طنين، استحضرت كل دماغي، لأدخل على سلطان سمعت عنه الأعاجيب. كانت خيمته كبيرة تجمع بين الخيمة البدوية في اتساعها وبين الخيمة الكردية في دائريتها وذروتها، وما أن سمح لنا بالدخول حتى كنت في مجلس ينضح بالهيبة والوقار، شعرت بالخوف والدوار يأخذ برأسي. كان السلطان صلاح الدين، هناك، في صدر المجلس، برأسه الكبيرة وخوذته الحديدية التي يلفها بعمامة بيضاء، وعينيه اللتين تأخذان، ولحيته البيضاء الأنيقة تأطر وجهاً مباركاً، فيه كل شيء الجمال والهيبة والوقار والجلال والسحر والأسر، كان حوله رجالاً يشبهونه في الزي والهيئة، كلهم صامتون ينتظرون مني الكلام.

قلت وأنا أشعر أنني مخنوق: السلام عليكم يا مولاي.

قال السلطان بصوت فيه راحة لا تخفى: وعليك السلام.

قلت: قبل كل شيء يا مولاي، أنا مسلم ابن مسلم، وأنا أحمل إليك رسالة من كافر فاجر، لا تصدقه ولا تؤمنه.

ضج المجلس بالتكبير والتهليل: يالله الإسلام... يالله الإسلام.

طافت على وجه السلطان شبه ابتسامة، قال بلطف: هلا استرحت يا ضيفنا، وحدثتنا بما وراءك.

شعرت بأنني ألقيت عن ظهري كل الأحمال، أحسست بالفرح يأخذني من مجامعي.

جلست قريباً من السلطان، حكيت قصتي باختصار وتركيز، بين عيون تكاد تعريني للتمحيص والتدقيق. وما إن انتهيت حتى عاد التكبير والتهليل: يااللإسلام... يااللإسلام.

قال السلطان الذي لم يخف تأثره: أكرموا ضيفنا.

ثم التفت إلى شخص آخر يشبهه في كل شيء، عرفت فيما بعد أنه شقيقه العادل:

–وأما أنت، فإن هذا الرجل قد يفيدك.

أسرع هذا إلى القول: أرجو من الله ذلك.

خرجت من خيمة السلطان شاعراً أنني من هذا الجيش، سرت بين الجنود والخيل والسلاح شاعراً أن هذا لي، انطلق بي ومن معي إلى خيمة صغيرة مشرفة على كل التلال، وتواجه القلعة البغيضة، ولما شاهدتها من الخارج رغبت حقاً أن أهدمها.

عند الظهر، استدعاني العادل، وهو رجل خشن، ذو عينين غامضتين ووجه لا تخفى وسامته رغم صلابته وقسوته، كان مدققاً وحصيفاً وعارفاً بكل شيء. تحدثنا طويلاً عن كل شيء. عن الفرنجة وعن حياتي وعما أعرف، وعما رأيت وعن قلعة مولانا، وعن مداخلها ومخارجها، بعد أن انتهينا، وكنا وحدنا في خيمة الرجل. وضع يده الضخمة المشعرة على كتفي، وقال: أنت منذ اليوم من خواصي.. لا تغب عن عيني.

قلت له: السمع والطاعة يا مولاي.

ابتسم فبدا أكثر وسامة: عد إلى اسمك، أنت عمر، عمر اسم حسن ومبارك.

كان العادل يقود جيشاً خفياً من العيون والجواسيس ورجال الرصد والكشف والاستقصاء، وقد ضمني إليه لأكون ترجمانه ومتولي مكاتباته ومحاوراته، وبعد أن وثق بي سلمني ذلك الجيش المؤلف من أخلاط من كل الأجناس، رجالاً ونساءً، شعراء ومتصوفة وبغايا، ورجال حكم وقواد جيش وحتى باعة الخضر وتجار القوافل، ولكنه لم يسلمني مسؤولية ذلك، إلا بعد مخاطر كانت فيها رقبتي غير بعيدة عن السيف.

أما المرأة العجوز، التي تخيط الثياب فقد ذكرت للعادل مداخل خفية في قاع الجبل تؤدي للقلعة، وكان لما قالت أهمية كبرى في بدء الحرب على القلعة البغيضة، فقد أمطرها جيش السلطان بالنار من فوق ومن أسفل، وخير سكان القرى المجاورة بين الإسلام أو القتل، فاختاروا الإسلام، داوم جيش السلطان على ضرب القلعة من معظم طرقها وأنفاقها السرية، حتى جاء خال السلطان، شهاب الدين الحارمي، صاحب حماة، ونصح السلطان بأن يترك القلعة لصاحبها آخذاً منه المواثيق بعدم التعرض للسلطان، مدعياً في الوقت ذاته أن أتباع هذا الشيطان كثيرون وهم يملؤون سلمية، تلك المدينة

القريبة من حماة، وأن هؤلاء على استعداد لتخريب كل شيء وقتل كل شيء قبل قتل أنفسهم، وما كان للسلطان أن يوافق لولا وردته أنباء عن تحرك جيش الفرنجة باتجاه بعلبك، فأمر السلطان بالرحيل واعداً بالحرب مرة أخرى. صرت مع جيش السلطان ومن خاصة العادل، ورأيت الحروب من أمامها ومن خلفها، كنت أدخل القلاع والحواضر قبل مولاي صلاح الدين، أتفقد المواقع وأسمع الناس،كنت أدخل مرة صوفياً، ومرة إسماعيلياً نزارياً، أو إسماعيلياً مستعلياً وأحياناً راهباً من الداوية، وأخرى من الهسبتالية، وكنت أدخل طبيباً أو فقيهاً، أسمع وأرى وأسجل كل ذلك وأصبه بين يدي العادل.

ويشاء لي الله، أن أدخل نابلس التي خرجت منها ذات يوم وأنا ريمون، كنت برفقة الملك جي دي لوزجنان الذي أسره مولاي السلطان في موقعة حطين، كنت واحداً من الجند الذين خفروا هذا الملك للترجمة والمساعدة.

وما أن هبت علي نسائم نابلس حتى خفق قلبي بشدة، تذكرت روائح الإسطبل وروائح الحديقة وصابون نابلس على جسد فرانشيسكا.

دخلت نابلس محدقاً بالمكان، اختفى الفرنجة منها، ظلت هي هي، لامعة نظيفة خضراء تشع بالنضارة والضوء والماء الرقراق. الأيام تجري بسرعة في نابلس.

لم نجد مكاناً نضع فيه هذا الملك الذي يشي كل شيء فيه بالغباء والغلظة إلاَّ بيت الفيسكونت، أو بيت فاليريا. وضعناه في إحدى حجرات البيت مع بعض حاشيته وكبراء قومه، وانطلقت إلى الإسطبل، فوجدته فارغاً من الخيول تفوح منه رائحة عفنة، استعدت طعم الخوف والانتهاك وقلة الحيلة. ولم ألبث أياماً حتى جيء بالفيسكونت نفسه مخفوراً، كان قد أسر في نواحي صفورية، فوجئت به وفوجئ بي، كان منكسراً مذلولاً، رأيته على بيادر بيت فوريك يسرق ثمار أهلي، ورأيته يتشاجر مع زوجته على كل شيء، رأيته مزهواً في الكنيسة أمام ممثل الملك.

تقدّم مني وقال بلسان منكسر: دعهم لا يقتلونني أو يبيعونني؟!

قلت بهدوء عجبت له وكأنني لست أنا: لك ذلك.

ابتعد قليلاً، سألته أين فاليريا؟!...

نظر إلي من وراء كتفه، كانت عيناه ذليلتان بشكل يدعو للرثاء: قتلها حصان ما.

واستدعاني الأمير علي بن أحمد المشطوب والي بيروت لأنظم العقود مع تجار الفرنجة هناك، فوجئت بوجود المرأة العجوز خياطة الثياب تعمل في قصر الوالي المتواضع.

فرحت لمرآها وسألتها عن حالها، كانت بذات الهدوء وذات الجلد المشدود و الجدائل الطويلة التي ترمي إحداها خلف ظهرها والأخرى على صدرها، قالت وهي

باسمة:

-لقد وجدتهما!

-من هما؟!

قالت بصوت يرتعش من الفرح: ابناي، علي ومحمود.

سألت مستغرباً: من هؤلاء؟!...

قالت: أحمد، هو الأمير أحمد، الذي تسمونه المشطوب، ومحمود هو الذي تسمونه الجناح.

-ماذا تقولين؟!.. أحقاً؟...

هزت رأسها وأغمضت عينيها كأنها تخاف على سعادتها أن تضيع منها مرة أخرى.

في تلك اللحظة، مر الأمير المشطوب بجرمه الهائل ووجهه المخيف من القاعة التي كنا نتحدث بها، وما أن رآني حتى أمرني باللحاق به، ثم حدق بالمرأة العجوز، قال لها على حين غرة: قولي لي يا هذه، هل عشت يوماً في قلعة العقاب قرب حلب؟!

قالت هذه وهي تدير رأسها إلى جهة أخرى: لا، لا ياسيدي، لم أكن هناك يوماً ما!!

كانت قلة قليلة من الأشخاص التي تعرف السبب العميق لتلك الكراهية المتبادلة بين الملك ريتشارد والملك فيليب اغسطس، وهي كراهية تجددت هنا أمام أسوار عكا كأوضح ما تكون وأسطع ما تكون، وعلى الرغم من أن كل التوقعات ذكرت بأن الملكين . وهما أكبر ملكين مسيحيين هنا على الأرض المقدسة . سوف يجدان طريقة ما للتعاون أو حتى التصاهر، إلا أن ذلك لم يحدث أبداً، بل تعززت الكراهية واشتدت الحزازات، التي أشعلها المركيز كونراد دي مونتفرات وجماعة القديس يوحنا وتجار جنوة من جهة، والملك جي دي لوزجنان وجماعة فرسان الهيكل وتجار بيزة من جهة أخرى، كان هؤلاء مختلفون على كل شيء، بدء من تاج المملكة اللاتينية الضائع، وانتهاء بالاتفاق على خطة موحدة لاقتحام عكا.

وعندما سألت الملكة جوانا شقيقها ريتشارد عن سبب تأخره في الزواج من شقيقة الملك فيليب رغم أنه قضى وقتاً طويلاً في بلادهم، هز هذا رأسه دون كلام، فلما ألحت عليه، قال بما يشبه الغضب: أنا أصلح للحرب لا للزواج.

ولكن جوانا التي أغرقها العادل بالذهب والمجوهرات النادرة بواسطة رجله الداهية عمر الزين، كانت ترغب في أن تذكر أخاها بالعائلة والحياة الرغيدة، حسب ما أوصاها به هذا الرجل، عمر الزين، الذي يدخل عليها مرة راهباً ومرة محارباً ومرة عجوزاً تفصد الدم الفاسد أو تكحل العين التي تعاني الرمد.

ولكن جوانا التي لم تصدق أقوال أخيها، استطاعت أ ن تسمع الإشاعات التي يطلقها رجال المركيز كونراد ومفادها أن ريتشارد الذي قضى وقتاً طويلاً من شبابه الأول في ضيافة الملك فيليب اغسطس، وبدلاً من الاهتمام بشقيقة الملك فقد اهتم بمفاسد أخرى لا ترضى عنها الكنيسة الكاثوليكية، وقد توسعت الإشاعات أكثر فأكثر، فتحدثت عن علاقة غير سوية بين الملكين، فاحت رائحتها حتى وصلت أنف شقيقة فيليب التي كرهت ريتشارد ورفضت هي أن تتزوج بشخص مثله حتى لو كان ملكاً، وقيل أن الحياة القاسية والتدريبات العنيفة وشهرة القتال التي لحقت بالملك ريتشارد هي من قبيل التغطية على ما

شاع بين أوساط النبلاء الفرنسيين والإنكليز من سيرة هذا الملك الذي لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره.

وقد لا يجد المرء تفسيراً لهذا العداء الظاهر بين الملكين، وهما يقومان بمهمة مقدسة لم يقم بها ملوك المسيحية من قبل، بهذا العدد وهذا الإعداد، فقد تجمع حول أسوار عكا ثمانية وثلاثون ملكاً وأميراً مسيحياً، كلهم يرجو أن يحرر قبر المسيح من أيدي الأتراك الأجلاف، فلا يعقل ولا يجوز أن تبدو الكراهية بهذا الشكل بين ملكي إنكلترة وفرنسا.

وقيل في ذلك إنه صراع بين كنائس، ولكن هذا غير صحيح فالبيازنة والجنوية أتباع كنيسة واحدة ولكنهم منقسمون ويقفون على طرفي نقيض، وقيل في ذلك أن الإنكليز يريدون بسط نفوذهم في هذه البلاد لما يحقق ذلك من ربح وفير وموانئ جديدة وبضائع جديدة ولكن ذلك غير صحيح أبداً، فملك صقلية وهو يتبع التاج الإنكليزي يستطيع أن يقوم بالمهمة، وقيل أيضاً أن ريتشارد يريد أن يحقق وعد والده هنري بحماية القبر المقدس بعد أن وعد الأب هوسياس أسقف صور بذلك عند لقائه به في رايدنج بإنكلترة، ولكن هذا غير صحيح أبداً، فريتشارد لم يعش مع أبيه كثيراً ولم يعرف عنه التدين أبداً، وقيل في ذلك أن ريتشارد مغامر وخيالي ويتبع مزاجه الحاد والمتقلب، وأن مهمة مثل هذه تحقق له الشهرة والمجد والمغامرة في بلاده عندما يعود إليها، ويستطيع بذلك أن يكسب شرعية الملك وأحقيته من أخيه جون الأسود، الخبيث والطامع والشرير، وقيل أن ريتشارد يريد من هذه المهمة في الأرض المقدسة أن يقدم نفسه للنبلاء على أنه المتدين الطهور الغيور على المسيحية، وربما كان ذلك جزء من عملية تطهير كبرى يقوم بها أمام نفسه وأمام النبلاء وأمام شقيقة فيليب اغسطس، خاصة وأن الملكين انطلقا معاً في أسطول واحد ثم افترقا في صقلية.

وكان من حق جوانا أن تستغرب أن أخاها الذي لم يتجاوز الخامسة والثلاثين يعيش عيشة الرهبان حقاً، فهو لم يتزوج ولا يدخل النساء إلى خيمته ولا يستحم ولا يأكل إلا لماماً، ولم يسألها أبداً عن حياتها في باليرما، ولم يوجه لها أي لوم أو كلمة فيها عتاب أو تحقير.

ولاحظت جوانا أن شقيقها يفرض حول نفسه هالة كبيرة من قوة الحضور وهيبة المجلس، ليس لأنه الأغنى ملكاً والأكثر عدة وعدداً، والأشهر، ولكن لأنه ريتشارد فقط.

ويمكن القول بوضوح، أن مجيء ريتشارد إلى عكا، وانضمامه إلى باقي الملوك والأمراء المسيحيين الذين يحاصرون عكا منذ حوالي سنتين، قد أثمر سريعاً، فالآلات التي أحضرها معه كانت من الكفاءة بحيث دكت أسوار عكا الشرقية والشرقية الجنوبية والشمالية أيضاً، فالمنجنيقات السريعة والسلالم والكلاليب والمضراب الثقيل والدبابات ذات الطوابق والسلم المتحرك، أتت أكلها، فإذا أضيف إلى ذلك قوة الحصار وإحكامه ومنع التواصل بين أهل المدينة المحاصرة ومعسكر السلطان، وإنهاك جند صلاح الدين،

وانخفاض دافعيتهم للقتال، كل هذا أدى إلى بدء الكلام عن الصلح.

الأمير علي بن أحمد المشطوب قائد حامية عكا، وهو رجل لا يجدر النظر إليه مرتين لبشاعة وجهه وفظاعة منظره، خاصة بتلك العين الجامدة والشفة المشرومة، كان هو الذي خرج من باب قراقوش بصحبة رجل يدعى عمر الزين قيل عنه أنه نصرانياً من نصارى العرب، جاءا للتفاوض حول شروط الصلح، وقد تم اختيار المركيز كونراد دي مونتفرات ممثلاً عن الأمم المسيحية لوضع الشروط والاتفاق عليها.

وما إن دخل المشطوب الخيمة الصغيرة المضروبة على تل المصلبين بين خيمة الملك ريتشارد وخيمة الملك فيليب، حتى اهتز الرجل اهتزازاً عميقاً. قال بصوته المشروخ الشبيه بوجهه: أنت؟..

مشيراً بدهشة إلى المركيز بوجهه القاسي ولونه الكامد.

كان المركيز قد غضب من الملك ريتشارد الذي هدد بأخذ صور في حالة استمرار الخلاف بين كونراد والملك جي، ما دفع كونراد إلى الرحيل إلى صور لتحصينها من جديد، ولكن وساطات كثيرة تدخلت لإقناعه بالعودة، بعد أن تخلى ريتشارد عن تهديده، ولزيارة طمأنينته فقد اختاره الملوك والأمراء ليفاوض أهل عكا على الاستسلام.

قال كونراد: أنا.. من أنت؟!...

كان ترجمان كونراد رجلاً مارونياً، فيما كان عمر الزين ترجمان المشطوب.

لم يستطع المشطوب الكلام، بل ارتجفت يداه بشكل ظاهر. قال عمر الزين:

. هذا الأمير علي بن أحمد المشطوب قائد حامية عكا، وهو مخول بالحديث.. فمن أنت؟!...

كان عمر الزين يعرف محدثه جيداً، ولكن السؤال كان جزء من التقليد.

قال الترجمان الماروني:

. هذا المركيز كونراد دي مونتفرات، حاكم صور والوصي على عرش المملكة اللاتينية، وممثل الأمم المسيحية في هذا الاتفاق.

بدا المشطوب كمن يعاني تعباً داخلياً شديداً. كان يحدق بالمركيز كأنه لا يصدق ذلك، وبدا كأنه يعيش في حلم من الأحلام.

قال المركيز بهدوء وثبات وثقة:

. أرغب في القول أنكم فقدتم القدرة على الدفاع عن بلدكم، ونحن داخلوها، ولهذا نحن هنا نتحدث عن استسلامكم.

أخذ المشطوب نفساً عميقاً إلى صدره، كان الكلام ثقيلاً عليه، كان من الواضح أن كل شيء يبهظه.

قال بصعوبة: ماهي شروطك؟!...

قال هذا بذات الهدوء والثبات: نأخذ البلد بمافيها من آلات وعدد ومراكب.

صمت المركيز ثم أضاف:

. ومائتي ألف دينار صوري.

بدا المشطوب أنه لا يسمع، الخيمة صغيرة وحرارة تموز قاتلة، الذباب ورائحة العفونة تجعل من اللحظة قاسية ولا تحتمل.

أضاف المركيز:

. وتطلقون ألفاً وخمسمئة أسير مسيحي من مجاهيل الناس.

العين الواحدة التي تتحرك في وجه المشطوب كانت معلقة في الهواء، دون معنى. كان صامتاً يستمع إلى صوت المركيز الذي يملأ الخيمة والمرج والكون كله:

. وتطلقون مائة أسير معينين بالاسم.

الماروني يجيد التعبير بالعربية كما ينبغي.

. وتعيدون إلينا صليب الصلبوت.

صمت المركيز وصمت المشطوب، انتظر المركيز كلام الرجل ولكن هذا ظل صامتاً، وكأن الأمر لا يعنيه.

تنحنح عمر الزين وقال:

. وماذا تضمنون لنا؟!

قال المركيز مستغرباً صمت الأمير:

. نضمن لكم خروجكم من البلد سالمين، ومامعكم من الأموال والأقمشة وكذلك نساءكم وجواريكم وخدمكم.

نظر عمر الزين إلى الأمير ليرى أثر الكلام عليه، ولكن هذا كان في عالم آخر تماماً. تشجع عمر الزين ليقول:

. موافقون.

مد المركيز يده إلى الفضاء الذي أمامه، قال بصوت أعلى من الصوت الذي تكلم به أولاً:

. هذه شروط الملوك والأمراء، أما شروطي فلم تسمعوها.

تحرك المشطوب عن كرسيه الذي بلا ظهر، تحرك بعنف كمن يريد أن يستل سلاحه، ما أجفل المركيز.

أضاف المركيز بسرعة: تضمنون لي عشرة آلاف دينار صوري، وتضمنون

لجنودي أربعة آلاف أخرى لحمايتكم عند الخروج.

زفر المشطوب، كان من الواضح أن تعبه قد نال منه كل النيل، وأنه على وشك أن يغمى عليه.

قال عمر الزين: موافقون.

أضاف المركيز: نحن في يوم الخميس، والتنفيذ غداً الجمعة.

قال عمر الزين: موافقون. فهلا كتبنا ذلك بيننا.

قال المركيز: لا نكتب، بل هي كلمتنا فقط.

قال عمر الزين: فما الذي يضمن لنا هذا كله.

قال المركيز: المال الذي ستعطوني إياه.

هم المركيز بالقيام، فقام قبله الماروني، ثم قام عمر الزين، أما المشطوب فلم يستطع القيام، كان صاحب جثة عظيمة، وبدا غائباً عن كل ما يجري حوله، مد عمر الزين يده، وضعها تحت إبط الأمير ليساعده على القيام.

عند ذلك، قال الماروني للأمير: بعد أن انتهينا، فإن الملك فيليب أغسطس يقول لك أن هذا هو رده على إهانتك له.

لم يكن المشطوب يسمع أبداً، التفت عمر الزين إلى الترجمان وقال له بحنق ظاهر: وهل هذا وقتك أنت أيضاً؟!!...

خرج المشطوب من الخيمة يسنده عمر الزين، قطعا المسافة مابين الخيمة وباب قراقوش ببطء شديد، شاهدا جند الفرنجة وهم يغتسلون عراة، وهم يتهارشون، وهم يطاردون بغايا بشعور وسخة وثياب ممزقة، وشاهدا خيولهم القصيرة ذات القوائم الغليظة والصدور العريضة القوية، وشاهدا الحدادين والنجارين يصلحون آلات الحرب المكسورة أو التالفة، وشاهدا قدور كبيرة الحجم معلقة فوق نيران تصطفق، كانت الحرارة لا تطاق، والمشطوب تهالك حتى لم يعد عمر الزين قادراً على حمله. الجنود الفرنجة الذين شاهدوا المنظر كانوا يقولون بسخرية شديدة:

. الهزيمة بشعة كهذا الرجل.. ها ها.

. أليس عند الأتراك رجلاً أجمل... ها ها.

. هل أرادوا بهذا إخافتنا.. ها ها .

. يبدو أن رب الأتراك قد غضب على هذا فأعطاه سحنة شيطان... ها ها.

. هذا قاتل الأخت فرانشيسكا، راهبة الرداء الأخضر، إنه الشيطان الذي ضربها بالدبوس على السور.

عمر الزين الذي كان يسند المشطوب توقف عند ذلك، لم يترجم ماكان يسمع

للمشطوب، وقف كثيراً، اعتقد الجند أنه يستريح من عناء إسناد رجل الشيطان هذا. لم يعرف أحد أن فرانشيسكا، راهبة الرداء الأخضر، قد شهقت بين ذراعي عمر الزين بما يكفي لإزالة جبل من مكانه. إنها الحرب، إنهم الناس الذين يعيشون في زمن الحرب. عمر الزين يسند الرجل الذي قتل جسداً أحبه.

غاب الرجلان في باب قراقوش، كانت الشمس في أصيلها، كان كل شيء عذباً في الكون إلا الحروب، بين أناس يعتقدون أن عكا من حقهم، وأناس آخرين يتوجب عليهم الدفاع عنها، لأن ذلك ما يفرضه الدين والنخوة والشرف والرجولة، هناك معان كثيرة يموت الإنسان من أجلها، هكذا دون أدنى مقابل.

في ذلك المساء التموزي الحار، دعا الملك ريتشارد إلى اجتماع عام لكل المشاركين في هذه الحرب، وحتى لا يثير الحزازات، فقد اقترح أن يكون الاجتماع في خيمة ممثل الملك الدانمراكي بحضور ممثل البابا، وكل ملوك وأمراء الأمم المسيحية، وكان هدف الاجتماع كما ذكر الملك ريتشارد في رقعته التي أرسلها للجميع:البحث في تقسيم عكا بعد تحريرها من أيدي الأتراك المحمديين الكفار.

بعد صلاة المساء، جاء الجميع إلى خيمة ممثل الملك الدانمركي، الملك الفرنسي والألماني، وممثلو ملوك صقلية والنرويج والفريزي والفلمي وممثلو مدن جنوة والبندقية وبيزا وآخرون لا أهمية لهم وصلوا بسفينة أو سفينتين لمجرد التبرك بالأرض المقدسة والإسهام في هذه الحرب المباركة، والقول بأنهم حصلوا على مباركة الرب، أو لمجاملة الملوك المسيحيين الكبار.

كانت الكراهية بادية بوضوح على وجهي الملكين الفرنسي والإنجليزي، وقد جلس كل منهما على رأس المائدة الخشبية المستطيلة والرفيعة المغطاة بغطاء من الكتان الأحمر، وضعت عليه عدد من الشمعدانات التي تحمل شموعاً صغيرة كثيرة.

وكان الجلوس حول المائدة يعكس التحالفات التي ظهرت واشتدت الفروق فيما بينها حول عكا.

فالملك جي دي لوزجنان وقائد فرسان الهيكل وممثل تجار بيزة اتخذوا يمين الملك ريتشارد، فيما جلس المركيز كونراد دي مونتفرات الوصي على عرش المملكة اللاتينية وقائد جمعية القديس يوحنا وممثل تجار جنوة على يسار الملك ريتشارد، وتوزع الباقون حسب هذين الفريقين. قائد جمعية التيوتون كان قلقاً من هذا الاجتماع، فجمعيته هي الأصغر حجماً والأقل دعماً، ولهذا حاول أن يبدو بلا موقف حتى يتبين اتجاه الريح.

كان الملك ريتشارد يعرف تمام المعرفة أن تجار بيزة لا يدعمون الملك جي من أجل استعادة تاج المملكة اللاتينية بقدر اهتمامهم بالشروط الجديدة المجزية التي وعدهم بها الملك جي عند استعادة عكا، أما تجار جنوة فكان دعمهم لكونراد يأتي من ناحيتين أولهما إغاظة الباب الذي ينتقدهم دائماً لتقاعسهم عن دفع الأموال له من جهة، ولأن

صور صارت تحت إمرته ويمكن استعمال مينائها تماماً كميناء عكا بعد استعادته. المركيز كونراد، كان قد أشبع الجند والأمراء بقوله أن الملك جي دي لوزجنان لم يعد ذلك الملك المسيحي الذي يمكن الاعتماد عليه بعد فشله في معركة حطين وسقوط القدس ومساعدته صلاح الدين في سقوط عكا نفسها وعسقلان من بعدها، كما تفاخر كونراد بأنه من جمع ملوك المسيحية كما لم يتم من قبل.

ولهذا اعتاد أن يقول ساخراً في خاصة أهله أن الملك جي لا يملك من شرعيته في تاج المملكة اللاتينية غير عضوه باعتباره زوج ملكة تلك المملكة الضائعة.

أما الملك فيليب أغسطس، فقد كان سيتخذ أي موقف من شأنه أن يتميز عن موقف الملك ريتشارد مهما كان ذلك الموقف، ولكن الملك الفرنسي وبعد أن رأى انحياز معظم المسيحيين المحليين إلى جانب كونراد وإعجابهم بقدراته وخاصة موقفه في صور، فقد صار من حقه أن يتكلم عن حماية رعاياه الفرنسيين واهتمامه بمصالحهم وأن يدعم رجلاً ممثل كونراد حتى لو كانت بينه وبين البلاط البابوي مشاحنات، وقال الملك فيليب عدة مرات وعلى مسمع من الجميع أن غيرة كونراد على المسيحية وإخلاصه في الدفاع عنها يشفع له حتى عند البابا.

أما في السر، فقد كان الملك فيليب يقول أن ريتشارد لم يكن يوماً ما مسيحياً، بل هو وثني بالفطرة، يعبد القوة وآلهتها، وأن النورمان بشكل عام، لا يعبدون سوى آلهتهم، وهي آلهة بحرية لا علاقة لها بالمسيحية أبداً.

وعندما سئل الملك فيليب عن سبب الجفوة الظاهرة بينه وبين ملك الإنكليز، قال: لا يمكن الركون لإنكليزي، فهو يستطيع أن يبقى قادراً على الابتسام في وجهك بينما يكون خنجره قد وصل إلى قلبك.

ولما وصل هذا الكلام إلى الملك ريتشارد، ابتسم وهو يقول: بالتأكيد لم يصل خنجري إلى قلب فيليب.. ها ها..

ثم أضاف: أنا أحب هؤلاء الفرنسيين، إنهم عاطفيون بشكل خاص.

وفيما كان أذان صلاة الليل يتصاعد في معسكر المسلمين، كان ممثل البابا يبدأ صلاة قصيرة قبل الاجتماع، ثم يبدأ كلامه باللاتينية أمام الملوك والأمراء:

. نبدأ اجتماعنا هذا ببركة الرب، الكلي القدرة، وباسم مخلصنا يسوع المسيح، وبركة قداسة البابا كليستينوس الثالث، التام القداسة، وهو يرفع صلواته ودعواته إلى السماء طالباً انتصاركم على أعدائكم لتخليص القبر المقدس من أولئك البرابرة، الأتراك الكفرة. وباسم قداسته وباسم مجلس الكرادلة، البالغ التوقير، أتقدم إليكم، جميعاً، أنتم ملوك وأمراء وكونتات وماركيزات المسيحية، القاطنون هنا، وأولئك الذين جاؤوا ليساهموا في هذه المهمة المقدسة، الكفيلة بتخليصكم من جميع خطاياكم وخطايا شعوبكم وأممكم، أتقدم إليكم جميعاً، بتوحيد الجهود وتجميعها لاستعادة القدس وقبر المسيح وتاج المملكة

اللاتينية، من أجل المسيح، ومن أجل المسيحية، ومن أجل إخوتنا القاطنين هنا، الذين لا سند لهم ولا نصير سواكم أنتم، فهم يعيشون في بحر معاد من الأتراك المتعطشين لدمائهم، هذه المرة، عليكم أن تثبتوا لهؤلاء الأتراك على اختلاف أنواعهم وأجناسهم أنكم لن تسمحوا بإبادة الأخوة المسيحيين هنا، ولن تسمحوا بانكسار المملكة اللاتينية الأولى وذهابها. عليكم هذه المرة أن تثبتوا لكل الساكنين هنا، من بغداد حتى الخليفة العباسي، وحتى فاس حيث الملك الموحدي أن ملوك المسيحية مهتمون بقبر مخلصنا، وأن هذه هي مسؤوليتكم، قبر مخلصنا يناديكم ويستصرخكم، وأن الصليب الذي صلب عليه بيد أناس ملاحدة ووثنيين ونجسين. وأن من العار على الملوك والأمراء المسيحين المخلصين، الأوفياء للكنيسة، وأن يبقى هذا العار مصلتاً أمام الأمم.

وأن استعادة عكا هي الخطوة الأولى في الطريق إلى القدس، وأن هذا الإصرار والثبات أمام أسوار المدينة على مدى عامين ليدل على عمق الإيمان وثبات الموقف وقوة الالتزام بتحقيق كل الأهداف. إن استعادة عكا، ستعيد لهذه الحرب زخمها وقوتها كما حدث قبل أكثر من خمس وثمانين عاماً، أن المسيحية تتجدد بهذه المعركة، وأن المسيح سيفرح ما أن يرى المؤمنين على هذا القدر من الصبر والثبات والإيمان، وأنتم تعرفون تماماً ما الذي قام به البابا كليستينوس الثالث، بالغ العظمة والقداسة متمماً عمل البابوات السابقين اوربان الثالث وغريغوري الثامن وكليمنت الثالث من أوامر وفروض دنيوية ودينية لنشر السلام بين الملوك والأمراء استعداداً لهذه المعركة الفاصلة التي يلتقي فيها الشر والخير، نعم، هي المعركة الفاصلة التي تحدث عنها الكتاب المقدس، معركة هارمجيدون، استعداداً لنزول المسيح المخلص. كونوا أنتم في المقدمة، احصلوا على كامل الشرف في هذه المعركة التي يباركها ويريدها الله. ليباركم الرب، ليمحوا خطاياكم وخطايا جنودكم وشعوبكم، لتكن آثامكم كما لم تكن.

جلس ممثل البابا وهو يتصبب عرقاً، فوقف الملك ريتشارد ليتحدث باعتباره صاحب الدعوة، كان طويلاً وشائكاً، بشعره الطويل الأشقر الملبد الذي يصل إلى كتفيه، وعلى عكس كثيرين، فقد كان يلبس بزة الحرب، تكلم باللاتينية أيضاً باعتبارها اللغة التي يفهمها جميع الحاضرين:

. أشكر حضرة الأب، وأؤكد على ماقاله، نعم، هي حرب يريدها الله، وهي معركة هارمجيدون، ولنا الشرف أن نكون من جنودها الأوائل، وأن نكمل ما بدأه الملك العظيم غودفري دي بويون الذي استعاض عن تاج الملك بتاج شوك، وكم كان أخوتنا من البورغنديين والنورمانديين والبروفنساليين أوفياء كل سنة أن يحتفلوا بذكرى موت هذا الملك العظيم. ما أحوجنا في هذه اللحظة إلى تواضع ذلك الملك، وإلى إخلاصه، وإلى إيمانه العميق. إن استعادة القدس وتحرير القبر المقدس هي الهدية الأفضل التي نقدمها إلى روح ذلك الملك الذي أسس هذه المملكة، إن استعادة عكا غدا ستكون بداية الطريق الطويل والصعب لاستعادة القدس والانتقام لأولئك الشهداء من المسيحيين المخلصين

الذين سقطوا في معركة حطين. على يد صلاح الدين ومن يقف في صفه أن يفهم جيداً أننا لن نتخلى عن مسؤولياتنا وعن أهدافنا في تحقيق السلام والوئام في ربوع هذه البلاد، وإن أهدافنا نبيلة وعظيمة وتختلف كلياً عن أهداف صلاح الدين ومن يقف في صفه. إن السمو والنبل والإيمان الذي يتمتع به رجالنا، والمدعوم والمبارك من قداسة البابا، لهو الكفيل بتحقيق كل الأهداف. وكما تعلمون، فإنه قد تم وضع شروط الاستسلام على المحاصرين في عكا، وسندخلها غداً، ولهذا أرجو من المعنيين بالأمر أن يحددوا عدد ونوع وجهة الأماكن والعقارات التي كانت لهم في المدينة قبل أن يحتلها صلاح الدين منذ ما يزيد على أربع سنوات، ستتم إعادة كل الممتلكات والعقارات لكل الأطراف التي كانت في عكا قبل سقوطها، وأريد أن أبلغكم أنه لن يتغير شيء وأن كل ذلك سيتم تسجيله حسب المواثيق المعهودة.

وما إن جلس الملك ريتشارد حتى وقف ممثل تجار جنوة، نظر إلى وجه المركيز كونراد الذي كان كعادته مستفزاً كشوكة، صامتاً كثور:

. أقدم كامل التبجيل وتام الاحترام والتقدير لكل ملك وأمير وكونت وماركيز يجلس إلى هذه المائدة، وأطلب من الرب النصر والبركة له، فأنتم تعلمون أن تجار جنوة، كانوا السباقين والأوائل الذين قدموا المال والأشرعة والطعام للفرسان المسيحيين الأوائل الذين أقاموا الممالك والإمارات في هذه البلاد، وتعلمون أيضاً أن الامتيازات التي حصلت عليها جنوة في عكا، كانت في العام 1104 ميلادية، أي قبل ثمانية وثمانين عاماً، وأن التجار الآخرين من المدن الأخرى قدمت بعدنا، بعد أن رأوا المكاسب والأرباح، وتعلمون أيها السادة المبجلين أن تجار جنوة الذين أمثلهم، قدموا لهذه الحملة كل ماتحتاج إليه من أموال وأشرعة وطعام ودواء وكساء، تعلمون أن سفننا هي الأكثر عدداً، وأن تجارنا لم يبخلوا على جنودكم بشيء، ولهذا فإنني بناء على ما تقدم، أطالب بتعديل الوضع عما كان عليه قبل احتلال صلاح الدين للمدينة، وأطلب أن تؤخذ تضحياتنا بعين الاعتبار.

وما إن جلس هذا، حتى قام ممثل تجار بيزة حيث كان يجلس بالقرب من الملك جي دي لوجنان، وبدأ كلامه بما يشبه لهجة التحدي، وكان من الواضح أن خلافهما التجاري يخفي الخلاف السياسي بين الملك جي والمركيز كونراد، وبالتالي يعكس تلك الفجوة الكبيرة بين الملك الفرنسي والملك الإنكليزي. قال ممثل تجار بيزة:

. يبدو أن الأخ المحترم من جنوة نسي أننا جميعاً، تجار جنوة وبيزة والبندقية منضمون تحت لواء الكومون، وأرغب هنا أن أذكر الجميع بهذا الاتحاد الذي يضم مدننا الثلاثة، بحيث تتساوى في الحقوق وتتساوى في الواجبات، وأن خلافاتنا تسوى بيننا، بدون تدخل من الخارج. إن الكومون يفرض علينا يا سيدي أن تكون أرباحنا متساوية وعقاراتنا متساوية لأننا نقدم مساعداتنا للملوك والأمراء الذين يحاربون على طول الساحل الشامي والمصري بشكل متساو، فما معنى أن يطلب الأخ المحترم من جنوة أكثر من

غيره. هذا يجب أن يبت فيه هذه الليلة قبل غد.

وما إن جلس هذا، حتى قام قائد جمعية القديس يوحنا، القريب من المركيز كونراد، كان صليبه المنقوش على صدره العريض يلمع تحت ضوء الشموع، قال دون أن ينظر إلى أ حد.

. يجب القول أيها السادة أن الوضع تغير جداً بعد معركة حطين وسقوط القدس، فقد تغيرت الأحلاف وتغير وجه المعركة، بعد صلاح الدين لم تعد بلاد الشام كما نعرفها أو عرفها أسلافنا. هذا الرجل استطاع أن يوحد خصومه وأعدائه وأن يجعل منهم جيشاً واحداً يقاتلنا به، ولهذا فإن تغيير المعركة يستوجب تغييراً في توزيع المهام وتوزيع العقارات والأرباح أيضاً. أنتم تعرفون أن هدفنا هو تحرير القبر المقدس، ولكن لن يتم هذا الهدف دون توفير الأموال والرجال، وأنتم تعرفون أن جمعيتنا قدمت وتقدم وستقدم دائماً التضحيات تلو التضحيات من أجل تحرير قبر مخلصنا، إن حجم الأرباح يجب أن يساوي حجم التضحيات، ومع تقديري لما يقوم به أعزاؤنا تجار المدن الثلاثة إلا أن جمعياتنا الدينية هي التي توفر دائماً الفرسان المنقطعين للحرب والصلاة، ولهذا أطلب أن يتغير الوضع وأن تتغير القسمة بما يتناسب مع حجم ما تقدم.

كان من الواضح أن من يقف في صف المركيز كونراد يرغبون بمعارضة ما يقول به الملك ريتشارد، والحقيقة أن ماكان يثير الخلاف بين المحاربين حول عكا أكثر ما يوحدهم، فإضافة إلى الخلاف السياسي والتجاري والديني، كان المسيحيون المحليون ينظرون إلى المسيحيين القادمين على أنهم غير متحضرين، لا يلبسون جيداً ولا يعرفون الكثير من المخترعات وأنواع الأطعمة والكتب والأدوية، بينما ينظر هؤلاء إلى المسيحيين المحليين على أنهم فقدوا الحماسة الأولى وتخلوا عن كثير من العادات المسيحية، هذا بالإضافة إلى أن القادمين يعتبرون أنفسهم بأنهم حماة هؤلاء والمدافعين عنهم، ولهذا فإن ذلك الإحساس بالرفعة من جانب هؤلاء الإحساس بالقوة من جانب هؤلاء كان دائماً مثار حزازات لا تنتهي، وقد شعر الأمراء المحليون بالحرج عندما اصطفوا إلى جانب المركيز كونراد دي مونتفرات القادم من بيزنطة وتركوا الملك جي دي لوزجنان، الملك الذي ولد وعاش بينهم هنا في هذه البلاد، كما أن رغبة الأمراء المحليين بالاستقلال عن أوطانهم الأصلية كانت تصطدم دائماً، ليس فقط بنقص الرجال والأموال والعدة، وإنما ببحر العداء العظيم الذي يحيط بهم من كل جانب، فالأتراك المسلمون ما فتئوا يحرضون على وجود الممالك والإمارات الإفرنجية، الأمر الذي يدفع بالأمراء المسيحيين إلى التفكير الدائم بالأوطان الأصلية، وطن المرء لغته، إن اللغة تشد الناس إلى أوطانهم الأصلية، ولا يمكن العيش بالقرب من أتراك مسلمين على ما يبدو.

الملك ريتشارد الذي أدرك المغزى العميق لما قاله كل من ممثل تجار جنوة وقائد جمعية القديس يوحنا، طلب من الأمير باليان الإبليني أن يتكلم باعتباره آخر رجل دافع

عن قبر المسيح قبل أن يسقط بيد صلاح الدين، فقام هذا بوسامته الملحوظة والقسوة التي تحيط بعينيه، وقال:

. اسمحوا لي أيها السادة بالقول إن حربنا هذه وإن كان هدفها نبيل ومقدس، إلا أن المطامع والأهواء تلعب دوراً رئيسياً، لقد تعرضت شخصياً وبعض النبلاء هنا إلى الذل والمهانة، عندما طردنا صلاح الدين من القدس قبل أربع سنوات تقريباً، لقد خرجنا من المدينة المقدسة بحماية أعدائنا الأتراك، ولكننا لم نجد قلعة مسيحية واحدة أو مدينة مسيحية مهما صغرت تقبل باستقبالنا، بل على العكس من ذلك تماماً، فإننا هوجمنا داخل حدود إمارة طرابلس من قبل مسيحيين مثلنا، وأكثر من ذلك، فقد رفض حاكم طرابلس استقبالنا، وسمح لبعض رجاله بنهب ما نملك من متاع. إن هذا يدل أيها السادة على ضرورة استعادة القوة التي تحلى بها الفرسان المحاربون الأوائل..

تدخل المركيز كونراد دي مونتفرات بشدة:

. إذا كنت تعرض بتصرف حاكم طرابلس قبل أربع سنوات، فما قولك إذن بمن يهدد بالاستيلاء على صور، تلك المدينة التي وقفت في وجه صلاح الدين، وكانت سبباً في حضور كل هؤلاء الملوك والأمراء من الغرب.

كان هذا هجوماً غير من متوقع من المركيز على الملك ريتشارد، الأمر الذي خلق بلبلة حول المائدة، لم يرد الملك ريتشارد، ذلك أن الملك جي اندفع بما عرف عنه من تسرع وطيش:

. عندما تهدد الأمم المسيحية بالانقسام بسبب أطماعك الشخصية، فإن الحزم سيكون أولى، وأن الملك ريتشارد ماكان ليهدد بالاستيلاء على صور لولا ما رآه من استغلالك لوجود هؤلاء الملوك والأمراء، وكأنهم جاؤوا إلى هنا لتتويجك ملكاً في القدس. يجب أن تعرف أيها المركيز أن أكبر ملوك الغرب المسيحي جاؤوا لاستعادة القبر المقدس وتحريره، لا من أجل أهدافك الصغيرة.

رد المركيز كونراد بعنف شديد:

. ماجاء هؤلاء بسببك، بينما كنت أنت تساعد صلاح الدين في سقوط عسقلان والداروم، كنت أنا من يرسل الرسائل ويعد العدة للتحضير لهذه الحملة. لقد فشلت ملكاً وفشلت قائداً، وعليك أن تعترف بذلك. عندئذٍ تدخل الملك ريتشارد قائلاً بهدوء:

. مهلاً أيها السادة، من الواضح أن هناك خلافاً عميقاً بين الأطراف ما يستدعي المراقبة الدائمة والإشراف المستمر، وأعتقد أن الملك فيليب يوافقني على ذلك.

خرج هذا عن صمته بالقول:

. هذا صحيح، ولهذا أرغب في تقسيم المدينة هذه الليلة، حتى لا تصطدم الفرسان ببعضها بعضاً يوم غد، ويتحول يوم النصر إلى يوم هزيمة.

قال الملك ريتشارد: وحسماً للخلاف، فأنا أقترح كما قلت منذ البداية، ببقاء الوضع على ماهو قبل احتلال المدينة منذ أربع سنوات.

قال الملك الفرنسي: أوافق على ذلك بشرط أن يعاد النظر في التقسيم بعد تحرير المدينة.

قال ريتشارد: موافق.

وما إن اتفق الملكان حتى توقف الكلام، لم يعقب على قوليهما أحد، صمت الملك ريتشارد قليلاً قبل أن يقول:

. أمر آخر، أيها السادة، أرغب في طرحه أمامكم.

توتر الحضور، إذ أن ما تم الاتفاق عليه بين الملكين لم يرض أطرافاً كثيرة.

قال الملك ريتشارد وهو يجيل بصره بين الحاضرين:

. تعلمون أن شروطنا للاستسلام قد قبلت، وأن المركيز كونراد هو ضامن هذا الاتفاق، فيما سأكون أنا من ينفذه، هذا مع احتفاظ كل واحد منكم بنصيبه من الأموال والعقارات، هل هناك من اعتراض؟!..

قال الملك الفرنسي بما يشبه الحدة: على أن يكون ممثلي الشخصي حاضراً في كل مرحلة من مراحل التنفيذ. نظر الملك الإنكليزي إلى نظيره بعين صقر، قال: حسبت أن المركيز كونراد، ضامن الاتفاق يمثلك أيها الملك.

كان ذلك سؤالاً في غاية الخبث، ولكن الملك الفرنسي أسرع إلى القول: مع احترامنا الكامل للمركيز كونراد إلا أنه ليس من رعايا مملكتي.

فجأة، ألقى قائد جمعية التيوتون سؤاله:ولماذا ننفذ الاتفاق أيها السادة، لماذا لا نقتل المحاصرين ونلقيهم في البحر؟!...

كان سؤاله مثيراً وغير مريح، صمت الجميع، حتى قال الأمير باليان الإبليني:

. مع توقيرنا الكامل لشخص قائد جمعية التيوتون وغيرته المسيحية الشديدة، إلا أن أخلاق المحارب وأخلاق المسيحي الحقيقي تفرض عليه احترام المواثيق والعهود، ويعرف المحترم السائل، أن صلاح الدين لم يقتل مسيحياً واحداً عندما احتل القدس، وقد خرجنا جميعاً من أمامه، وكان يدفع الفدية عن فقراء المسيحيين، ولن نكون أقل منه أخلاقاً. إن تصرف صلاح الدين هذا رسالة لنا جميعاً علينا أن نقرأها بتقدير. إذا كنت مخطئاً أيها السادة، فليتقدم أحد منكم وليقل لي أنت مخطئ.

تدخل الملك جي، الذي ساعد صلاح الدين فعلياً في إقناع حاميات بعض المدن المسيحية بالاستسلام دون إراقة نقطة دماء واحدة:

. الحقيقة أيها السادة أن الرجل مختلف عما عرفنا من أمراء الترك، إنه رجل لا يشبه سيده القديم نور الدين، وأنا أؤيد ما قاله الأمير باليان، من أن صلاح الدين يبعث

دائماً برسائل علينا قراءتها جيداً، إننا نأخذ منهم مدناً ويأخذون منا مدناً، وعلينا أن نتقن ذلك، بحيث لا نقطع كل الخيوط.

بدا من الغريب أن يكون الملك جي حكيماً.

أصر قائد جمعية التيوتون الذي رغب أن يذكر الجميع بوجوده.

. ولكن، ما جاءت هذه الملوك وهذه الجيوش والسفن من أجل أن يقدموا للأتراك درساً في المسيحية، بل دروساً في التأدب وحسن التصرف مع إخوتنا المسيحيين المقيمين هنا، ما أقوله هو أن يشعر الأتراك دائماً أن هناك من يؤدبهم ويبصرهم بالسلوك المطلوب، ثم، لأذكر السادة هنا، أن صلاح الدين هذا، الذي تقولون إنه يبعث برسائل أخلاقية، إنما يقوم بتصفية وجود المسيحية كلها من هذه البلاد.

رد الأمير باليان الإبليني:

. ولكن الرجل كان صادقاً في كل اتفاقاته معنا، وكان يمكن له أن ينتقم مما فعل أولئك المسيحيون الأوائل الذين دخلوا القدس قبل أكثر من ثمانيين عاماً، حيث قتلوا أكثر من سبعين ألف مسلم. الرجل لم يفعل بنا شيئاً، بل على العكس من ذلك، اعترف لكم أيها السادة، أن ما فعله عندما دخل القدس لا يمكن تصديقه ولا يمكن فهمه بسهولة. إنه أكثر من الكرم وأكثر من الرجولة. يجب أن أعترف لكم بذلك. أنا من رأى ذلك، وأنا من فاوض الرجل، وأنا من رأى كيف يدفع من ماله ليفدي فقراء المسيحيين. وأعترف لكم أكثر، لو كنا نحن الذين دخلنا القدس لما فعلنا فعله، ولما وصلنا إلى ما وصل إليه،هذا رجل مختلف كما قال الملك جي.. وعلينا الاعتراف بذلك... ثم إننا نحن الذين نعيش مع هؤلاء الناس منذ مدة طويلة، ولا نريد أن نقطع معهم كل الحدود.

سأل الملك ريتشارد: برأيك أيها الأمير، لماذا تصرف صلاح الدين هذا التصرف؟!...

قال الأمير باليان وهو يستعيد ذكرى أيام الحصار المخيف: في القدس: لا أدري أيها الملك، الحقيقة لا أدري، ولكن جواسيسنا الذين يعيشون في معسكر السلطان يذكرون أن صلاح الدين ملتزم بدينه جيداً، يقول هؤلاء أن صلاح الدين يفرق بين المحارب وغير المحارب، وأن هناك في دينه ما يمنعه من الإيغال في القتل أو تقصده...

تدخل قائد جمعية التيوتون:

. وهل تريد القول أيها الأمير أننا لا نفرق بين المحارب وغير المحارب، هل تريد القول أننا أقل تقديراً للروح الإنسانية...

قال الأمير باليان بعنف: المسألة ليست بالكلام، المسألة في التنفيذ، صلاح الدين أقل قتلاً منا... وأعترف أيضاً؛ إنه يعرف كيف يقتل أيضاً... إذا أحببت ذلك أم لم تحبه.

توجه ريتشارد بالسؤال إلى نظيره الفرنسي: وما رأي عزيزي الملك فيليب.

قال الملك فيليب بتؤدة: أنا مع تنفيذ الاتفاق، لسنا أقل من صلاح الدين، وهو لا يعلمنا أصول الحرب ولا أصول السلم.

قال الملك ريتشارد بما يوحي بانتهاء المجلس: سمعنا كل شيء. وسمعتم كل شيء، وسنقوم بما هو مناسب.

انفض الاجتماع، ركبوا خيولهم وانطلقوا إلى خيامهم المتفرقة والبعيدة عن بعضها البعض، فيما كان التكبير الشديد يصل إليهم من معسكر السلطان، كانت الأصوات واضحة وتتعالى في هذا الليل الحار والصافي. ما الذي يجري في معسكر الأعداء؟!... أما المحاربون في خيامهم وفي سفنهم، فقد كانوا يحتفلون بالنصر استعداداً لدخول عكا غداً، وكان الأشد فرحاً أولئك الجنود الذين أمضوا سنتين حول المدينة يترقبون لحظة استسلامها، ولأنها كانت الحرب الأكثر طولاً والحصار الذي لم يكن أبداً من قبل، ولأنها المدينة التي تجمع حولها أكبر عدد من ملوك المسيحية وأمرائها، ولأنه الانتصار الأول والأصعب على صلاح الدين بعد سقوط القدس، فقد رغب الجميع بالاحتفال، وهكذا فقد أشعل الجنود النار وشربوا الخمر، وغنوا للنساء والبيوت والأصدقاء الذين ماتوا أو غرقوا أو اختفوا، ثم دارت الخمرة في الرؤوس، فتعروا وتشاجروا وطاردوا بعضهم البعض، لاحقوا من وجدوهن من بغايا، بعضهن للمال والبعض الآخر كنوع من التكفير عن خطاياهن وذلك بمنح أجسادهن للمحاربين على الأرض المقدسة، كان فرحهم وحشياً وعنيفاً ومنتهكاً لكل شيء، ولكن النصر رائع، لاشيء مثل النصر، إنه يتحول إلى يقظة في الجسد، والمنتصر شبق إلى أبعد الحدود، قوي لا يخجل، صريح يكشف عن مخبوء جسده ونفسه.

وفي صبيحة اليوم التالي، يوم الجمعة الرابع من تموز عام 1191، وقف ثمانية وثلاثون ملكاً وأميراً وكونتاً ومركيزاً على رأس فرسانه وراجليه، بأعلامهم وشاراتهم وسيوفهم ودروعهم وصلبانهم، أحاطوا بعكا من جميع جهاتها، كما انطلقت سفن الجنوية والبيازنة والبنادقة وكل السفن التي حملت المقاتلين من البلاد البعيدة وأحاطت بعكا من جهة البحر، ونعرت الأبواق فامتلأت السماء بضجيج يصم الآذان، وكانت تلك إشارة ليتقدم المركيز كونراد دي مونتفرات تتبعه كوكبة من الفرسان يحملون أعلام الملوك والأمراء المشاركين في الحملة وعددها ثمانية وثلاثون علماً، وفيما كان هذا يتقدم باتجاه الباب الرئيسي للبلدة المنهكة، كان يشعر بإثارة شديدة في جسده وروحه، فقد كان يشعر أن صبره وجهده وعمله الدؤوب الطويل هو المسؤول عن هذا النصر، وعن هذه الجموع التي خلفه، كان يشعر أن هذا هو نصره الشخصي، وأنه . وحده . استطاع أن يجر ملوك أوروبا إلى هنا، وأنه . وحده . الذي أعاد لهذه الحرب جذوتها وحماستها التي خبت وتضاءلت، وأنه هو . وحده . الذي استطاع أن يهزم صلاح الدين، كان يشعر أن هذه

الحرب هي حربه وليست حرب غيره، ولهذا فهو الأحق بتاج مملكة القدس اللاتينية، وهو الأحق بأن يكون غودفري دي بويون آخر، ولن يمانع أبداً بوضع تاج من الشوك عندما تستعاد القدس، كان الرجل يشعر أنه من آخر جيل من المسيحيين الحقيقيين الذين يعتقدون أنه بقدر المحبة والتسامح التي بشر بها السيد المسيح، بقدر القوة التي يجب أن يتمتع بها من يبشر بذلك، لا محبة مع الذل ولا تسامح مع الضعف، الضعيف لا يسامح بل يتنازل.

كونراد الذي لم يرفع أي علم باعتبار أنه في نزاع حي مع الملك جي، ترك الفرسان الآخرين يرفعون علم مملكة القدس اللاتينية وعلم البابوية، كل ما اعترف به الملوك الآخرين له أن يدخل عكا أولاً، وأن يرفع الأعلام كلها أولاً، وأن يتفاهم مع المحاصرين أولاً.

دخل كونراد عكا من الباب الرئيسي الذي كان مفتوحاً على مصراعيه، أو بما بقي من مصراعيه بعد الدق والحرق والتكسير الذي تعرض له طيلة سنتين، كان نسيم البحر يضرب صفحة الرجل ويحمل معه روائح العفونة والتحلل، كانت المدينة أشبه بمدينة ضربها إعصار ومضى، خراب في كل مكان، الدكاكين بلا أبواب، والشوارع بلا بلاط، حجارة السور وباشوراته تملأ الأزقة، آثار حرائق على الجدران وألسنتها السوداء تخرج من النوافذ والأبواب، جثث متعفنة، أحجار منجنيق لم تتفتت، سهام مكسرة، سيوف مرمية هنا وهناك، أغطية وأثاث محطم، قطط سوداء سمينة تتمسح في الجدران، ورائحة فظيعة تسيطر على المكان كأنها تفضحه.

عجب المركيز كونراد لحال المدن، إنه يتذكر عكا عندما كان فيها حاكمها الناعم اللين، عاشق المتع واللذائذ كلها جوسلين دي كورتناي، الذي لم يستطع أن يدافع عن عكا عندما حاصرها صلاح الدين أقبل أربع سنوات أو يزيد، قال لنفسه إنه لا يشبه جوسلين أبداً، فقد أسرع هذا إلى تسليم المدينة لصلاح الدين، بل أقنع حامية المدينة بعدم القتال. أما هو، فقد حصن صور وجعل منها قلعة لا يصل إليها الطير. إنه لا يشبه جوسلين أبداً، وها هو يدخل عكا انتقاماً وتشفياً وانتصاراً، إن جوسلين دي كورتناي فقد إيمانه وحماسه ومسيحيته أيضاً، ولهذا لم يستطع أن يتحمل أو يصبر أو حتى يدافع. أما هو، فقد صبر واحتمل ورفض تسليم صور مقابل حياة أبيه، للمجد أثمان باهظة.

ولكن عكا هي عكا، هاهي الرائحة الذفرة المعتادة، التي يأتي بها التجار من بلادهم البعيدة والمجهولة، نعم، هي عكا التي يتذكرها المركيز كونراد، بشوارعها المزدحمة بالناس والغرارات والدواب والعربات، الخضار والتوابل، و الزجاج والفخار والفضة والذهب، باللغات المختلفة والوجوه التي لا تشبه بعضها والثياب التي يثير بعضها السخرية حقاً.

ولكنها تكاد لا تكون المدينة التي يعرفها، فنزل جمعية القديس يوحنا تهدمت بعض

جوانبه، وبيت الأسقف لم يعد يرفع الصليب على واجهته، وبرج جمعية فرسان الهيكل بلا باشورة إطلاقاً، وفندق أهل بيزة محترق، وبيت محكمة الميناء بلا أبواب ولا شبابيك ولا تماثيل على السلم الرخامي الصقيل، كل شيء اختلف، نعم، الأتراك يهدمون كل شيء، ويخربون كل شيء. الأتراك أجلاف حقاً.

قفز المركيز كونراد عن حصانه، أمر الفرسان بالتوقف، أمرهم برفع الأعلام على برج جمعية فرسان الهيكل وجمعية القديس يوحنا وعلى بيت الأسقف وعلى الباشورة التي تعلو باب قراقوش. كانت الأعلام عالية جداً، صارت ترفرف كأنها طيور عملاقة تضرب الرياح وتضربها الرياح، كانت الصلبان الحمراء والخضراء والزرقاء والصفراء تغير المشهد كلياً، وما إن شاهد المركيز تلك الأعلام وهي تعلن عن نفسها عالياً في صفحة السماء فوق كل ذلك الخراب، شعر بأنه حقق ما حلم به طيلة تلك الأيام والليالي. ابتسم فيما بينه وبين نفسه، شعر بالفرح يأخذ بمجامعه. فانطلق بصراخ وفرح وحشي غير معهود فيه ولا معروفاً عنه:

. ليتبارك الرب!!...

صاح الفرسان وراءه مباشرة : ليتبارك الرب!!...

سمع الفرسان والجنود وراء السور الصياح، فصاروا يصيحون:

. ليتبارك الرب!!...

أخذ مئات الألوف من الجنود والفرسان والأمراء والملوك يهتفون كل بلغته:

. ليتبارك الرب!!... ليتبارك الرب...

. كانت الصيحات ترج الأركان الأربعة، ملأت الفضاء كله، شعروا بالفخر والكبرياء، شعروا ببركة الرب تحل عليهم، أحسوا بطعم النصر على الأسطورة التي وصلت إليهم عن صلاح الدين.

تهالك الرهبان على الأرض، في صلاة طويلة تتخللها الدموع، فيما انطلق آخرون بالغناء عن مجد القدس الذهبي، وعن السيد المسيح الذي عاد إليها علىحماره يحمل غصن النخيل بيد وغصن الزيتون بيد أخرى.

كان فرحاً طاغياً وشاملاً، بحيث تناسى الجميع أحقاده ومصالحه، إلى درجة أن الملك ريتشارد ترجل عن جواده ودخل خيمة الملك الفرنسي فيليب أغسطس، الذي استقبله على بابها، وتعانقا بقوة أمام الجنود الذين ازداد فرحهم وحماسهم، ثم رفع الملكان يديهما بالتحية وسارا معاً بين صفوف الجنود المتحمسين. كان ذلك نصرهما، وهذا ما فعلاه معاً، وهذا ما سيجعلهما في بلاد الغرب المسيحي من أنبل وأطهر الملوك وأكثرهم غيرة على المسيحية.

ولكن ذلك لم يدم طويلاً، بل كاد أن ينقلب تماماً إلى شر مستطير، عندما اندفع

فرسان جمعية القديس يوحنا ونظيرتهما جمعية فرسان الهيكل إلى مواقعهما القديمة في المدينة، وكذلك فعل ممثلو تجار بيزة وجنوة والبندقية، رغم ماتم من اتفاق ليلة أمس.

إذ استعادت جمعية القديس يوحنا العقارات الواقعة شمالي المدينة ابتداءً من التقاء السور بالبحر وحتى البرج المسمى باسم الجمعية من ناحية الشرق، وحيث كان من المفروض أن يبدأ من هذا البرج المنطقة التي ستستعيدها جمعية فرسان الهيكل، ولكن الطرفين فوجئا بوجود مبنى جديد أقامه المسلمون لصنع الأسلحة، فادعى كل طرف ملكيته، ولما لم يتفقا، تضاربا بالسيوف وسقط عدة جرحى من الطرفين، ولم يتوقف ذلك إلا عندما أقام الملك ريتشارد بنفسه وكبح جماح المتقاتلين.

ولكن الخلاف تجدد بين الطرفين مرة أخرى، عندما اقتسما مواقع فرض الضرائب ودكاكين للصرافة. إذ أن الجمعيتين الدينيتين المحاربتين كانتا تفرضان ضرائب على السفن القادمة إلى ميناء عكا، وتقومان بتبديل النقود للمسافرين والتجار في تلك السفن، وهي مهنة لا يقوم بها إلا فرسان تلك الجمعيتين وتدر ريعاً لا ينقطع. ولأن الطرفين وجدا أن المسلمين . خلال أربع سنوات . قد هدموا كثيراً من تلك الدكاكين والفنادق وأنهم أقاموا مبان جديدة، فقد اختلف ممثلوا الجمعيتين اختلافاً دموياً هذه المرة، تقاتلوا بالسيوف حتى دخل الليل، الأمر الذي دفع بالملك ريتشارد إلى تقسيم المدينة من جديد، حيث أعطى فرسان الهيكل والقديس يوحنا ما بأيديهما بالإضافة إلى تناصف الميناء بعد قياسه، أما البيازنة فأعطاهم شرق المدينة حيث كانت هناك فنادقهم وحماماتهم ومخازنهم ومخابزهم القديمة التي لم تمس، أما الجنوية فأعطاهم جنوب المدينة المطل على البحر، فيما توزع البنادقة بين مناطق الجميع مع الإبقاء على تماسهم مع البحر أيضاً. أما جمعية التيوتون التي لم تكن تملك شيئاً داخل أسوار عكا، فقد منحهم الملك عدة كاريوكات من الأرض خارج الأسوار. وقد ضمن الاتفاق كل من الملك ريتشارد والملك الفرنسي فيليب أغسطس والممثل البابوي وممثل عن الملك الألماني الشاب الذي لم يستفق بعد من صدمة غرق أبيه في ذلك النهر الصغير اللعين في أرض الأتراك البعيدة التي يحكمها أجلاف يسمون آل سلجوق.

لكن هذا الاتفاق سرعان ماتم خرقه بعد أقل من أسبوعين تماماً، ولكنه اتخذ شكلاً آخر، إذ طالب المركيز كونراد بتاج مملكة القدس اللاتينية وأراد من الملوك أن ينصبوه قبل عودتهم إلى بلادهم، فرفض الملك جي ذلك، مدعوماً من الملك ريتشارد، فعاد كونراد إلى القول إنه الأحق بذلك من ناحية شرعية، فهو زوج الملكة صاحبة التاج، ومن ناحية عملية، فهو من كان مسؤولاً عن تنظيم هذه الحملة، كان الاجتماع في بيت الأسقف الذي كان مسجداً جامعاً وبيتاً للمتصوفة المسلمين، وكان المركيز كونراد يتحدث بفخر ما بعده فخر، ففاجأه الملك ريتشارد بالقول:

. دعك من هذا التفاخر، لم تصنع أنت هذا النصر، ولم تأت أنت بنا، وكذلك دموع

الرهبان الذين أرسلتهم، إن كان ملك وأمير هنا، جاء بسبب حبه لدينه ورغبة منه في تحرير القبر المقدس، أنت لا تتميز عن أحد هنا. هل تفهم ذلك.

اشتعل غضب المركيز كونراد، نظر إلى الحضور، فلم يتعاطف معه أحد، أكمل الملك ريتشارد:

. كنت صادقاً في تهديدي بأخذ صور منك، لم أفعل ذلك بسبب حربنا مع صلاح الدين ولم أرغب في إحداث انشقاق في المعسكر المسيحي. أما الآن، فأنا على استعداد لتنفيذ تهديدي.

ماكان للملك ريتشارد أن يقول ذلك لو لم يضمن رضى وموافقة معظم الأمراء المحليين وكذلك تجار المدن الإيطالية سراً وعلناً.

أكمل ريتشارد :

. أنا سأبقى هنا أيها المركيز لأباشر الأمور بنفسي.

كان يشير بذلك إلى إعلان الملك فيليب عن رغبته في السفر لعوارض مرض بدأت تظهر في جسده.

المركيز كونراد، احتقن بالدم والغضب والكراهية، قال من غله:

. إذا لم أحصل على ما يناسبني وما يناسب مقامي ويناسب تضحياتي، فإنني أهدد... قاطعه الملك ريتشارد بعنف شديد:

. أنت لا تستطيع أن تهدد ولا تعط نفسك أهمية أكثر ما تستحق. لك صور وإذا استطعت أن تنتزع بيروت وصيدا من أيدي المحمديين فهما لك.

قال كونراد بصوت من تحته النار: وتاج المملكة.

تحرك بعض الأمراء المحليين، وخاصة أولئك الذين دعموا المركيز في بداية صراعه مع الملك جي وأغروه بتاج المملكة، كان من الصعب عليهم الآن أن يتخلوا عن الرجل خاصة وأنه أثبت دائماً أنه على قدر المسؤولية.

الملك ريتشارد لم يشأ أن يشوه انتصاره السريع في عكا بمغامرة شق الصف المسيحي، ولم يرد أن يحمل معه وصمة عار يأخذها معه إلى إنكلترة، كان يريد انتصاراً طاهراً خالصاً شفافاً يضاف إلى انتصارات المسيحية. قال وهو يدير وجهه بعيداً عن وجه المركيز القاسي البغيض: لك عرش مملكة القدس إذا توفي الملك جي، تسابق وإياه على حب الحياة، لتحصل على التاج.

شعر المركيز أن هذا يمنحه طوق نجاة، ذلك أنه لا يستطيع أن يحارب مثل هذا الملك الصلب كالحجر، المراوغ كثعلب صحراوي، المتكبر الذي لا يسمع أحداً، وقد شعر المركيز أيضاً أن التجار قد خانوه، وأن الأمراء الذين دعموه في البداية يتناقصون الآن أمام أموال وقوة ونفوذ الملك ريتشارد.

كانت تلك فرصة أخيرة، قال من بين أسنانه: موافق.

قيل فيما بعد أن عبارة الملك ريتشارد التي قالها للمركيز: "تسابق والملك جي على حب الحياة"، كانت بمثابة الفكرة التي لمعت في رأس الملك الإنكليزي لقتل المركيز كونراد، أو أنها كانت بمثابة الإذن لقتل المركيز، فبعد سنة تقريباً من هذا الحوار، قتل المركيز بينما كان يصلي في الكنيسة بيد شخص يلبس ثياب الرهبان، وقد حاول أسقف صور أن يجعل من المركيز شهيداً للمسيحية فادعى أن من قتله كان القائد التركي الضخم صاحب الوجه البشع الذي يسمى المشطوب، وقد قصد أسقف صور من ذلك أن ينفي عن المركيز صفة الخيانة لما قيل إنه فاوض صلاح الدين على خيانة قومه والانتقام منهم لما منعوه تاج مملكة القدس، فقام هذا الأسقف بكتابة أشعار وقصص تروي سيرة المركيز، فيما أشاع أيضاً أن المركيز صاح قبل أن يموت "ماش توب... ماش توب."، أما باقي الأمراء المسيحيين فقد همسوا فيما بينهم أن الملك جي هو من بعث إليه رجالاً من الحشيشية الباطنية لقتله بعد أن اتفق مع شيخ الجبل راشد الدين سنان مخوفاً إياه من أن المركيز كونراد يفاوض صلاح الدين لإعطائه الإذن باحتلال كل القلاع غرب حلب ومنها قلعة مصياف وبانياس والخوابي والكهف، فاستشاط سنان غضباً وبعث إليه من قتله، ويقال أن عمر الزين متولي العيون والجواسيس هو الذي رتب هذا الترتيب المعقد وبإعلام مسبق من الملك العادل الذي وافق على هذا العمل لما فيه من توهين لصفوف العدو وإضعاف لشوكتهم.

والمهم في هذا، أن اغتيال المركيز كونراد لم يضعف من مكانة الملك ريتشارد بل يمكن القول لأن ما جرى كان يعارض هذا القول تماماً، إذ أن مقتل كونراد وحد الجميع حول هدف صعب المنال كما يبدو حتى الآن ألا وهو استعادة القدس ذاتها.

متجددات القاضي الفاضل*

اليوم يوم بكاء، وأهل بيسان بكاؤون، وهم الذين أشاعوا في ديار الإسلام كلها أن النظر إلى وجه الإفرنجي يسبب ظهور البثور على الجلد. وهاهي المشاهد في عكا تعيد إلي كل المشاهد الأخرى التي حدثني عنها والدي وتلك التي رأيتها بعيني.

عكا تسقط بيد الإفرنجي البغيض، وعلى أسوارها وأبراجها وجوامعها ترفرف أعلام طواغيت الفرنجة كلها.

مولاي السلطان صلاح الدين صار يبكي كالثكلى، أسرع إليه القاضي ابن شداد والكاتب عماد الدين الأصفهاني، يهونان عليه المصاب، أما أنا فلم أستطع أن أتحرك من خيمتي. أدركني النقرس اللعين فشل مفاصلي رغم حرارة هذا الصيف.

سمعت من فراشي صياح الفرنجة وهم يدخلون عكا، كان عجيجهم كريهاً ومستفزاً إلى أبعد الحدود.

أجبرت نفسي على النهوض، أصلحت من شأني قدر استطاعتي، خرجت من خيمتي التي كانت تجاوز خيمة مولاي السلطان من جهة وخيمة القاضي ابن شداد من جهة أخرى، كانت التلال التي ينتشر عليها جيش السلطاني خيم عليها الصمت والذهول وهم يشاهدون عشرات الآلاف من جند الفرنجة وأشرعتهم تطوق عكا وتنتهكها.

ما أبشع الهزيمة!! الهزيمة سوءة كريهة منفرة وقبيحة. شعرت بسكين يغوص في لحمي، شعرت بالخزي حقاً، شعرت بالتقصير والعجز والضعف، وشعرت بالخذلان، كانت هذه النهاية نهاية مرعبة حقاً، سنتان من العمل الدؤوب تذهب أدراج الرياح، وعكا بوابة البحر لملوك الغرب وطواغيتها، ومن ملكها ملك الشام.يا الله! هذه هزيمة منكرة!!

---

* *فالمتجددات هي عنوان المذكرات اليومية التي كان يكتبها القاضي الفاضل عن تجاربه ومشاهداته وسير حياته اليومية، في سلوك غير معهود لأهل زمانه.*

دخلت خيمة مولاي السلطان صلاح الدين، وما أن رآني أدخل عليه أمشي بصعوبة بالغة، حتى هب إلي.. احتضنني وأنا أسمع نهنهة بكائه.

. تعال إلي.. تعال إلي يا قاضينا الأجلّ... أعني على ما أنا فيه.

كتمت ما ثار في صدري، قلت بما أملك من رباطة جأش:

. قل يا مولاي... لا حول ولا قوة إلا بالله.. إنا لله وإنا إليه راجعون.

قال مولاي: ما الذي جرى يا قاضينا الأجل. قل لي ما الذي جرى. ألم أعد أهل عكا بالدفاع عنهم؟.. لماذا تعجلوا بالاستسلام؟!...

قلت: أعذرهم يا مولاي!! الحصار طويل وبغيض ومكلف.

قال مولاي بما يشبه التسليم: ولكني كنت أمدهم بالرجال والميرة والسلاح!!...

قلت لمولاي: ولكن ذلك لم يعد كافياً يا مولاي.. قلوع الفرنجة ملأت البحر.

صاح مولاي فجأة: والمشطوب.. ماذا المشطوب...

قلت لمولاي: وماذا يفعل رجل واحد أمام كل هذه الأجناس يا مولاي.

عاد سيدي ومولاي إلى البكاء الصامت الثقيل، كانت هيبته ومسؤولياته تمنعه من أن يتحرك، فكبت بكاءه، فظهر ذلك ألماً شديداً على وجهه.

بعد فترة قصيرة، قلت لمولاي: أتمنى عليك يا مولاي أن لا تجد في نفسك، فإنها مدينة واحدة تطلبت سنتين حتى أخذت، ودولة الإسلام بيدك، وأنت المتحكم فيها والمنافح عنها، والأيام دول، وما زال الميدان منصوباً وما زالت الخيول واقفة، وما زالت السيوف مشرعة وحولك رجالك وهم من خيرة الرجال...

قال مولاي: رجالي... أتقول رجالي,... وقد هرب بعضهم من عكا وبعضهم سلمها... أتقول رجالي أيها القاضي. قلت رجالك ما زالوا رجالك.

قال بغضب: لا تذكرني، أنت نفسك كتبت عشرات الكتب تستنجد بملوك وأمراء المسلمين، فماذا كانت النتيجة، هاهم ملوك الغرب كلها متجمعة حول عكا، فمن معي... ها.. قل لي.. من معي؟!...

سأل نفسه ثم أجاب: معي أمراء آل زنكي فقط، الذين أصانعهم بالأموال والإقطاعيات، والأمراء من خاصتنا، هذا ما معي.. أنظر إلى هناك... من ترى من الفرنجة؟!... ماذا ترى من أعلامهم؟... ثمانية وثلاثون علماً... فكم علماً معي؟!!!!...

تدخل القاضي ابن شداد بتواضعه ولطفه ورقته: ولكنك يا مولاي على الحق... والحق معك... فهل تريد للباطل أن يكون معك.

التفت إليه مولاي السلطان، سبقته دمعته، قال: لا والله لا أريد، أن أهزم ومعي الحق أحب إلي أن أنتصر ومعي الباطل.

تشجع القاضي ابن شداد بالقول: وقد منَّ الله عليك بنصر حطين وفتح بيت المقدس، وماهذه النكسة سوى امتحان من الله، يمتحن فيها صبرك واحتسابك.

قال مولاي وهو يعاني نوبة بكاء جديدة: هذه ليست نكسة يا أبا المحاسن، إنها كسرة، كسرة لا أحتملها، ولا أحتمل شروطها.

قال الكاتب عماد الدين الذي لم يعتن بأناقته على غير عادة: النصر ثقيل وباهظ والهزيمة ثقيلة وباهظة.

التفت مولاي إلى الكاتب، هز رأسه وقال: نعم، نعم، صدقت. كلاهما ثقيل وباهظ.

قلت لمولاي: يامولاي، أرجو أن لا تبهرنا هذه الكسرة عن تولي الأمور ومعالجتها. الأمراء بانتظارك والجند يرغبون برؤيتك.

حدق بي مولاي بعينيه الطيبتين الواسعتين، قال: قلت الصواب يا أيها القاضي الأجل.

قام فقمنا، شد إلى خصره ممنجاته، ورتب كزاغنده على صدره، وتقدمنا، مشى بقامة مشدودة ورأس مرفوع، وما إن ظهر من باب خيمته، حتى رفع الجند الصوت:

صـــــلاح الـــــدين صـــــلاح الـــــدين

ســـــيف الـــــدين ســـــيف الـــــدين

فقال مولاي بصوت مرتفع: بل نرجو من الله أن نكون سيفاً لدينه فقط.

فلما سمع الجند ذلك أخذوا يصيحون:

صـــــلاح الـــــدين صـــــلاح الـــــدين

درع الأقصـــــــــى وســـــيف حطـــــين

تقدم مولاي حتى صار على مشرف من الأرض، تجمع تحته الجند والأمراء والمقدمين، انتظروا منه كلمة.

طال صمت مولاي. لم يستطع الكلام، عندئذٍ تقدم قاضي العسكر ابن شداد، همس بإذن مولاي كلمات، ثم اتجه إلى المجتمعين تحته، وقال بصوته الجهوري:

. بسم الله الرحمن الرحيم، المعز لمن يشاء، المذل لمن يشاء، مالك الملك، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، أما بعد؛ فإن الله عزَّ وجلَّ، شاء لنا ما شاء، وأراد لنا ما أراد، له الحكمة والتدبير، وله العزة والتأييد، لا راد لحكمه، ولا اعتراض على مشيئته، فتمسكوا بإيمانكم فإنه أساس نصركم، وتشبثوا بعقيدتكم فإنها مثابتكم وثباتكم. أما كسرتنا أمام هؤلاء فهي ليست نهاية الأمر ولا مبتداه، فبيننا وبينهم سجال طويل، النصر فيه لمن

يكتبه الله لـه، والنصر إيمان وعمل، ولحمة ووحدة،وتعاضد وتساند، ونية مسبقة وإرادة مستحكمة. فليبحث كل منا عما أخطأ، وليدقق كل منا فيم قصر، وليسأل كل منا نفسه قبل أخيه فيم تهاون. وإن مولانا السلطان الناصر صلاح الدين، وكما علمتم ورأيتم بأم أعينكم، لم يغادر هذا التل منذ سنتين في حر أو قر، لأهل أو لولد أو لمغنم أو لمغرم، احتساباً لله وطلباً لعونه في حربه ضد طواغيت الكفر والفساد، ولم يأل جهداً في الاستنجاد وطلب العون من أمراء المسلمين في شرق البلاد وغربها، ولكن الله سبق في علمه، وشاء لنا ما نراه، فقولوا لا حول ولا قوة إلا بالله.

صاح الجنود كلهم: لا حول ولا قوة إلا بالله.

قال ابن شداد: فاستعدوا لما هو قادم، وتزودوا لما سيأتي، لأن الله اختاركم من بين المسلمين كلهم لتردوا عن بلاد الإسلام الضيم والعسف، ولتبذلوا دماءكم لحماية الدين والعرض والأهل والولد، وجزاؤكم في ذلك الجنة، ولا شيء يعدل ذلك كما تعلمون.

عندئذٍ صاح مولاي صيحته المشهورة: ياللإسلام... ياللإسلام...

رددت صيحته كل التلال: ياللإسلام... ياللإسلام...

امتزج صياح الفرنجة بصياح المسلمين في ذلك المرج الفسيح الممتد مابين أسوار عكا وحتى تل العياضية، كان الجميع يصرخ في يوم الجمعة ذاك، نصراً وفرحاً، وأملاً وتشوقاً.

أما الفرنجة فقد انشغلوا بالسباق والمبارزة ومطاردة البغايا اللواتي كنا نسمع صراخهن من على التل الذي وجدنا فيه، أما نحن، فقد عاد الصمت والذهول يخيم على عسكرنا، كانت الهزيمة على وجه كل واحد فينا، رغم كل ما حاولنا أن نفعله.

استدعاني مولاي أبو بكر، الملك العادل، إلى خيمته، فذهبت أجر نفسي جراً، وجدته وقد أحاط به العديد من الأمراء المصريين والشاميين يتدارسون ما آلت إليه الأمور.

كان مولاي العادل هادئاً كعادته، بطيئاً في الكلام وبطيئاً في الحركة أيضاً. وما إن دخلت حتى أفسح لي مكاناً إلى جانبه قائلاً:

. أعتذر إليك يا قاضينا الفاضل، ولكن الأمر يستحق مشورتك ورأيك.

قلت: أنا رهن إشارتك يا مولاي.

قال: يرى بعض أمرائنا أن لا فائدة من مواجهة الأعداء بعد دخولهم عكا، فماذا ترى أنت:

قلت: يا مولاي، للهزيمة أثر سيء على النفس، وقد طال الحرب وملت النفوس،ووقع الشرط والاستسلام، فلا بأس من الانتظار.

هز الأمراء المصريون والشاميون رؤوسهم مؤمنين على كلامي، كان ما ينقله لي

عمر الزين عن الأمراء وما يتفوهون به في مجالسهم الخاصة قيمة كبيرة في اتخاذ القرار.

قال مولاي العادل: إذاً، كما اقترح بعضكم أيها الأمراء لتتحرك الجيوش بعيداً عن ساحة المعركة.

قال الأمير علاء الدين صاحب الموصل: ما رأيك بالعودة إلى شفر عم، حيث الطريق هناك تتفتح على كل الشام.

قال الأمير: سنقر الداوادار أمير الجيش المصري: نعم الرأي، وحيث نكون أقرب إلى الماء والميرة والرجال والخيل.

قال مولاي العادل: اتفقنا إذاً.

خرج الجميع، فيما بقيت أنا ومولاي العادل وعمر الزين الذي كان مستتراً وراء حجاب في الخيمة الواسعة.

سلم علي عمر الزين وحاول تقبيل يدي فمنعته، عندما قابلني عمر أول مرة، حدثني عن نجار من بيسان علمه مهنة النجارة، ولكنه كان بكاء، ثم سألني فجأة هل كل أهل بيسان بكاؤون مثل ذاك النجار، فقلت له: نعم، حتى أنا الذي لم أكن في بيسان يوماً، تعلمت البكاء، ولهذا لم ينس الناس أن ينادوني بالبيساني، قلت له إن البيساني يحب أن ينسب إلى بلده مهما كان اسمه أو شرفه أو حسبه.

وعمر الزين من بيت فوريك، وقد عاش حياة مضطربة جداً جعلت منه رجلاً يستطيع أن يفعل كل شيء.

قال مولاي العادل: أبقيتك يا قاضينا الفاضل لأمر ندبره.

ونظر إلى عمر الزين.

قال: ما دام القتال قد توقف، ومادام الجيش سيتحرك إلى شفر عم بعيداً عن عكا، فإن من الممكن أن نبدأ حرباً أخرى من نوع مختلف.

قلت مندهشاً: حرب أخرى.

تدخل عمر الزين بلهجته التي تشبه لهجتي، والتي أحبها لأنها تذكرني بالأحبة الذين مضوا: الحرب التي نقترحها يا سيدي هي أن نبعث بفداوية متخفين، يغيرون ليلاً أو نهاراً، يقتلون ويسرقون ويحرقون، ولا يريحون العدو أبداً.

قلت: وهل هذا سيغير من نتيجة المعركة؟!..

قال العادل: ليس من الضرورة أن يغير نتيجة المعركة، ولكن هذا أفضل من أن نندب حظنا، أو أن لا نفعل شيئاً.

قال عمر الزين : إن الفداوية...

قلت: يا عمر، إن ماتعلمته عند سنان لا ينفع هنا، إن اليزك يستطيع أن يهاجم أطراف المعسكر الإفرنجي.

قال عمر الزين بما يشبه الابتسامة: يا سيدي، إن اليزك هم مجموعة من الفرسان المدربين، الذين يحملون أرطالاً من الحديد. أنا أتحدث عن فداوي لا يحمل سوى خنجره أو سيفه، يمشي على قدميه، يستعمل الحيلة ويقدر المواقف. وقد يقتل اليزك إفرنجياً أو اثنين، أما الفداوي فسيفعل أكثر وأشد، كما إن الفداوية سيكونون من المتطوعة أهل البلاد، من القرى التي هي حول عكا.

قلت وأنا أقدر الموقف: وهل هناك من مخاطر؟!...

قال عمر: دائماً هناك مخاطر. متى لم تكن هناك مخاطر في بلادنا يا سيدي؟..

كان سؤاله حارقاً، نعم، متى عشنا حياة لا تهددها المخاطر، تذكرت حياتي في عسقلان وحصارها الذي دام خمسين سنة متواصلة.

قلت: فماذا تربحون من هذا؟!...

قال العادل: نربح الكثير، الفرنجة لا ترتاح في نصرها، والناس يقاتلون عن بلدهم، فيما نحن نستعيد من جديد.

قلت: بارك الله لكما وفيكما ذخراً للإسلام والمسلمين.

قال عمر الزين بما يشبه الضحك: ولا تقلق أيها القاضي، فإن الفداوية هم من بيسان وعسقلان أيضاً.

سألت وهل زرت عسقلان يا عمر؟!...

قال: وشربت من عين إبراهيم وشاهدت وادي نملة سيدنا سليمان وزرت القبر الذي يقال أن فيه رأس الحسين.

قال ضاحكاً رغماً عني: حتى هذا عرفته؟!...

قال العادل: وهل وصل إلى ما وصل إليه دون جدارة؟!...

سألت: وهل رأيت السور الواقي الذي بنته الفرنجة لتفصل بين غزة وعسقلان.

ضحك عمر هذه المرة بصوت عالٍ: رأيت بقاياه، فقد أخذ الأهالي حجارته ليربطوا بها دوابهم أو ليكملوا بها حيطانهم، ورأيت بعض الحجارة وقد تحولت إلى مثاقيل لوزن الخضار، والناس هناك ما تزال تسمي تلك الحجارة حجارة السور.

هبت روائح عسقلان في وجهي، من يعش هناك لا يمكن له أن ينسى ذلك العليل البحري الدسم والشفيف في آن معاً. أنا عسقلاني فلماذا لم ينس الناس أنني من بيسان، ما الذي بقي بيسانياً مني غير البكاء على الأحبة والوطن.

وفي طريقي إلى خيمتي، قابلني مغاربة بصحبتهم المحدث والفقيه أبو الحسن محمد

بن أحمد بن جبير، وهو رجل طويل القامة، متجهم الوجه، على هيبة ووقار، وما إن رآني حتى أسرع إلي،ولم يستطع الكلام، فقد سبقته دمعته، قال من بين دموعه:

. بلاء الله عظيم... بلاء الله عظيم...

قلت وأنا أداري كمدي: مشيئة الله يا أبا الحسن.

قال: سأسافر إلى بلادي أيها القاضي... ولا أستطيع أن أودع مولانا السلطان، لا أريد أن أراه في هذه الحال.

قلت: على بركة الله يا أبا الحسن، إذا طلبت شيئاً أجبناك.

قال: أطلب لكم من الله النصر. بلادكم لا تشبه البلاد الأخرى، أعانكم الله وقواكم وثبتكم.

سألته: هل ستكتب عن سفرتك هذه المرة يا أبا الحسن؟...

قال بسرعة وفي صوته رائحة البكاء:

. زرت عكا قبل ست سنوات ورأيت الفرنجة فيها، وهاهم يعودون إليها، لا أحتمل ذلك مرتين. ألمي أوسع من الكتابة أيها القاضي.

انطلق مع المغاربة الآخرين بثيابهم التي لا تشبه ثياب أهل هذه البلاد، ذهب الفقيه ودموعه تبلل لحيته الكثة.

ذهبت إلى خيمتي، قلت لخادمي أن يستدعي إلي الكتبة المسجلين والمتدربين لأملي عليهم الكتب والسجلات الجديدة.

وفيما كنت أفعل، كان الجند يهدمون الخيام ويفككون آلات الحرب وينزعون الأخشاب والأوتاد والعرائش وأماكن الضرب ويهدمون السلاسل الحجرية ويطمرون الآبار ويضعون كل شيء على ظهور الجمال والبغال والحمير.

وما إن حل المساء حتى كان الجيش على ظهور الدواب، ومن ثم بدؤوا بالنزول عن تلك التلال التي شهدت ما شهدت خلال سنتين في حرب لم تكن من قبل أبداً. لم يحصل من قبل أن دامت حرب هذه المدة، وقد دفع كل طرف فيها آخر ما عنده من رجال ومال وسلاح وتدبير وصناعة حرب، وهاهم جند السلطان ينزلون عن تل العياضية والتلال المحيطة واللصيقة به، كانوا ينحدرون ببطء بما يشبه مشي النائم، لا صوت ولا حداء ولا غناء، كان من الأمور غير المعهودة أن يتحرك الجيش ليلاً، ولكن مولاي السلطان كان صمم في تلك الليلة أن يقابل العدو وحده، أي والله، فقد ظل على تل العياضة وليس حوله سوى جريدة من الخيالة، تركه كل جنده واتجهوا إلى شفر عم في بهيم الليل أما هو فقد ظل هناك، على تل العياضة، يواجه عكا المحتلة وليس حوله سوى جريدة صغيرة من الخيالة.

قلت له مشفقاً: يا مولاي، ما الذي تفعله؟!...

قال وتحت صوته غيظ عظيم: لا حياة ترجى بعد ماكان، سأنتظر العدو فإن لم يأت سأذهب إليه أنا.

قال الأصفهاني: يا مولاي، نحن نفهم غضبك، ولكنك أكثر من مقاتل، إنك أكثر من ذلك، ولا ينفع أن ترمي بنفسك بين هؤلاء عندئذٍ تكون النكصة أشد وأعم ولا يقوم للإسلام بعدها قائمة.

قلت: أنت يا مولاي، تدافع عن عزة الإسلام كله، ولا تدافع عن عزتك الشخصية.

قال: اتركوني.

تركناه وحده، تدثر بعباءة من الصوف وجلس على حجر يحدق في عكا التي كانت تتوهج بالنار والأنغام الغريبة، كنا وحدنا في تلك اللحظة، لم تكن نتجاوز مئه شخص، وحدنا على تل العياضية، نحدق في عكا التي احتلت من جديد، سيدي ومولاي السلطان، بقي في مكانه لا يتحرك، أما نحن فقد جلسنا بعيدين عنه بعض الشيء، لم نستطع الكلام، نسيت مرضي ونسيت عظامي، جاءنا خادم ما بطعام لم نتناوله، فيما رفض سيدي ومولاي الأشربة التي قدمها له الطبيب لليبس الدائم في جوفه، تقدم الليل ونحن هناك، على التل، وحدنا، من بين كل المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها، كان هناك مولاي، من أكراد العراق، والكاتب عماد الدين الأصفهاني من بلاد فارس، والقاضي ابن شداد من عرب الموصل، وأنا من فلسطين المحروسة، كنا نحدق في المدينة التي حررناها قبل أربع سنوات وها نحن نخسرها مرة أخرى، خسرنا مدينة ليست ككل المدن.

كنت أعرف أننا نغامر بكل شيء بمكوثنا وحدنا على التل، فلو أحس بنا العدو لفتك بنا،وكنت أعرف أن قرار مولاي بالبقاء هنا نوع من إحساسه العظيم بالذنب، وإنه يرغب بالموت للخسارة التي لحقت بنا جميعاً، مولاي العظيم عمل من أ جل النصر طيلة أيامه ولياليه، مولاي العظيم لا يعرف إلا العمل من أجل النصر، والهزيمة لا يفهمها ولا يعرفها، ولهذا فهو يرغب بالموت. سأكون مع مولاي.

كنت أعرف أننا لسنا مثل الآخرين الذين سبقونا، وكنت أعرف أننا رجال دولة لا نشبه من نعرفهم أو من سمعنا عنهم أو من عاصرناهم.

قبل حوالي أربعين عاماً، وعندما كان عمري لا يتجاوز العشرين سنة، سقطت عسقلان بيد الفرنجة بعد أن حاصروها خمسين عاماً متواصلة، أطول حصار سمعت به منذ أيام سيدنا آدم، خمسون عاماً وأهل عسقلان لا سبيل لديهم سوى البحر، ولا طعام يأتيهم إلا من الغلال التي يبعث بها الفاطميون بسفنهم إلى المدينة مرتين في السنة.

ولكن، وبدلاً من أن يتنسم أهل المدينة الحرية بعد خمسين عاماً من العذاب، إذا بها تسقط بيد الملك الفرنجي الداهية بلدوين، ونحن لا نشبه الآخرين، أنا عبد الرحمن البيساني العسقلاني، ابن بيسان وابن عسقلان، لا أشبه الآخرين ولا أريد أن أشبههم.

سقطت عسقلان بعد خمسين سنة من حصارها، والدي قاضيها، دافع عنها، وأنا دافعت عنها، كنت أجمع السهام المتساقطة وأقدمها للحدادين أو لأولئك المتعهدين الذين يجمعونها ليفصلوا الحديد عن الخشب، وكنت والصبية الآخرين نساعد الفعلة في بناء ما تهدم من الأسوار، وكنت أتسلل من خلف العدو لقطف ثمار أهل المدينة التي تنقص فيها، ولكنها سقطت، لم أكن فيها عندما سقطت، وكنت قد سافرت إلى مصر للتدريب على الكتابة، ولكنها سقطت.

والمدن لا تسقط من خارجها، المدن تسقط من داخلها، المدن كالثمار، إذا لم تغذى الجذور فإنها تجف وتسقط.

سقطت عسقلان، المدينة العروس، كما سماها نبينا عليه السلام، لأن قائد الجيش الفاطمي الذي يدعى بهذا الاسم الرنان كثير الحروف، ركن الدين المظفر أبو المنصور عباس بن تميم، ياله من اسم فخم لا يعني شيئاً، هذا الرجل الفاجر الداعر، وبعد أن خرج من القاهرة يريد عسقلان ليرد عنها كيد الفرنجة، وصل بلبيس، حيث تلتقي القوات البرية بالقوات البحرية، في ذلك البلد الذي تختلط فيه كل الوجوه واللهجات والمسكوكات، تذكر ذلك الفاجر ملذات القاهرة ونساءها ومجالس الشرق فيها، فكره أن يواصل السير للحرب، رغم أن يظل منكباً على ملذاته ولذائذه، فصار يتأوه ويتحسر، وكان معه الأمير، صديق الفرنجة وآكل طعامهم، أسامة بن منقذ، الذي لا تعرف لماذا يقاتل الفرنجة يوماً، ولماذا يصانعهم يوماً آخر، قال له هذا الرجل الداهية أن بإمكانه أن يعود إلى القاهرة وزيراً وليس مجرد قائد جيش، فاستغرب ركن الدين أبو المنصور عباس بن تميم، فقال له الأمير أسامة، صاحب الحيل ومخترع التدابير: إن ابنك ناصر الدين صديق حميم للخليفة، وهما في ذات العمر، لم يتجاوزا العشرين عاماً، ويسهران كل ليلة على الشرب والنساء والغلمان. فقل لابنك أن يقتل الوزير الذي أرسلك إلى هذه الحرب، ومن ثم يجعلك وزير مصر كلها.

ركن الدين، المظفر، أبو المنصور، عباس بن تميم . يا لهذا الاسم الفخم . أعجبه التدبير، فأمر ابنه ناصر الدين . اسم فخم آخر . أن يدبر ذلك مع صديقه الخليفة الظافر، الذي أدمن الغلمان والندمان معاً، ولم يخيب الابن الأب، إذ قام ناصر الدين بقتل الوزير العظيم ذي الهمة ابن السلار في ليلة لا قمر فيها، واستدعى أباه، ركن الدين، المظفر، أبو المنصور، عباس بن تميم، ليعود إلى القاهرة، ولكن أباه كان قد عاد قبل أن تصله رسالة ابنه، فولاه الخليفة وزارة مصر وسقطت عسقلان لأن جيش ركن الدين هذا لم يصل إليها، ففي الوقت الذي كان فيه ابن السلار يقتل لأنه أراد إنقاذ عسقلان، كان الملك بلدوين ملك بيت المقدس يحاصر المدينة بنفسه، وهو نفسه من ألقى إلى أهل المدينة المحاصرة ببيان قال فيه لهم بالحرف: "لقد قتل الوزير الذي تعتدون به، قتل الوزير العادل ابن السلار، وقد قتله ابن زوجته وقائد جيشه عباس بن تميم، فلمن تقاتلون؟!... ولماذا تقاتلون؟!".

كان هذا بلاغ الملك بلدوين إلى أهالي عسقلان قبل أن يحتلها بعد ذلك بقليل، نحن لا نشبه الآخرين، كان بلدوين صادقاً فيما قال، فمن قتل الوزير ابن السلار كان ابن زوجته الذي يحمل اسماً فخماً رناناً فيه مخارج كثيرة ويصك الأذن صكاً، المدن تسقط من داخلها، وبعد خمسين عاماً من الحصار تسقط عسقلان لأن ركن الدين رغب بالنساء والملك معاً.

وساق الله إلي الوزارة، أنا ابن المدن المدمرة والمحاصرة والمهانة، أنا ابن المقتولين والمهجرين والمحاصرين، أنا، الذي أحدق الآن مع مولاي السلطان بعكا التي احتلت من جديد، ساق الله إلي الوزارة، وأعطاني الله ما لم أكن أحلم به، مولاي السلطان يؤمنني على أولاده قبل دولته، وعلى أسراره قبل إخوته، وقد قلت له وقال لي بعد وقت طويل من التجربة:

. ماذا تريد يا عبد الرحيم؟!...

. أريد النصر للإسلام والمسلمين.

. وأنا أريد ذلك أيضاً.

. النية يا مولاي.

. النية يا عبد الرحيم.

فوضني في كل شيء، أنا الرجل القصير الدميم الأحدب، سلمني مولاي كل شيء في دولته، فأثار ذلك الحسد في قلوب الناس، اتهموني بكل شائنة، اتهموني بالغلمان والتجسس والسرقة والتكبر والانعزال. كان يمكنني قتل أعدائي جميعاً،كان يمكنني سجنهم أو اغتيالهم. لم أفعل ذلك سيدي، ومولاي كان رحيماً حتى بأعدائه، فلا يجدر إلا أن نشبه سلطاننا العظيم الذي كان قلبه واسعاً ورحيماً إلى درجة يحتار فيها المرء. وما كان صلب الشاعر عمارة اليمني إلا لأنه اتصل بالفرنجة وكاتبهم في غزو مصر واحتلالها، ولم يكن يسبب شتائمه ونمائمه. لك الله يا عمارة!... كان رجلاً لا يشبه الرجال، أعماه غضبه وحقده عن تبين الحق من الباطل، دفعه حقده وغيظه إلى الارتماء في أحضان الفرنجة حتى أنه اتصل بصاحب صقلية يطلب منه العون.

ابن عنين، شاعر دمشق، ومناصر البيت الزنكي، تناولني بالسب والشتم والغمز واللمز، لكني لم أقتله، قال قصائد موجعة ومؤذية ولكني لم أعتقله أبداً، كان يعرف أنني الرجل الثاني في دولة تمتد من الموصل إلى الاسكندرية ومن صنعاء إلى حلب، ولكنه قال عني:

وحين أبصرت دولة الأحدب ... الفاضل أربت على علا الشهب

قلت للمفلسين ويحكم ... تحادبوا فهي دولة الحدب

يومها، جاءني علي بن أحمد المشطوب، بوجهه المشطور وعينه الجامدة، كان هذا الرجل يحبني ويحترمني، كنا في دمشق، جاء بوجهه الذي كرمه الله بجرح لا يزول عنه، احتضنني بقوة على ضآلة حجمي وقصر قامتي. قال:

. مرني أيها القاضي الأجل، مرني لأقتله.

قلت: لا نفعل يا علي.

قال: ابتلاني الله وابتلاك بوجهين دميمين، فماذا نفعل؟!...

قلت: ولكن الله أكرمني وأكرمك بالسمعة والدفاع عن دينه.

فرح الرجل، اهتزت شفته التي يتحكم بها، ورمش بعينه السليمة، وقال:

. يالحكمة الله!!...

ثم التفت إلي بقوة وقال: لتعلم أيها القاضي الأجل إني أحبك لله، أحب وجهك، وأحب حدبتك، وأحب كل شيء فيك.

هذا هو المشطوب، محارب لا مثيل له في الميدان، وفي داخله طفل غر.

أثر بي كلامه، قلت له:

. نحن جند مولانا السلطان، وتحت لوائه نخدم هذه الأمة. لا تتعرض لابن عنين بسوء.

ولكن ابن عنين أهانني حقاً، قال عني مالم أغفره، تجرأ على القول:

كم ذا التبظرم وزائداً عن حده ماكان قبلك هكذا الحدبان

فحر أم ملك أنت مالك أمره من أنت يا هذا؟.. وما بيسان؟!

غضبت كما لم أغضب يوماً، لقد أهان بيسان!!...إنه لا يعرف بيسان!!... إنه يقلل من شأنها ويهون من مكانتها!!...

ابن عنين لا يعرف بيسان ولا مياهها ولا خضرتها ولا نخيلها ولا عائلاتها، ولا بكاء أهلها الطويل وحنينهم الذي لا ينتهي، يومها احتقرت الرجل احتقاراً كاملاً، وعلى الرغم من رغبتي في قتله إلا أنني حرمته من الاهتمام، حرمته من كل شيء حتى الرد عليه، إذا كان لا يعرف بيسان فأنا لا أعرفه ولم أسمع به.

كنت دائماً هدفاً للتندر والسخرية على مقامي وعملي وهيئتي، ركن الدين الوهراني من بلاد المغرب، المقيم في مصر، المتشيع والمغالي، وضع منامات ومقامات في التندر على حدبتي وقصري وسمتي ووجهي. لم أقتله أيضاً، مولاي لم يقتل وكان يستكثر القتل ويستعظمه، حتى شعراء تافهون من أمثال فتيان الشاغوري تجرأ علي بشعره الساقط واتهمني بكل شائنة.

عندما سمع مولاي السلطان ببعض هذا الشعر التافه، قبل حدبتي التي أخفيها عادة بما يفضل من العمامة، أزاح طرف العمامة وقبل حدبتي ثم توجه للحضور في مجلسه بدمشق العامرة وقال بصوت واضح وجلي وبطيء ليفهم الجميع:

. لا تظنوا أني فتحت البلاد بالسيوف، إنما فتحتها بقلم القاضي الفاضل.

كان ذلك فوق الوصف، وكان هذا القول ساحقاً وماحقاً لكل الأشعار التافهة وكل الشعراء والكتاب القاصرين. طار هذا القول حتى وصل بغداد شرقاً وفاس وغرناطة غرباً. البلاد تفتح بالأقلام لا بالسيوف، والحواضر تؤخذ بالتدبير والتدبر لا بالقوة والتجبر.

حمدت الله أن قيض لي مثل مولاي صلاح الدين، حاكماً يستمع إلى القول فيتبع أحسنه، وحمدت الله أن أعانني على قول ما يرضى عنه الله ورسوله.

سعى إلي الكاتب عماد الدين الأصفهاني، جاءني بأناقته ودقته وكلامه الذي تشعر معه أنه يستمتع بسماع صوته، قال لي:

. أبارك لك أيها القاضي الفاضل بما قاله مولانا السلطان، إن هذا يذكرني بما قاله السلطان نور الدين رحمه الله عني عندما كثرت الوشايات ضدي بأني فارسي لا أتقن العربية، فقد قال عندما استخف أحد عماله بي "إنك كاتبي وأميني وصاحبي، ولا تكتب إلا بأمري، فإن خالف كتابك إليه قلعت عينيه".

ثم قال:

. هل ترى أيها القاضي كيف اصطفانا مولانا السلطان صلاح الدين إليه واستخلصنا من بين الكتاب والوزراء.

قلت له: هذا من فضل الله علي وعليك أيها العماد.

عندما أتأمل في حياتي السابقة، فأشاهد نفسي طالباً فقيراً وحيداً في مدينة عامرة وضخمة مثل القاهرة، فيها العرب والأرمن والسودان، والأتراك يتقاتلون على كل شيء، وليس لي من الأمر شيء، ثم أحكم المدينة التي كنت لا أجد فيها طعاماً في بعض الأحيان، فإنني أعيد الفضل لصاحبه، الله سبحانه وتعالى، الذي أراد لهذا القصير، الدميم، الأحدب، أن يحكم مدينة مثل هذه، ثم ليحكم باسم مولاه وسيده صلاح الدين دمشق وحلب وأن يفتح المدينة التي طرد منها جده، بيسان، ثم ليفتح المدينة التي طرد منها هو نفسه، عسقلان.

الأمر لصاحب الأمر، وليس لي في ذلك من شيء، مهما قيل عن ميزاتي وملكاتي، لا ميزات لي ولا ملكات.

قال لي المشطوب مرة إنه يشعر في بعض الأحيان بكراهية جسده عندما يقترب من امرأة.

قلت له: اقتصد في منكحك.

قال: لا أستطيع!!... فهل تفعل.

قلت: أنا أفعل، أريد من حياتي القليل.

كان الحوار بيني وبين المشطوب حميماً، ربما جمعنا الوجه الدميم والوحدة والفرق الهائل بين حجمينا، إلى درجة دفعت بعض الخبثاء إلى التندر عندما نجتمع، حتى أن المشطوب لم يحدثني بعدها واقفاً بل جالساً.

قال المشطوب : ماذا تريد يا سيدي عبد الرحيم.

قلت: أريد النصر.

كان كلامي يبهر المشطوب دائماً، فيسكت، يتأمل ما أقول.

قال: والملذات يا سيدي؟!...

. لا ملذات مع الذل والهزيمة.

قال: وأجسادنا؟!...

قلت: أجسادنا للمعارك.

قال: ماهذا قصدت.

قلت: فالاقتصاد. الاقتصاد!!

سيدي ومولاي السلطان، ما يزال متدثراً بعباءته يحدق في عكا التي تتوهج بالمشاعل والأنغام الغريبة المخنثة، اندفع قاضي العسكر ابن شداد إلى القول:

. تعالوا نصلي صلاة الليل.

قلت: نعم الرأي.

رفعت صوتي وقلت: يا مولاي، هلا صلينا بحضرتك صلاة الليل.

التفت إلي في الظلام، برقت عيناه الكريمتان، قال: نعم الرأي!!...

اتجهنا نحو القبلة، كان إمامنا الليل وعلى يسارنا عكا المحتلة، ذراع مولاي وسيدي تحتك بكتفي، شعرت به يهتز، كان يبكي بصمت وهدوء، فيما ابن شداد يقرأ:

(وعد الله الذي آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض، كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون، لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير).

عندئذٍ ارتفع صوت مولاي بالبكاء، كان سلطان مصر والشام يبكي مدينته التي خسرها أمام هؤلاء المخذولين، فارتفع صوتنا جميعاً، حتى أن الخيالة الذين يحرسوننا اقتربوا يستطلعون. أسرع ابن شداد في صلاته.

لم نر ولم نشاهد ولم نسمع عن ملك أو سلطان بكى مدينته وأراد أن يموت بعدها إلا مولانا وسيدنا صلاح الدين.

عاد سيدي ومولاي إلى عباءته واقتعد الحجر إياه، محدقاً بعكا التي ما عادت في حوزة الإسلام.

فوجئت بعمر الزين يزحف من ورائي. قلت له: أين أنت يا رجل.

قال بوجهه الغامض وكلامه الهامس: كانت هذه الليلة ناجحة.

. كيف؟!...

. سكر الفرنجة كالبغال، وفعلت الفداوية بما تفعله جريدة كاملة من الخيالة.

. ماذا فعلوا؟..

. كل شيء والأهم من هذا، عرفوا أن الفرنجة قد اختلفوا فيما بينهم وأن ملك الإفرنسيس قد يغادر عكا وكذلك ملك الألمان.

. هل تعني...

. أعني أن من الممكن معاودة الحرب سريعاً.

. و ماذا عن الأسرى داخل المدينة.

. حشروا في اسطبلات الخيل تحت برج عين البقر. وهم يسامون سوء العذاب.

. وكبارنا وخاصتنا.

. كلهم يا سيدي، حتى سيدي بهاء الدين قراقوش وكذلك سيدي المشطوب.

. لا حول ولا قوة إلا بالله.

. أعانك الله يا عمر، استمر بما أنت فيه، بارك الله لك وفيك.

وقبل أن يذهب، قال عمر: لكن يا سيدي، أنتم ببقائكم هنا تخاطرون بالإسلام كله.

قال مستسلماً: مولانا السلطان مصر على البقاء، ينتظر الفرنجة.

قال عمر: بما يشبه صوت المؤامرة: ولكن هذا جنون، إن عرف الفرنجة بوجودكم وحدكم لهاجموكم ولوقعت المصيبة.

قلت بالاستسلام ذاته: ليقضي الله أمراً كان مفعولا، مولانا يشعر إنه مقصر بحق المدينة.

قال عمر وهو يغيب في الظلمة: بعون الله، سأحميكم جيداً..

انطلق في العتمة كعادته. رجل فريد من نوعه، يتحدث لغات الفرنجة ويلبس مثلهم، ويعرف مداخلهم ومخارجهم كأنه واحد منهم. ولهجته تشبه لهجتي، أحب هذا الرجل، بقي

مولانا في جلسته تلك إلى صلاة الفجر، رفع ابن شداد الآذان فأيقظ كل شيء، حتى الخيول اهتزت، كنا وحدنا نصلي على أعتاب المدينة المنهكة.

اصطف الجميع للصلاة بما فيهم الفرسان، فقد تخلوا عن حذرهم وخوفهم، فالفرنجة لن يهاجموا في مثل هذه الساعة.

كانت صلاة عذبة، بالنسيم البارد واللطف الذي هب على قلوبنا، حتى مولاي استعاد مزاجه الذي يشبه الزجاج في تعكيره وانكساره. بعد الصلاة، جلس قاضي العسكر إلى مولاي يتذاكر وإياه كتاب ابن شداد عن الجهاد، ولما ارتفعت الشمس، جلست وإياه، ونقلت إليه كل ما وصلني من أخبار وكتب، فكان يشير علي بهذا وذاك ودماغه أصفى مايكون. فلما لاحظت أن مزاجه قد اعتدل، قلت له إن من الحكمة مغادرة هذا المكان لأن ضرره أكثر من نفعه، ولأن المعركة لم تنته وأن الله له من التدبير ما يحتاج إلى إيمان ثابت للصبر عليه. وافق سيدي ومولاي، فطلبت من الجميع الاستعداد للالتحاق بباقي العسكر في شفر عم.

وقبل أن نغادر تل العياضية، وقف مولاي على حصانه، اتجه إلى عكا، وقال بصوت مسموع:

. يشهد الله يا عكا أني فعلت ما بوسعي، وأرجو من الله العلي أن يهبني القدرة والقوة لاستعادتك، فإن لم أكن أنا، فلييسر لك الله رجلاً من رجاله الثقاة وسيفاً من سيوفه المصقولات يعيدك إلى حوزة الإسلام والمسلمين.

تحشرج صوته، أدار رأس حصانه ونزل عن التل ببطء وكأنه لا يريد المغادرة أو كأنه يعتذر عن المغادرة.

كان مولاي وسيدي يبدو غريباً بين الأمراء والحكام بهذا التصرف، فمن عرفنا منهم كان على استعداد لأن يصانع الفرنجة الذين في بلادنا أو الفرنجة الذين يأتون من جزائرهم وراء البحار.

وقد عملت مع وزراء أشبه بالصبية الصغار، يهدرون كرامة الأمة من أجل أمة أو بدرة مال أو قصر منيف، وقد كنت أخاف على حياتي دائماً مادمت في خدمتهم، ولقد عملت كاتباً لديوان الجيش في وزارة طلائع بن رزيك الأرمني، فقطع رأسه الوزير التافه شاور ووضعه في طست أمامه في مجلسه بدار السر، وقد رأيت الرأس المقطوع الذي كان يحكم مصر مغمض العينين ملوثاً بالدم والوحل، فجمد الدم في عروقي، وعملت كاتباً لديوان الجيش في وزارة شاور نفسه، للصداقة كانت تجمعني بابنه الكامل، الصديق الرائع الذي أحببته واحترمته حتى على هو مافيه من ميل إلى التكبر، ولكنه رجل لا مثيل له، عربياً أصيلاً ومسلماً وحقيقياً، لم يكن يشبه أباه ولا يخون وطنه وأمته وإسلامه مثل أبيه، شاور الذي كان يشبه الفقاعة غروراً وتجبراً وخيانة.

أنا، عبد الرحيم البيساني العسقلاني عملت في وزارة شاور الذي يشبه الفقاعة، لأنني القصير الدميم ذو الحدبة، ربما، لأنني الفقير الذي لا أهل لي ولا عشيرة، ربما، لأنني الطموح المتشوف للملك، ربما، لأنني الراغب في العودة إلى عسقلان، ربما، لأنني ابن المهجرين والمقتولين، ربما.

ولكني . رغم كل شيء . لم أفقد رأسي، ولم أفقد ما آمنت به وما علمني إياه أبي، لم أنس بكاء أهل بيسان، إنني بيساني عند كل الناس، رغم أني لم أولد هناك، إن بيسان ظلت معي طيلة الوقت.

عملت في وزارة شاور الأولى والثانية، وكنت شاهداً على خيانة الوزير وضعف الخليفة. لقد عرفت كل شيء حتى الثمالة، ثمالة كل شيء.

مولاي وسيدي صلاح الدين وهو ينتحب على عكا الآن، يدفعني إلى تذكر الوزير شاور وهو يسلم بلبيس بما فيها لجيش ملك الفرنجة أموري، بلبيس هذه كان فيها من بلدي الكثير، عساقلة أعرفهم ويعرفونني، ولكن شاور سلمها لأموري، فاستباح هذه المدينة، قتل الناس، الطفل والعجوز والشاب، وقطع الشجر وحرق الحجر، كانت مذبحة لا مثيل لها، واضطر العساقلة للهجرة من جديد، لا يحملون سوى ثيابهم، حتى أصحاب الحمير والبغال استغلوهم فغالوا في سعر الركوبة لإيصالهم مدينة القاهرة.

ورأيت شاور مذلولاً وهو يذعن للفرنجة ويتعهد بدفع ألف ألف دينار لهم حتى يفكوا الحصار عن القاهرة.

ورأيت شاور وسمعته وهو يحاور أموري من اليمين ويحاور السلطان نور الدين زنكي رحمه الله من اليسار، فيبعث هذا معه جيشاً يقوده عم مولانا السلطان، أسد الدين شيركوه، وسمعت شاور يقول له عن أهل مصر "يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا".

الوزير الفقاعة يصف من يحكمهم بأنهم كالذباب، أهل مصر الكرام الطيبون الماهرون أصحاب الصنائع وأهل البدائع، يصفهم هذا التافه بأنهم مجرد ذباب يتكالبون على الحلوى ويتفرقون لمجرد الهش باليد.

وقد كتبت ذات مرة لسيدي ومولاي صلاح الدين أن لا يصف مصر بما وصفها.

إن وزيراً مثل هذا لن يهتز إذا ذبحت بلبيس عن بكرة أبيها، ولن يهتم إذا رهن مصر كلها بيد الأجنبي، فلم يكن يهمه شيء سوى الحفاظ على ملكه.

سيدي ومولاي صلاح الدين لم يسكن قصراً حتى هذه اللحظة، سيدي ومولاي الناصر صلاح الدين قضى عمره المديد في الخيام وعلى ظهور الخيل معظم سني حياته، لا يأكل إلا الجبن والعسل على عكس الأكراد وحبهم للحم، سيدي ومولاي وعندما رأيته، كان يصغرني ببضع سنين، رأيته مع عمه أسد الدين بالقرب من القاهرة قبل عشرين عاماً تقريباً، استوقفته هيئتي بالتأكيد، استوقفته هذه الدمامة وهذه الحدبة وهذا

القصر، واستوقفني منه هذه الهيبة، وهذا الهدوء، وهذا الانعزال، فقدكان على عكس كل من حوله من الأمراء والقواد الأكراد، لا يبدو منشغلاً بشيء ولا تهمه التفاصيل ولا حتى الأشخاص.

ولكن والده الذكي الأريب أيوب، حدثني وحدثته،سبر غوري وسبرت غوره، فقلت له مالم أقل لأحد، أطلعته على الخفايا والخبايا، وكان بيننا مالو عرف به شاور الفقاعة لصلبني على النخلة أمام داري.

في اللقاء الأول الذي جمعني به في خيمة والده، شاهدني أحادث والده، ورأى اهتمام أبيه بما أقول، ولكنه لم يتدخل، رمقني بنظرة أو نظرتين ثم التفت بعد ذلك.

كنت أعرف أيامها أن الدولة الفاطمية تتفسخ من الداخل، وأنها تتآكل بفعل افتراق المصالح وبفعل أنها صارت تطلب العون من غيرها. الدول لا يجوز لها أن تطلب العون من الآخرين، والحاكم الذي يفعل ذلك يتورط لا محالة.

والخليفة .كل خليفة . يحمل في رقبته دم كل مسلم وعرضه وماله وأمنه وعلاجه ومأكله ومشربه ومسكنه، والخليفة .كل خليفة . إذا تخلى عن ذلك فإن الله يتخلى عنه، وقد كتبت للخليفة في بغداد عدداً من الكتب استنجد به في حربنا على الفرنجة حول عكا، فبعث إليها ما يبعث على السخرية.

أما جواسيسنا في حواضر الفرنجة، في جنوة والبندقية وفي بلرم بصقلية، فقد نقلوا إلينا أن البابا . بعد علمه بعودة بيت المقدس إلى حوزة الإسلام . قد كتب مواثيق على ملوك المسيحية أن لا يتقاتلوا مدة سبع سنوات، وأن يصوم الناس يومين من الأسبوع وأن يقدم كل واحد منهم ما يستطيع لإصلاح جيش يقاتل مولاي وسيدي صلاح الدين.

إن مولاي وسيدي صلاح الدين، الذي لم يرغب أن ينطلق إلى جهاد الكفار أو حتى مقاتلة أمراء البيت الزنكي دون إذن أو موافقة الخليفة العباسي، كان يعرف أدق المعرفة الفرق بين مصلحة الناس وشرع الله، لا مصلحة للناس إذا تعارضت مع شرع الله، ولا نجاح ولا فلاح لمصلحة الناس إذا تجاهلت شرع الله، والحاكم .كل حاكم . عليه أن يعرف كيف يجد السبيل إلى تحقيق شرع الله وتحقيق مصلحة الناس، والناس . إذا جرى الحديث عنهم . فإن أكثرهم لا يعقلون. الجموع لا تمتلك الحق لمجرد أنها جموع، وقد رأيت الحلبية والمواصلة وأهل الجزيرة يعترضون على مولاي ويقاتلونه ويتحالفون مع الأجنبي لقتاله.

اكتشف سيدي ومولاي فجأة أن عليه أن يحمل رأيه الحق عندما تخلى عنها الآخرون بما فيهم الخليفة الذي ليس له من الفضل سوى انتسابه إلى العترة الشريفة.

لا إسلام دون حاكم قوي، ولا نصر دون حاكم ذو همة، ومولاي السلطان اكتشف عندما ساق الله إليه ملك مصر مدى هزيمة الأمة وشرذمتها وانكسارها.

إن علاقة الحاكم بالأمة كعلاقة الشجرة بالأرض التي تنبت فيها، التربة المهيئة تنبت نبتاً صالحاً، والتربة العقيمة تنبت شوكاً، وتهيئة الأمة لا تكون إلا بشرع الله، الحاكم هو خيار المرء ومن ثم خيار المجموع، وبهذا فإن الحاكم هو صورة الأمة عن ذاتها، الحاكم هو صورة أمته عندما تنظر إلى ذاتها.

سيدي ومولاي صلاح الدين كان خيار الناس المتطوعة الذين تابعوه وأسندوه، هم أولئك الشعراء الذين مدحوه، وأولئك الكتاب الذين زاروه وكتبوا عنه، وهم أولئك الفقهاء الذين خطبوا في المساجد باسمه، الشاعر البغدادي التعاويذي الذي لم يستطع أن يسافر من بغداد إلى دمشق بعث بقصيدته إلى مولاي بالبريد، يمدحه لانتصاراته وفتوحاته، ولما قرأها مولاي بكى بحرقة وقال: أنا لم أفعل شيئاً.

الناس الناس العاديون، وبعد فتح حطين، بدؤوا ينسجون حول مولاي قصصاً كالخيال، فمنهم من حلم به قبل سنين، ومنهم من رآه في القمر، ومنهم من ذكر أنه قال لوالدة سيدي ومولاي عندما حملت به أنها تحمل في بطنها سيفاً من سيوف الله، ويومها سألت عمر الزين فيما إذا كان هو ورجاله يقفون وراء هذه الحكايا فأنكر علاقته بها. هؤلاء هم الناس، إن حاكمهم هو أحلامهم وآمالهم ومطامحهم، فإذا خانها استحق الخلع، ودائماً عجبت كيف يتخلى الخليفة العباسي عن كل شيء رغم أنه يحكم . ولو اسمياً . كل أمة الإسلام؟!.. وعجبت كيف يقبل أن يرضى من الخلافة باسمها أو بما يعطيه من حق الاستمتاع بالجواري؟!... وعجبت دائماً كيف انحدرت الخلافة إلى هذا المنحدر؟!... مولاي السلطان حاول أن يبقي خيط الود والثقة مع الخليفة رغم ارتهانه لغير إرادته وبغير إرادته.

في اليوم التالي، وقبل أن ينتصف النهار، قدم إلى المعسكر المقيم غربي شفرعم، في ذلك السهل الرحيب المخضر باللوز والدراق والزيتون، قدم إلينا من عكا الكندهري اللعين، أخبث الفرنجة وأشدها عداء وحقداً، يصحبه مقدم آخر من مقدمي الفرنجة يعرف لساننا، ومعهم الحاجب قوشي صاحب الأمير بهاء الدين قراقوش، فاستقبلهم العادل في خيمته برفقة عدد من أمراء الجيش وكذلك عمر الزين.

وقد جاء هؤلاء لتثبيت شروط الصلح وطريقة تنفيذها، فقال هؤلاء إنهم يحتفظون بثلاثة آلاف أسير في عكا، وأنهم يطالبون بتنفيذ الاتفاق الذين أبرموه مع أهل عكا المحاصرين، مقابل إطلاق سراح الأسرى جميعاً.

وأول ما طلب الكندهري اللعين مشاهدة صليب الصلبوت ليتأكد من وجوده، فذكر له العادل أن الصليب في دمشق، فطلب اللعين أن يتأكد من أسرى الفرنجة، فقال له العادل أن الأسرى في دمشق أيضاً، عندئذٍ طلب الكندهري أن يشاهدهم أيضاً ويتأكد من سلامتهم وصحتهم. فطلب العادل أسماء الأسرى المعنيين والمجاهيل، فأنكر الكندهري علمه بالأسماء كلها، وإنه يحتاج إلى وقت لترتيب الأسماء.

فقال له العادل إنه على استعداد تام لأن يسمح لمن يريد من الفرنجة أن يذهب إلى دمشق للتأكد من وجود الصليب ووجود الأسرى. كان الشك وحموضة عدم الثقة هي المسيطرة على الحوار، فقد كان الكندهري يتحدث كشوكة، فيما كان العادل يتحدث بمرارة شديدة ظاهرة.

ولهذا، ولانعدام الثقة بين الطرفين، فقد تم الاتفاق على تنفيذ الشروط خلال ثلاثة أشهر، بحيث يتم تنفيذ كل شرط من الشروط بداية كل شهر. وافق الكندهري على ذلك بعد مداولات طويلة ومملة، وقد كادت المفاوضات أن تفشل عندما هدد الكندهري اللعين بأنه على استعداد لأن يقتل كل الأسرى، عندئذٍ غضب العادل وقال له إنه على استعداد أيضاً لأن يقتل كل الأسرى الفرنجة وأن يحرق صليب الصلبوت.

ولكن الأمر سوّي في النهاية، بعد أن همس مرافق الكندهري بإذنه بضع كلمات، فإذا به يلين ويفرد وجهه البغيض.

قضى الفرنجة تلك الليلة في معسكرنا، وبعد صلاة العشاء، جاءني عمر الزين قائلاً لي أن الخلاف قد اشتدَّ بين ملوك الغرب وخاصة بين ملك الانكتار وملك الافرنسيس وملك الألمان وأن هذين الأخيرين قد يرحلا عن عكا قريباً.

والأهم من كل هذا، قال عمر، أن الكندهري اللعين أسرَّ إليه برغبته في لقاء السلطان على انفراد. فوجئت بذلك تماماً، وقلت له أن هذا البغيض جاء ليفرض شروطه فماله والسلطان. قال عمر أن الكندهري يريد أن يقول للسلطان ما لا يريد لأحد أن يعرفه.

قلت له: هيا بنا إذاً إلى السلطان.

دخلت عليه في خيمته، سيدي ومولاي، بينما كان ابن شداد يعظه ويقرأ له من كتابه الذي صنفه في دمشق عن الجهاد.وما إن شاهداني حتى انتهيا من القراءة، رفع السلطان رأسه الكريم إلي فوجدت في عينيه بقايا دموع. قال: ما وراءك يا قاضينا الأجل.

قلت: أمر لا أدري كيف أصفه يا مولاي.

قال: قل. أنا أستمع إليك.

كان مزاج سيدي ومولاي رائقاً، وهو عندما يصفو يكون أرق من النسيم.

قلت: الكندهري يطلب التحدث إليك على انفراد.

قال وشبه ابتسامة على وجهه: وما حاجتي إلى رؤيته، لقد أنهيتم التفاوض معه، ولا أحب أن أرى هازمي.

قلت: إنه يريد أن يفضي إليك سراً.

فكر قليلاً : استدعوه، وأنت ابق معي أيها القاضي الفاضل.

جاء هذا يلبس عباءة يخفي فيها هويته، دخل علينا بمفرده،كان السلطان وأنا

والعادل وعمر الزين، وما إن دخل حتى وقف يجيل البصر في المكان كالخائف، قال بصوت جاف: مساؤكم طيب.

قال العادل: قل ما عندك.

قال بصوته الجاف والكريه: سيغادر ملك فرنسا قريباً، ربما يغادر هذا الأسبوع، وسيتركني وحيداً أمام ملك إنكلترة، الذي ينكر حقي كملك، وينكر حقي كحاكم لصور، المدينة التي حاصرتني فيها أيها السلطان.

قال العادل: وما نحن وهذا؟!...

قال هذا وهو يقترب خطوة إلى الأمام: أريد من أن السلطان أن ينصرني في حربي مع ملك إنكلترة.

قال العادل: وماذا نستفيد من ذلك؟!..

قال هذا: أعينكم في إعادة عكا إليكم.

فوجئنا جميعاً بذلك، كان هذا لا يصدق ولا يفهم. فقد كان قبل قليل يشتط في مطالبه لتنفيذ شروط الصلح. سكت العادل، نظر إلى السلطان يستطلع رأيه ولكن مولاي لم يحرك ساكناً.

نظر إلي العادل ونظرت إليه. قلت:

. ألا تعتقد أن هذا سابقاً لأوانه.

قال: ليس سابقاً لأوانه، ربما تعرفون ولاشك أنني غادرت عكا قبل شهرين بعد أن هددني ملك إنكلترة بأخذ صور من يدي، واليوم يهددني بانتزاع حقي كملك.

قلت: لنا أسرى نريد إطلاق سراحهم، وملك الانكتار هو من نفاوض.

قال: أنا أعينكم على ذلك.

قلت: افعل ذلك، ولكن بشأن ما طلبت فسنبحث فيه بعد ذلك.

قال: لكم ذلك، ولكني أرجو أن يبقى هذا سراً فيما بيننا.

قال العادل: لك ذلك.

خرج من الخيمة متلفعاً بعباءته، وتركنا ونحن في أشد مانكون من الدهشة، صاح العادل:ما الذي يجري أيها السلطان.

قال مولاي: أعماه حب الملك عن كل شيء.

قلت: هل تصدقه يا مولاي...

قال مولاي ملخصاً المسألة: تابع الأمر أيها العادل، أنت أعرف منا بهؤلاء، أسبر غور هذا الرجل. إن اللؤم ينز من جلده. مولاي العادل كان يقود جيشاً كبيراً من العيون والجواسيس يعرف من خلاله أدق دقائق الفرنجة، وهو يتقن بعض ألسنتهم ويعرف

الفروق فيما بينهم وله جلد على كلامهم.

الحاجب قوشي أخبرنا عن حال عكا وما آلت إليه من دمار وخراب، وحكى عن الأسرى وسوء حالهم، وسبقته العبرة وهو يحكي عن سيده بهاء الدين قراقوش، وذكر أن الفرنجة قيدت المشطوب بالسلاسل ورمته في مذود، أما باقي الأمراء فقد حشروا في زوايا الإسطبل تحت برج البقر، وقال إن الفرنجة يعذبون فاطمة خطيبة الراضي مقدم النفاطين ليجبروا الراضي على كشف أسرار ثلج الصين الذي استعمله أكثر من مرة لتدمير منجنيقاتهم ودباباتهم، وأن فاطمة قالت لخطيبها: اصمد، وإذا لم نتزوج في هذه الدنيا فسنتزوج بإذن الله في الجنة.

وجيء بصليب الصلبوت من دمشق خلال أيام، فزارنا وفد من رهبان الفرنجة ومقدميهم، فما إن رؤوا الصليب حتى ركعوا أمامه، ثم رموا أنفسهم على الأرض وعفروا وجوههم بالتراب، وخضعوا خضوعاً عظيماً لم أشاهد مثله من قبل، وأمضوا وقتاً طويلاً قبل أن يثوبوا إلى رشدهم، فذكروا للعادل الذي كان يفاوضهم عادة أن ملوك الغرب قد وافقوا على مهلة الأشهر الثلاثة لتنفيذ الاتفاق، رغم إغارات الفداوية المتكررة على معسكر الفرنجة، ورغم المواجهات الصغيرة التي تقع بين الحين والآخر بين اليزك وبعض جنود الفرنجة، كان عمر الزين قد رتب متطوعة تعمل في الليل ومتطوعة تعمل في النهار تلاحق جنود الفرنجة الذين يبتعدون عن معسكرهم لقطع الحشيش للدواب أو للاستسقاء، وكانت مثل هذه الأمور لا تجري على ما يرام دائماً.

سيدي ومولاي كان في تلك الأثناء يكثر من الإختلاء بقاضي العسكر ابن شداد يتذاكروإياه سيرة سيدنا محمد ρ وسيرة خلفائه الراشدين؛ ولم يكن ابن شداد يقول شيئاً عما يدور بينهما من كلام.

أما أنا وعندما أدخل إليه وأحمل السجلات والدساتير والكتب ليقول رأيه فيها، أراه غارقاً في حالة من الهدوء أعجب لها.

قلت له: ماذا تريد يا مولاي؟!...

قال سارحاً بعينيه: هل من الجند من الحرب يا قاضينا الأجل؟...

قلت متردداً: لا أحد يمل صحبتك يا مولاي...

ابتسم سيدي ومولاي ابتسامة بديعة: ولكن الحرب كريهة.

قلت: هي كذلك.

قال: فماذا نفعل إذاً؟!... يدعونا الواجب ويثبطنا الحال.

قلت مشفقاً: فوض أمرك لله!!...

قال: ونعم الوكيل.

حل موعد الاستحقاق الأول من شروط الصلح، فقدم وفد من الفرنجة إلى معسكر

السلطان، حيث يقيم قريباً من شفرعم.

كان العادل قد أعد كل شيء، أحضر الأسرى من دمشق، كانوا ألفاً وخمسمائة، يبدون بحالة جيدة وقد لبسوا ثياب أهل دمشق، مسرحين شعورهم،حليقي الوجوه تبدو عليهم إمارات الفرح، وكان هناك أيضاً صليب الصلبوت الضخم الذي وضع على عربة يجرها بغل أبيض قوي، وما إن قدم وفد الفرنجة حتى جلسوا تحت عريش من الجريد. دققوا بين الأسماء التي بين أيديهم والأسرى الموجودين، فاطمأنوا، ثم سلمهم العادل مائة ألف دينار في عدة أكياس،وذكرهم بما عليهم من استحقاق في الشهر المقبل، فوعدوا بذلك.

انطلق الفرنجة بأسراهم وصليبهم، فيما كان المعسكر الإسلامي يغرق في صمت غير معهود.

ربما سمعت صوتاً أو جندياً يقول:

. لماذا لا نفعل بهم كما يفعلون بنا..

. لقد تركناهم يخرجون بكل شيء عندما دخلنا بيت المقدس.

. يجب أن نعاملهم بالمثل.

. إنهم لا يستحقون هذه المعاملة.

الهزيمة التي لحقت بمولاي وسيدي صلاح الدين، دفعت بأمراء كثيرين إلى الاجتراء عليه وطلب دساتير المغادرة منه، فكان يرد بعضهم بلطف والبعض الآخر بغلظة. واضطر مولاي غير مرة أن يقطع بعض الأمراء ليضمن بقاءه، وقد تعلل هؤلاء بطول الحرب وعدم جدواها وقلة النصير، وكان مولاي يذكرهم بما أمر الله.

أما ما أثار مولاي فهي تلك الخلافات الصغيرة الدائمة بين أبنائه وإخوته وأبناء عمومته حول الإقطاعيات والحواضر، وذات مرة، وبينما كنت وإياه على كتف وادٍ يشرف على شفر عم، زفر بقوة وقال:

. أشعر أنني فشلت يا قاضينا الأجل.

قلت: حاشا مولاي.

قال: لا أشعر أن أحداً أخذ عني ما أنا فيه وما نذرت نفسي له.

قلت: عملك في ميزان حسناتك، وماكان ربك نسيا.

قال: ولكن أولادي يحبون الدنيا، وكذلك إخوتي.

قلت: ولا تزر وازرة وزر أخرى.

قال: وهزيمتي في عكا أشعرتني بطعم الفشل مرتين. قل لي كيف يكون الحاكم حاكماً إذا احتلت بلده وأهين أهله، فهل تبقى له من كرامة؟!...

قلت: ولكن أبناءك يا مولاي لايخرجون عن طوعك.

قال: ما هذا قصدت!!...

قلت: الملك طاغ، ينسي المرء أشياء كثيرة.

قال: صدقت يا قاضينا الأجل، الملك ينسي كل شيء، إلا الطمع والحقد.

وجاءنا رسول من قبل الكندهري اللعين يحذرنا من خدعة يدبرها ملك الانكتار في استحقاق الشهر الثاني، إذ قال هذا الرسول إن ملك الانكتار أعلن بين خواصه أنه لن ينفذ الاتفاق كما هو، بل سيحصل على المال والأسرى والصليب ومن ثم لن يطلق سراح أسرى المسلمين في عكا، وينصحنا الكندهري على لسان رسوله أن نطلب رهائن من كبار الفرنجة لنضمن تنفيذ الاتفاق.

وقد كانت الرسالة خطيرة إلى أبعد الحدود، ولهذا فقد اجتمع بنا مولاي السلطان في خيمته نتدارس الأمر، فكان من رأي العادل أن الكندهري معني جداً بإساءة العلاقة بين مولاي السلطان وبين ملك الإنكتار. وإنه يرغب أن يقدم شيئاً مفيداً حتى يثبت صدقه في التعاون معه، مقابل حمايته من ملك الإنكتار، ولهذا قال العادل أنه لا يجب تصديق هذا الرجل، فقد أثبت في صور إنه قادر على بيع أبيه من أجل أطماعه وهو ما حصل فعلاً، وأضاف العادل أن سياسة مولاي السلطان القائمة على استمالة هؤلاء الأغراب هي سياسة ناجحة تؤتي أكلها فعلاً في أحيان كثيرة. فالهدية التي وصلت إلى ملك الفرنسيس في صور بعد أن غادر عكا جعلت من جيشه ينسحب إلى عرض البحر، كما أن العلاقة الودية التي أخذت في النماء بين مولاي وملك الإنكتار قد تؤدي إلى نتائج طيبة تجنب المسلمين وبلادهم ويلات الحرب، ولم يرغب العادل أن يشير صراحة إلى ما تردد من عروض بالزواج قدمها ملك الإنكتار إلى مولاي السلطان تقضي بزواج العادل من أخته الملكة جوانا، وكان عمر الزين قد عمل على تهيأة الأجواء بينهما إلدرجة أن الملكة جوانا أطلقت خادمين لها مسلمين كانت أتت بهما من صقلية، وذلك إكراماً للعادل، قال لي عمر الزين إنها امرأة ليست جميلة ولكنها تتحرق فعلاً للزواج من العادل. ولما عرضت الفكرة على سيدي ومولاي صلاح الدين لم يرفض بل رأى ذلك يندرج ضمن علاقة الحرب ذاتها، تلك العلاقة التي لا تراد لذاتها وإنما تراد لدفع الأذى ولنشر الإسلام، فإذا كان الزواج جزء من هذا الترتيب فلا بأس به، وربما رأى مولاي أن الزواج قد يحل مشكلات لا تحلها السيوف، وعلى العموم، فإن فكرة الزواج التي طرحها ملك الإنكتار، كانت جزء من تقاليد مرعية.

وفي نهاية حديثه طلب العادل من مولاي أن لا يعير كلام الكندهري أي اهتمام وأن ينفذ الاتفاق إلى نهايته، فلما جاء دوري قلت أن الكندهري وهو من نعرف لا يمكنه أن يغامر بإرسال مثل هذه الرسالة الخطيرة لولا أن لها أساس، فهو ليس ساذجاً ولا غريراً بحيث يقامر بسمعته ومكانته في حالة انكشاف أمره، ولهذا فإن من الحذر تصديقه،

خاصة وأن طلب الرهائن ليس أمراً منكراً في مثل هذه الحالات، ولن نخسرعلى كل الوجوه.

استمع ولوجهتي النظر، هز رأسه ثم التفت إلي: افعلوا كما قال قاضينا الأجل.

وفي اليوم التالي، وصل إلينا وفد الفرنجة يطالب بما عين لهم من المال، استقبلهم العادل في خيمته، فقدم لهم الماء المثلج والفاكهة التي تفيض بها جنبات شفر عم، ثم قال لهم: نحن نفي بوعودنا واتفاقاتنا، كلمتنا هي كلمتنا، ولهذا نطلب إليكم أن تسلمونا أسرانا هذا اليوم لنسلمكم ما عين لكم هذا الشهر.

قال مقدمهم وكان يدعى جيرار: فإذا رفضنا.

قال العادل بهدوء: تعطوننا رهائن من عندكم لنطمئن إلى أن أسرانا سيطلقون في نهاية الشهر الثالث.

قال جيرار وهو كريه المنظر فظ الوجه: فإذا رفضنا.

قال العادل: بابتسامة: لا تتسلمون باقي المال.

قال جيرار بجرمه الكريه: لا نوافق على هذا، عليكم أن تسلمونا مالنا لهذا الشهر، وتقنعوا بكلمتنا إننا سنسلم إليكم أسراكم في نهاية الشهر الثالث.

قال العادل: أي أنكم تطالبون بكل شيء حتى تسلمونا أسرانا... ما الذي يضمن.

قال جيرار بصوته المنكر: كلمتنا هي كلمتنا.

قال العادل: لا نوافق. أعطونا رهائن لنصدق.

قال جيرار: لا نعطيكم. وهذا كلام الملوك الأخير.

قال العادل: إذاً أنتم في نيتكم الغدر.

قال جيرار: وأنتم في نيتكم الغدر، وسأنقل ذلك إلى الملوك والأمراء الذين ينتظرونني.

قال ذلك وقام، فقام معه الآخرون، ركبوا خيولهم ثم انطلقوا في تلك السهول دون أن يطلبوا حماية لمرافقتهم.

رغب العادل أن يقول لمولاي أن وجهة نظره صائبة، وأننا قد نكون قد تعجلنا وأن من الممكن أن يكون الكندهري قد خدعنا، ولكن مولاي أمره بالسكوت قائلاً:

. الرجل لم يخدعنا على مافيه من خبث ومكر.

بعد ذلك بيوم واحد، وكان يوم الثلاثاء العشرين من آب من عام 1191، وبين صلاة الظهر وصلاة العصر، خرج ملك الإنكتار الذي يسمونه عندنا بالملك ريشار ويطلق عليه أهل ملته ريتشارد، خرج بمن معه من الخيالة والرجالة وضار بي الطبول والأبواق، يرافقه عدد كبير من الملوك والأمراء ومن معهم من الجند، خرجوا جميعاً من

عكا، وقطعوا المسافة مابين تل المصلبين وبين تل كيسان، ثم وصلوا تل العياضية حيث كان مولاي يرابط في خيمته لمدة عامين متتالين، الملك ريشار ومن معه من الجند كانوا يجرون وراءهم ثلاثة آلاف أسير مسلم، قضوا سنتين من أعمارهم المباركة يدافعون عن عكا، كانوا يرسفون في أغلال من الليف والزرد.

وما إن وصل ريشار إلى تل العياضية، حتى اصطف العسكر صفوفاً صفوفاً، ثم وضعوا الأسرى أمامهم، ثم تحدث راهب ما، ثم انطلق جنودهم إلى الأسرى، كل جندي استفرد بأسير، اشتدت ضربات الطبول واشتد نعير الأبواق، وبإشارة واحدة من الملك ريشار، هوت السيوف على رقاب الأسرى، دفعة واحدة، ثلاثة آلاف رأس من على أكتافها إلى الأرض، دفعة واحدة، هوت الأجساد إلى التراب، ترتجف ارتجافاً عظيماً، صارت الأجساد التي بلا رؤوس تنتفض وتتقلص وكأنها تتشبث بآخر خيط من هواء عكا.

الدم الذي كان يشخب من الرقاب، غطى التراب، كان كثيفاً وقانياً وله لمعان، وفاحت في الجو رائحة تبعث على الدوار.

الملك ريشار، ملك الإنكتار، رفع يده فتوقفت الطبول والأبواق، نظر حواليه رأى الجند والأعلام والخيول والتلال ومدينة عكا يحضنا البحر، نظر إلى الدماء التي غطت تل العياضية، شد هواء عكا إلى صدره وقال:

. الآن أستطيع القول إننا انتصرنا!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!

****

المحتوى

ملاحظة هامة: 5
الإهداء 6
ابن جبير 8
قراقوش 32
ابن شداد 54
جوانا 74
سيف الدين علي بن أحمد المشطوب 94
عمر الزين 116
راشد الدين سنان 138
الملك ريتشارد 162
متجددات القاضي الفاضل 181
المحتوى 206
روايات للمؤلف: 207

***

روايات للمؤلف:

. ***العـذراء والقريـة:*** *الطبعـة الأولـى، اتحـاد الكتـاب الفلسـطينيين، القدس، 1992. الطبعة الثانية، دار شرقيات، القاهرة، 2001.*

. ***قدرون:*** *اتحاد الكتاب الفلسطينيين، القدس 1995.*

. ***مقامات العشاق والتجار:*** *دار الفاروق للثقافة، نابلس، 1997.*

- ***آخر القرن:*** *اتحاد الكتاب الفلسطينيين، القدس، 1999.*

- ***القرمطـي:*** *الطبعـة الأولـى، منشـورات بيـت المقـدس، رام الله، 2001.*

الطبعـة الثانيـة، المؤسسـة العربيـة للدراسـات والنشـر، عمـان، 2003.

❑❑